

عبد الرحمن
منيف

شرقاً

شرقاً

رواية

المتوسط
المتوسط
المتوسط

تقديم الأستاذ راضي عن الكرم

شرقاً
المتوسط

في زمن ما، وعلى هذه الأرض الغبراء الممتدة إلى ما لا نهاية، من شواطئ المتوسط وحتى الصحراء البعيدة، كانت أشياء كثيرة تحدث، وكانت أشياء كثيرة تمر بصمت. والإنسان على هذه الأرض الغبراء كان يتحدى.

وفي ظل التحديات كانت دائماً السجون والتعذيب والاغتيال، حتى جاء وقت أصبح فيه الإنسان أرخص الأشياء وأقلها اعتباراً.

هذه الرواية تحاول أن تكون صرخة في جو الصمت، تنبيهاً، في الوقت الذي تبدو في الأفق غيوم سوداء كثيرة زاحفة، لعل شيئاً يحدث قبل أن يدمر إنسان هذه المنطقة ويصبح مشوهاً ولا يمكن إنقاذه.

إن هذه الرواية لا تعني أحداً. وتعني كل الناس أيضاً.

مقدمة

المادة الأولى: يولد جميع الناس احراراً متساوين في الكرامة والحقوق، وقد وهبوا عقلاً وضميراً، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً بروح الاخاء.

المادة الثانية: لكل انسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذا الاعلان، دون أي تمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو أي رأي آخر...

المادة الثالثة: لكل فرد الحق في الحياة والحرية وسلامة شخصه.

المادة الخامسة: لا يعرض اي انسان للتعذيب أو للعقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الحاطة بالكرامة.

المادة العاشرة: لكل انسان الحق، على قدم المساواة التامة مع الآخرين، في أن تنظر قضيته أمام محكمة مستقلة نزيهة نظراً عادلاً علنياً...

المادة الثانية عشرة: لا يعرض احد لتدخل تعسفي في حياته الخاصة أو أسرته أو مسكنه أو مراسلاته أو لحملات على شرفه أو سمعته...

المادة الرابعة عشرة: (١) لكل فرد الحق في أن يلجأ الى بلاد اخرى أو يحاول الالتجاء اليها هرباً من الاضطهاد.

الاعلان العالمي لحقوق الانسان

لتلمس جفوني كل هذه... حتى تعرفها
حتى تتجرح
وليحتفظ دمي بنكهة الظل الذي
لا يستطيع السماح بالنسيان

«نيرودا»

... أشيلوس تهتز، تترجرج، تبعد بحركة ثقيلة تشبه رقصة ديك مذبوح،
والميناء عند الغروب، يستقبل الأضواء الرخوة: يعلكها بأم ثم يتركها فتسقط،
ترتجف فوق الماء، ثم تذوب. وضجة البشر في تلك الساعة المليئة باللاجدوى،
أشبه ما تكون بأصوات جراء مخنوقة، أما الأيدي بحركتها البلهاء، فقد بدت
كالخرق البالية تهزها ربيع لا ترى، والوجوه، آه لشدة ما كانت تعاسة الوجوه: عيون
صماء، ثقيلة، أفواه مطاطية تشبه فروج الحيوانات بحركتها المتشنجة... وأشيلوس
المجدولة من العبث والدوي ترحف... تبعد...

ميناء الشقاء ويا ليت ميناء اللاعودة، آخر قطعة من الوطن، وآخر أوراق
خضراء وأنين!

ثلاثون سنة، ثلاثون صيفاً وخريفاً... ثلاثون ربيعاً... أما الشتاء فقد جاء
الآن، جاء في الثلاثين.

كان يوم الأربعاء ١٧ تشرين الأول

أول غيوم تمر فوق السجن، كانت هشة صغيرة، تشبه الغبار. ومع مرور
الدقائق تتمزق وتتلاشى، وكان في داخلي شيء يتمزق.

لماذا انفجر في داخلي ذاك العواء الأجرب؟ لماذا؟ لماذا؟

قلت لنفسي، بلغة فلسفية مدنسة:

على الأرض حيوان، له قامة طويلة، وأذرع قريبة الشبه بأذرع الشيمبانزي،
أما الساقان فضامرتان وفي نهايتهما أقدام عريضة، أما في القمة فكتلة صلبة مغطاة
بالشعر، وفيها ثقب عديدة، في المقدمة وعلى الجانبين. وهذا، الحيوان يستخدم

الثقب الامامي، وخاصة العريض في أسفل الكتلة الصلبة، في القرض والغناء والصغير، وأيام الشتاء يستخدمه للتنفس، أما أيام الربيع فإنه يستعمله لغرض واحد فقط، وهذا الغرض لم يعرف له بعد اسم محدد، قال بعضهم للدفاع عن النفس، وقال آخرون للقتل، أما الكثرة الغالبة، فتؤكد أن الاستعمال الوحيد لهذا الثقب في زمن الربيع، يكون للقتل أو للانتحار!

هناك اعتقاد واسع ان هذا الحيوان سينقرض خلال فترة قصيرة، وفي حال انقراضه ستحتفل الحياة، لأن ذهاب هذا الحيوان بداية السعادة الحقيقية على الأرض!

متى نشأ هذا الحيوان؟ كيف نشأ؟ لا أحد يعرف. أفاقت الحيوانات... ذات يوم، فإذا بها تجد نفسها أمام شيء جديد، لم تألفه من قبل. وقد حاولت كثيراً أن تقيم صلات عاقلة مع هذا الحيوان. وافق في البداية، لكن مع الأيام، أخذ يوقع بينها ويقتلها، وقد تسبب في انقراض اعداد كبيرة من الحيوانات الرائعة التي كانت تعيش على الأرض، ولما تكتشفت نوايا هذا الحيوان الجديد، ابتعد عنه الجميع، ذهبوا بعيداً وتركوا له كل شيء، لكنه لم يكتف، بدأ يحاصر الحيوانات ويقتلها في كل مكان، ولما لم يجد شيئاً يقتله أخذ يقتل بعضه. وهكذا بدأت المجازر، بدأت منذ آلاف السنين ولم تتوقف. ولذلك يعتقد ان انقراض هذا الحيوان، أصبح وشيكاً، خاصة وان الطرق التي يتبعها في القتل الآن تطورت كثيراً، وأصبحت فعالة بحيث لا تخطيء أبداً!

تبرير فلسفي أبله، سأشد السيفون في المرحاض واترك كل شيء ينسحب الى تحت: افكاري الفلسفية، احلامي، ماضي، اسمي، كل شيء، نعم كل شيء... يكفي ما احملة في دمي من آثار، الذرات الصغيرة التي تسري في الدم لا يمكن ان تغادرني أبداً، من قال لي هذا؟ طبيب السجن. ورقة التحليل؟ لم أعد أصدق، البحر مقبرة كبيرة، وأسعد الناس من يجد له قبراً في بطن حوت، هناك الدفء، السوائل اللزجة، والمساحة الرحبة المنعقدة على الحركة... كانت الأرض صغيرة، رطبة، لها رائحة المراحض دائماً، وتعرف لون الشمس والاشجار...

تقرير الطبيب واضح: قال لي وهو يثبت نظارته بيده اليسرى، ثم ينزل اليد الى فكه لكي يرسم ابتسامة شجاعة:

«الحالة... ببساطة: روماتيزم في الدم. النسبة حتى الآن لا تهدد الحياة. لكن العناية القصوى ضرورية».

وقبل أن أغادر العيادة كتب لي وصفة واوصاني باهتمام أن أكف عن اشياء كثيرة: القلق، التعب والانفعالات الحادة!

أما قائمة الطعام التي اقترحها، فقد امتلأت اصراراً قبل أن أغادر العيادة على مخالفتها، قلت لنفسي: «هذه القائمة لحيوان مدلل، لعصفور من عصافير رمزي، اما القائمة التي تتفق مع مزاجي فتختلف كثيراً... وسوف أطبقها بدقة!».

يوم الأربعاء ١٧ تشرين الأول، كنت احزم اغراضي في الحقيبة البنية، وأغادر السجن.

يوم الثلاثاء ١٦ تشرين الأول، الساعة السادسة مساء انتهى كل شيء. كانوا أربعة في غرفة مدير السجن، كنت أعرف اثنين منهم فقط، اما الاثنان الآخران فكنت أراهما لأول مرة، قال لي الأغا:

- جاءت الموافقة على اطلاق سراحك، وغداً قبل الظهر ستكون حراً... لم أفاجأ، لقد قدمت الثمن الذي طلبوه كاملاً، ولم يبق إلا أن أغادر السجن. لم أقل شيئاً. ظللت انظر الى الأرض. أحسست أن عيونهم تتابع حركاتي. كان جو الغرفة ثقيلًا برائحة الدخان والاحاديث السابقة ودقات ساعة الحائط. رفعت رأسي لأنظر الى الأغا، كانت على شفته ابتسامة صغيرة. لما التقت نظراتنا، قال:

- كان يجب أن تفعل هذا قبل أربع أو خمس سنين... تأخرت كثيراً، دفعت ثمن ذلك من صحتك.

ظللت صامتاً، كنت أحس نفسي عارياً، والأغا يطفىء سجائر على جسدي... أحسست أنه يطفىء واحدة تحت أبطي... واحدة بين يتي. واحدة في ذفتي. دقت الساعة الخامسة والنصف. نظرت الى الساعة حين دقت. قال احد الرجلين اللذين لا أعرفهما:

- نحن آسفون، لم نكن نريدك أن تبقى هنا طوال هذه المدة، لكن عنادك هو السبب. نظرت اليه وابتسامة تعب تطوف في رأسي ولا تظهر على شفتي، ولم أقل شيئاً. كان صوت الرجل الغريب، الثاني، وهو يتحدث الي صلباً، يشبه صوت مذياع ينقل احتفالاً، قال دون أن ينظر:

- الآن... نريد أن نبدأ بداية جديدة، عفا الله عما مضى، لا أحقاد ولا عداوات، ماذا تقول؟

هذا السؤال أعرفه، لم يوجه إليّ من قبل، لكنه بدا لي مألوفاً حتى لكأنّي سمعته مرات كثيرة.

اجبت بصوت بدا متلجلجاً:

- أريد أن أذهب للعلاج.

- سنسمح لك، لكن ما رأيك في أن تبعث لنا بأخبار الطلبة؟

- لا أستطيع، صحتي لا تساعدني.

- قدر ما تساعدك صحتك... تقرير كل أسبوع، كل أسبوعين.

- لا أستطيع... لا أستطيع.

قال الأغا وقد ألمته طريقي في الرقص:

- لا تكن عنيداً فتخسر كل شيء... الدنيا والآخرة.

قلت لهم بلهجة حزينة:

- هل أستطيع أن أجلس؟

وجاءتني الأصوات، صوتان ثلاثة أصوات، معاً، تطلب إليّ بالحاح أن أجلس، قال الأغا وهو يتصنع المرح ويضحك:

- الواحد منا لا يزال يتصورك سجيناً... اجلس يا أخي، تفضل.

وقام من وراء مكتبه، قدم لي سيجارة وأشعلها، وكتعبير أخير عن المودة ضرب كتفي بصدّاقه!

قبل السادسة بقليل، ومع رشقات الشاي المعطر والدخان، أصبح الموقف شديد الوضوح. قال الرجل الغريب الذي يشبه صوته رنين النفود، يلخص الاتفاق:

- غداً قبل الظهر نخرج، وبعد أن تستريح يوماً أو يومين تبدأ معاملة السفر، خلال الشهر الأول لا نريد منك شيئاً، وحتى في الشهر الثاني، وبعدها سترجع ونجد

الوظيفة امامك، وإن شاء الله يكون تعاوننا مثمراً ولصالح الوطن... المهم أن ترجع بسرعة... انفقنا؟

- سنرى!.

ودقت السادسة، الأغا نظر الى ساعته ثم الى ساعة الجدار، ضرب الطاولة اشارة الى ان المقابلة انتهت، وقبل ان استدير، وأهز رأسي، كان الباب خلفي قد انفتح. قال الأغا يخاطب الحاجب:

- قل لأمر الحرس ان الاستاذ سينتقل الى مكان آخر.

الأربعاء ١٧ تشرين الاول، الساعة الحادية عشرة، الشمس في الساحة دافئة، الحقيقة تقف على حرفها بانتظار توقيع الأوراق، مر الأغا، ولما رأي مستعداً، وقد ارتدبت ملابسي بما فيها الرباط الأحمر، غمز بعينه وهو يبتسم، وتابع طريقه دون أن يقول كلمة!

قبل الثانية عشرة كنت أطرق باب البيت... طرفته طرفة خفيفة ثم دفعته ودخلت وجدت اختي تنشر فراشاً مبلولاً، والى جانبها امرأة عجوز لا أعرفها. ولما رأيته انيسة انفتحت فمها من الدهشة والفرح. هجمت عليّ وبدأت تقبلي وتبكي، ثم ابتعدت عني خطوة صغيرة واخذت تتألمني، الدموع تنساقط من عينيها بغزارة، كانت دموعاً حزينة وفرحة، وظلت تنظر إليّ!

رفعت يدي الى عيني وضغطت دموعاً انزلت دون أن أستطيع اخفائها. التفت الى المرأة العجوز وقلت بألفة متروية:

- مرحباً... عمة...!

وقبل أن تجيب سألتها:

- كيف الحال... عمة...!

هجمت انيسة عليّ مرة ثانية، وكأنها اكتشفني من جديد، وهذه المرة من صوتي. احتضنتها وقبلتها على خديها ورأسها. ودون أن أنظر إليها مباشرة قلت بصوت أردت أن يكون متماسكاً:

- أريد أن أنام يا أنيسة، أنا متعب، متعب جداً.

ومرة أخرى تراجعت لتطلع إليّ. كان في عينيها تساؤل ودموع. قالت وهي تلتقط الحقيقة وتشير إليّ أن أتبعها:

- تأكل ثم تنام.

- انيسة... لست جائعاً، أريد أن أنام!

بعد خطوتين التفتت، ظلت تسير وهي تنظر إليّ. كانت تخاف أن لا أتبعها، وتراءت لي ضحكة صغيرة تغزو ملامحها. شعرت وأنا أرى الضحكة نهاية كل شيء. كدت أتوقف. كدت أصرخ. ضربت الأرض بقدمي، مثل عادي قبل خمس سنين حين كنت ادخل الدار. تطلعت انيسة إليّ بلهفة وهي تتذكر. اتسعت ضحكتها، لما أصبحنا على باب الدهليز قالت:

- غرفتك نظيفة وجاهزة!

- لا أريد أحداً.. لا أقارب.. لا جيران.. اتركي فقط لأنام!

لم أنم رغم كل ما فعلته انيسة. احضرت لي بيجامة حامد، احضرت لي ملابس داخلية نظيفة، وضعت علبة سجائر ومنفضة الى جانب السرير، انزلت الستارة وابتسمت وهي تغادر الغرفة، قالت بعد لحظة، وهي تفتح الباب مرة أخرى:

- سأتركك تنام حتى الغروب.

- حتى الغروب؟

- الا يكفي؟

- لا أعرف، سأنهض وحدي!

الفراش لامع، نظيف. نحيب الوسادة ووضعت رأسي على طرف الفراش. تقلبت. نظرت الى الجدران.. توقفت عيني على صورة الشهادة، كانت في زاويتها اليسرى صورتي، نهضت على رؤوس اصابعي، صعدت فوق المقعد ونظرت طويلاً الى الصورة، «ليس بيننا أي شبه»، ذهبت الى المرأة وتطلعت الى وجهي: شعرات بيضاء في الفودين وفي منتصف الرأس، صفرة خفيفة في العينين، تجاعيد... «لمن هذا الوجه؟» وعدت أتطلع إلى الصورة في زاوية الشهادة، قلت في نفسي: «ان أحد هذين مات».

رجعت لأنام.. كانت رائحة الفراش لذيدة أول الأمر، غطيت وجهي وأغمضت عيني وتنفست. لا يمكن أن يكون هذا الفراش لي، مات صاحب هذا الفراش. تغيرت الرائحة، انها الآن رائحة البود، رائحة المستشفيات، لا أطيق أن أبقى الغطاء فوق رأسي، عدلت الوسادة وحاولت أن أنام، ولكن الافكار بدأت تغزو رأسي بطيش:

ماذا يفعلون الآن؟ الساعة تجاوزت الواحدة. في الواحدة تبدأ القيلولة. الغداء ينتهي في الثانية عشرة والربع، لم يكن غداؤنا يحتل أكثر من عشر دقائق. حسيب لا يتخلل عن عاداته أبداً.. يجب أن ينام بعد الظهر، وعصمت ينام.. واعجد؟ وابراهيم؟ هذا اليوم لن يناموا، لن ينام احد.. لديهم قصة.. اعرف الكلمات التي سيقولونها، سمعتها مرتين من قبل، في الليل سيكي أمجد.. بكى في المرتين السابقتين، لم يكن يتكلم، ويكره الكلمات التي يقوها ابراهيم.

عندما ينام الجميع، سيبقى أمجد مستيقظاً تحت الضوء المنسكب من السقف، في الغرفة الواطئة المسودة، وسوف يبكي، لا يرضى أن يراه احد يبكي. لما رأيته آخر مرة انتفض وجهه من الألم وتقلص، ثم استدار بسرعة، لم أر في حياتي انساناً مثل أمجد. لن يقول عني كلمة واحدة، ستضيق عيناه ويسافر بعيداً.

والآخرون سيقولون الكلمات الكبيرة إياها. لماذا أخاف الآن؟ لم أكن أشعر بالندم قبل أن أوقع، لكن ارتجفت حين سمعت صوت القلم، كانت رائحة الحبر كريهة، ونزّت يدي عرقاً. قال الأغا وهو يسحب الورقة بعد أن وقعتها:

- لن نقول لأحد قبل أن تخرج.. وأصحابك.. لن يتأخروا!

قلت لنفسي: هل كان نفس التوقيع الذي أوقع به دائماً؟ لم أوقع منذ وقت طويل، آخر توقيع كان قبل أربع سنين.. في ذلك الوقت قرأت كل ما كتبه بدقة قبل أن أوقع، غضبوا، شتموني، قالوا بهزء:

- انظروا... يخاف أن يوقع على أقواله!

نظرت إليهم بحقد دون أن أقول كلمة واحدة، وبعد أن قرأت ما كتبه بدقة، اعترضت على بعض الكلمات، نظروا إليّ بسخرية وقال احدهم:

- اشطب الكلمات التي لا تريدها ووقع.

شعيت جملتين ووقعت. وقبل أن أغادر الغرفة تلقيت بصفة كبيرة عروجهي، وضربة انغرس في اليقي اليسرى من عبد. . اما حاتم فقد فتح باب القبو ودفعني بقوة. . اتذكر انني كنت انظر اليه بحقد، لكن بعد ثانية كنت انظر الى ارض القبو وقد انتشرت فوقها قطرات الدم الذي سال من الجرح الذي أصابني في شفتي.

لا. . ليس ذات التوقيع. لقد كان توقيعى هذه المرة سريعاً، ونهايته طويلة مضطربة. . سحب الأغا الورقة والابتسامة تملأ وجهه. اعطاني سيجارة وقال بصوت بطيء:

- الله يصلحك، لو وقعت هذه الورقة لكنت قبل أربع سنين خارج السجن، لكن على الانسان أن يدفع ثمن ما يتعلم!

هزرت رأسي دون أن أقول كلمة. الأغا الذي أراه الآن يختلف عن الذي عرفته طوال خمس سنين. بدا لي هذه المرة سميناً، بالكرش الصغير الذي يبرز فوق الحزام، أما يده فقد رأيتها أشد بياضاً وثقلأ. ولم الحظ خلال الفترة الماضية كلها أن له شامة في منتصف رقبته.

ماذا يقولون عني؟

أول المساء تبدأ الحفلة، هكذا حصل في المرتين السابقتين. في المساء يبدأ السجن ويروق مزاج الأغا. . بعد القيلولة الطويلة.

آخر مرة، بعد أن وقع نجيب تلك الورقة اللعينة، جمعنا الأغا. كان يمسك بيده عصا صغيرة، ظننتها من الخشب أول الأمر، لكن عندما سقطت على الأرض سمعت رنينها، كان يجلس وراء مكتبه وفوقه تماماً الضوء المنسكب من مصباح أخضر، يجعل لون الغرفة بارداً. تأملنا طويلاً وهو يقلب عينيه بيننا، وبعد أن درس وجوهنا بإمعان، هز رأسه وقال لأجد:

- اقترّب يا ناعم، يا حلو، وأقرأ هذه الورقة بصوت عال!

كان أجد يتعثر وهو يخطو نحو الورقة الممدودة، وبدأ وجهه بلون البنفسج من الحمرة والضوء الأخضر، وما كاد يقرأ الكلمات الأولى: «أنا نجيب سالم، أوقع بمنتهى الحرية والرغبة»، حتى تغير صوته، تقلص من الألم، وكاد يعيد للأغا

الورقة. ابعداها عن عينيه وهز رأسه، لكن صرخة الأغا جعلته يرتجف، صرخ الأغا وهو يقفز من وراء مكتبه:

- إقرأ يا كلب، إقرأ بصوت عال!

تردد أجد لحظة، كأنه يريد أن يعاند، أن يقاوم، لكن الوخزة الشديدة من عصا الأغا، انغرزت في صدره وجعلته يتابع.

ولم يكتف الأغا. . جعلنا نقرأها واحداً بعد آخر. حتى اذا انتهينا استدار وجلس وراء الطاولة من جديد، وهو يحس يزهو لم يستطع أن يخفيه، تطلع اليه من جديد وقال بصوت بطيء ناعم:

- من سيوقع الآن؟

ولما ظللنا صامتين، هز رأسه بثقة وتابع:

- الجميع على هذا الدرب. . اذا لم يكن اليوم فغداً، وانتم الذين ستخسرون. غداً ستوقعون وتظلون في السجن، أما الآن فالذي يوقع يخرج من مكنتي رأساً الى الشارع وأنا سأوصل ثيابه الى بيته. . هل توقعون؟ هل يوقع أحد؟

ولم يعجبه أن نظل صامتين هكذا. . ضرب بعصاه طرف الطاولة ووقف. اقترّب منا، دار حولنا ثم عاد من جديد واستند بظهره الى المكتب، قال يوجه اليّ الكلام:

- اسمع يا أحول. . والله لأرجعك. . (١) أمك، ولك مرّ عليّ مثلك، وأكبر منك، وكلهم ركعوا. . اترك يباسه الرأس ووقع!

لم أجب ولم أنظر اليه، التفت الى أجد وقال:

- وأنت يا عود النعناع، يا حبيب امه، ألا تريد أن توقع؟ وغير لهجته: أمك فاتحة مناحة، كل يوم تأتي الى السجن وتقول: صغير، لا يفهم شيئاً، ورطه أولاد الحرام، نعم ورطوه، اتركوه بجاه النبي، الله يطول عمركم، اتركوه!

وعاد الى لهجته الأولى: اذا وقعت، انا الذي سأذبح خروفاً لك وللدلوعة أمك!

(١) شتيمة نابية

وابراهيم وسامي وعزيز. لم يترك الأغا شتيمة. قال كل الشتائم التي يعرفها. تصوريته حين رأيته أول مرة قبل خمس سنين، انه لا يعرف كيف يرد التحية، بدا لي خجولاً، بصوته الناعس وعينه اللتين لا تثبتان في مكان. لكنه الآن يشبه سمساراً أو قواداً بصوته الذي يلعلع.

لما تعب من الشتائم أجلسنا على الأرض، وبدأ يخاطبنا بحذائه. وضع قدمه على رقبته ابراهيم من الخلف وداس بكل ثقله حتى وقف فوقه، وترك قدمه الأخرى تهتز في الهواء. أما عزيز الذي كان في بداية الصف، فقد دفعه بقوة فاصطدم بنا ثم انقلب على وجهه!

الأغا يستعد الآن. يغادر المكتب قبل الثانية، ويعود في الخامسة، وبعد الخامسة بقليل تبدأ الحفلة التي سأكون بطلها هذه المرة. سيقول لهم:

- قلت لكم مئة مرة ستوقعون الواحد بعد الآخر. كم رأس بقي حتى الآن؟ دور من غدا؟ سنقرأ الفاتحة على روحك يا أمجد غداً أو بعد غدا؟ وأنت يا ابراهيم؟ برهوم، عيوني يا برهوم. أمجد كن شجاعاً لكي يقيموا لك تمثالاً في الساحة الرئيسية! لكن اذا مت يا برهوم لمن سترك الأربع بنات وأمههم؟ حرام عليك يا بطل، غيرك أرجل منك ووقع. وانت. الى متى؟

كنت بنظره اكثرهم يباية رأس، قال لي اكثر من مرة، وهو يحاول معي:

- وقع وسترى بعينيك. وحتى تتأكد يمكن ان تبقى في السجن الى ان يوقعوا. اذا رأوا توقيعك لن يصمدوا طويلاً، أنا متأكد من ذلك، اسمع مني يا رجب، أنا أنصحك كأخ، تحملت كثيراً، أترك غيرك يتحمل. لا تكن مجنوناً.

السقف يدور. لم تعد هذه الغرفة غرفي، والسرير لم أراه من قبل، لم اتم عليه. كل شيء تغير. لا، أنا الذي تغيرت.

أمس في مثل هذا الوقت كنت انساناً آخر، حتى السادسة كنت قوياً. لا، قبل السادسة بدقائق. كنت أنظر الى الساعة أريدها ان تكون الشاهد الوحيد على النهاية. رغم كلماتهم الخلوكة كانوا اعدائي. الاربعة كانوا اعدائي. كانت الساعة هي المخلوق الوحيد المحايد. قبل السادسة بأربع دقائق. خمس دقائق. أمس في مثل هذا الوقت كنت قوياً. صحيح اني قلت لهم شيئاً قبل بضعة أيام، لكن من يستطيع ان يمنعني من التراجع؟

غدينا في الثانية عشرة. جاؤوا بالغداء قبل موعده بقليل. وضعت سيج كباب في رغيف وبدأت ألوكة. كان الأكل لذيذاً. لما عدت بعد الموافقة على التوقيع، لم أستطع أن أمد يدي الى بقايا الأكل، كان الكباب بارداً لزجاً. وكانوا قد انتهوا من الأكل. نظروا اليّ طويلاً، وابراهيم هو الذي سأل.

- تأخرت. تأخرت كثيراً، ماذا حصل؟

كانوا جميعاً ينتظرون اليّ، كانوا ينتظرون أن أقول تلك الكلمات اللعينة. ولا أدري كيف قلت:

- مراجعة الطبيب!

- الطبيب بعد الظهر؟

هكذا سأل عزيز وهو يبعد الصحن ويستدير نحوي. قلت بفراغ صبر:

- انهارت صحتي ولم أعد احتمل.

وصمتنا. عادوا الى التفكير عدا أمجد، ذهب الى الصفيحة وبال. كان ينظر اليّ بعيون مرعوبة وكأنه أحسن. وعندما عجزت عن الأكل، وحملت الصحن لأضعه عند الباب، انقلب من يدي. هل كانت يدي ترنح؟ هل فضحتي وجهي؟ الأغا وهو يأخذ الورقة ويطويها، قال بصوت واضح:

- لن تبدأ الحفلة الا بعد ان تغادر السجن بست ساعات. مثل العادة!

لم أتم طوال الليل، رأيت أمجد ثلاث أو أربع مرات يرفع رأسه مثل ذئب وينظر اليّ. لم ادعه يراني مرة واحدة مفتوح العينين. كنت ذليلاً عجوزاً اغمض عينا وافتح الأخرى، كنت استدير وأهرب من مراقبته. في المرة الرابعة اقترب مني تماماً، واخذ يرقب تنفسي، كان يقول باستمرار:

- لا يمكن معرفة النائم إلا من تنفسه. النائم يتنفس بانتظام.

كان يفعل ذلك عندما يصيبه الارق ويريد انساناً ليتحدث معه. كان يمر فوق رؤوسنا، ينظر الى الوجوه تحت الضوء الكهربائي، ليتأكد. حتى إذا رآنا نياماً واصل طريقه وجلس عند الباب الحديدي المغلق، أما اذا لقط أياً منا، وقد خانه النفس المنتظم، فيهزه هزات رقيقة حتى يوقظه. وبصوت أنيس يقول:

-سوف تنام طويلا.. الموت والنوم متشابهان. لا فرق بينهما الا أن الاول طويل والأخر قصير.. الا تنهض للعيش فترة اطول؟

كانت عيونهم في الليلة الاخيرة تشع نارا. كانوا يحسون بطريقة ما أن شيئا قد حصل، يحسون بذلك من اهواجس، من طنين الأذان، وربما من الحزن الذي يأتي فجأة!

خيم علينا الحزن كظل ثقيل، فقدنا القدرة على أن نقول شيئا. كنت اريد ان أصرخ، ان أرتقي على كتف أمجد وأبكي، لكن عيونهم المشعة المسائلة، بترت آخر الافكار المشتركة التي تعطي نبراً لأن أضحك، لأن أبكي، لأن أمسك بيد أي واحد منهم واهزها كتعبير اخير عن شيء ما.

قال لي ابراهيم وهو يتبول في الصفيحة، ودون أن يستدير نحوي:

-رحب.. هل اعطوك دواء جديداً؟

لماذا تذكر ابراهيم مرضي وهو يتبول؟ حرقه البول المزمنة التي نهشه؟ علاقة غامضة بين البول ونهايتي؟ لا بد أن افكاراً خطيرة مرت في رأسه تلك اللحظة، والا لماذا سأل بهذه الطريقة؟

قلت له انذره بالنهاية، لعله يفعل شيئا:

-الادوية لا تجدي، انتهيت يا ابراهيم!

ودون ان يزور بنطاله تقدم ونظر الي تلك النظرة المتزوعة من الداخل، والتي لا تعبر عنها العين الا كمرآة صدئة مفسورة. ارخيت عيوني بسرعة لئلا يكتشف فيها الدوي. وأمجد، نظر إلينا نحن الاثنين بسرعة وضرب الخائط برجله وتغدد.

كانت الليلة الاخيرة صعبة كالولادة المبته. توقفت الساعة التي في يدي، أصبحت كحجر أسود مشلول، بنىء بالنهاية. تملكني الخوف، حتى ظننت أنهم لن يتركوني على قيد الحياة. تصورت اني لو تمث لحظة واحدة، فسوف يطبقون علي ويقتلونني. قلت امنحن انكار امجد:

-الا يزال الارق صديقك الدائم؟

ابتسم بحزن وهز رأسه دلالة الالجاب. سألته من جديد:

مثل قبل أو أكثر؟

.. يتغير شيء!

اذن أمجد ليس صغيراً بالمقدار الذي تصوره، يعرف اني تغيرت وسوف يكون أول من يطبق على رقبي. أمجد يجارب هواجسه بالاراق، بالتطرف، لو تساهل لحظة واحدة لسقط، لا يريد ان يقول ما يشتعل في رأسه. قلت لنفسي باصرار: التطرف بداية السقوط.

وعدت أدور في الوجوه. لماذا تشع عيونهم بكل هذا العمق؟ انها ليست العيون التي ارغمت فيها لياني الشتاء والصيف، لا تشبهها أبداً. تبدو الآن قريية الشبه بعيون الحرس: مرتابة، جسورة، عدوة.

وعادت كلمات عصمت تدور حول رقبي كحبل مجدول، الآن اذكر كلماته

كلها!

لما رجعنا من الحفلة الاخيرة بعد سقوط نجيب، كانت مخارج الحروف وهو ينطقها متداخلة غامضة، لكن الكلمات كانت اشد وضوحا من جميع الحروف التي تكونها، نظر في وجوها طويلا، كانت نظرتة حاقدة، قاسية. أمسك أمجد من كتفه وهزه، وهو يقول:

-كنت تدافع عنه! قلت لكم مرة انه خائن.. لقد رأيتم الآن بأعينكم لم يوقع صك نهايته فقط، كان توقيع صك نهايتنا كلنا.. ومن يدري ماذا قال لهم؟ والأوراق؟

وتخلصنا تلك الليلة من الاوراق، احرقناها قريبا من صفيحة البول. كنت الحارس، ارقب الباب الخارجي، لكي انبههم اذا جاء أحد.. اتفقنا ان تحرق الاوراق واحدة بعد اخرى. فاذا جاء الحرس أغرقناها في صفيحة البول، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي تمنع قراءتها. قال ابراهيم وهو يتطلع الى الصفيحة:

-الحرق لا تأتي الا في الوقت المناسب.. تعالوا بولوا، بولوا عني وعنكم، حتى اذا جاء الشيطان، أغرقنا الاوراق، ومنعاه من قراءتها!

ولم يبدأ عصمت. لم يشارك في أي عمل. ظلت شتائم ترحف لأذاننا حتى ساعة متأخرة تلك الليلة.. الكلمة التي ظل يرددناها دون تعب، وهو يشد على بده:

لو عرفت لقتلته! يمكن أن اقتله بسهولة، اضع المخدة فوق وجهه واجلس بكل ثقل حتى يموت.

ويحرك يديه بطريقة عصبية ويضرب الجدار ويتابع وقد تخلل صوته غضب حزين:

بيدي هاتين يمكن أن اخنقه... انه يسكر الان، لقد باعنا... آه لو عرفت في الوقت المناسب، لو عرفت لقتلته.

عصمت يعني كل الكلمات التي يقوها. طلب مرة من الحارس ان ينادي آمر الحرس، رفض الحارس، طلب منه ثانية، ورفض، وفجأة رأينا عصمت يضع رجله في بطن الحارس ويرفسه بقوة. سقط الحارس وأغمي عليه، ودفعنا كلنا ثمن الضربة حبساً انفرادياً لمدة واحد وعشرين يوماً... ومرة اخرى بصق عصمت في وجه آمر الحرس. قال له وهو يرفع الصرصار من صحن الفاصولياء:

هذه لحمكتكم ايها الخنازير؟

ولم ينتظر الجواب، بصق في وجهه... وسالت البصقة الكبيرة حتى الوسام الذي كان على صدره، الوسام الذي كان مفخرة للحراس الافراد. وظل عصمت في الحبس المنفرد خمسة واربعين يوماً.

هل قتل عصمت أحدا من قبل؟ كيف تجتمع في جسده تلك الارواح المتناقضة؟ يضحك مثل طفل، يأكل مثل حيوان جائع... أما اذا بدأ الاضراب عن الطعام، فانه يكون علينا أكثر قسوة بمئات المرات من الحرس.

كان يهدد، يشتم، يجلس عند الباب الحديدي، وأكوام الاكل تتجمع مثل القذارة، فاذا مد أحد يده الى رغيغ، أمسك بيده، وهزها بقوة خارج القضبان لكي يسقط رغيغ الخبز.

لو اطبقت يدا عصمت حول رقبتي لخرجت الصرخات الصغيرة من فمي مثل طائر مخنوق... سيدوم الامر لحظة، ثم تلتوي رقبتي واسقط. يدها قويتان. لا يتباهى مثلما يفعل ابراهيم، لكن لا يقترب منه احد... حاول ابراهيم مرة أن يكاسره، كان وجه عصمت ضاحكا، وبيده الاخرى السباجرة لا ترتجف، أما وجه ابراهيم فقد احتقن للحظة قصيرة، ثم صرخ، وسقطت حبات العرق مع اليد المتخاذلة.

لا يمكن ان ينام أحد في هذه الليلة، انها ليلة احتفالية كبرى بالنهاية، يفد الزمن معناه، تتحول الافكار الى امطار شتائية ضاحكة متلاحقة. هل كانت الانفاس منتظمة فعلا تلك الليلة؟

وأجد عندما قام الى الصفيحة، هل كان ليتأكد انني نمت، حتى يعطي الاشارة فتبدأ عملية قتلي؟ كان أجد يترنح وهو يمشي، كان يريد ان يبقي عينيه مغمضتين ليعاود النوم من جديد، او ليوحى الي بثقة سريعة تدفعني الى النوم، لكي تبدأ عملية القتل!

أما شخير عصمت فكان متناوبا كصرير آلة معطوبة، قلت في نفسي: «انه نائم لكن الشخير يتغير» راقبته طويلا، استمر منتظما لفترة، ثم تغير، تغير أكثر من مرة. وسألت نفسي: «هل يمكن للانسان ان يشخر بارادته، حتى ولو كان نائما؟ الا ينهض اذا هزته اليد المكلفة باعطاء الاشارة؟» ولم استطع النوم لحظة واحدة. كانت الافكار تتراكم في رأسي مثل خيول مجنونة، وكانت فكرة الموت تسيطر علي. كنت أقول في نفسي «سينهض عصمت ليقوم بالواجب دون ابطاء». وبتصميم أرعن كنت اجيب: «لن أتركهم يفعلون ما يريدون دون ان اصرخ، دون ان احتج. صرخة صغيرة، صرخة واحدة في الليل الساكن توقف الحجر... والحراس لن يكونوا بعيدين الى الدرجة التي يمكن ان اموت قبل ان يصلوا... حتى لو تأخروا قليلا فانهم سيصلون في الوقت المناسب. لا يمكن ان يموت الانسان خلال ثوان قليلة، القلب في منتهى القوة، يستطيع ان يقاوم، ان ينتظر... والحراس، قبل ان يرجع صدى صرختي سيكونون فوق رؤوسنا، انهم ينتظرون، يتوقعون... والأغا لا بد ان يكون قد قال لهم شيئا، سوف يحافظون علي أكثر من أي وقت سابق... لو مت فسيسجنون جميعا، سيكونون مسؤولين عن مقتلي...»

الليل في بداية الشتاء طويل... طويل. الساعة في ليالي الشتاء طويلة لدرجة انها تتجاوز عشرات الساعات الصيفية، والا لماذا كانت الظلمة الكثيفة في الخارج؟

لماذا السكون الاخرق الذي لا تمزقه اصوات الصراخ او سعال العنبر المجاور؟ ان احساساً غامضاً يخيم على جو السجن، بانتظار نهاية انسان، هل تكون نهايتي؟

لكنني لم أنته! لا... بل انتهت. كانت عيونهم الضاحكة وهم ينظرون الى الأغا يطوي نهايتي الورقة، كانت كلمات الرجل الغريب وهو يعرض علي التعاون

معهم، نهايتي... لا لم أنته. المرض هو الذي قتلني. اريد ان استريح مؤقتا... لم أعد قادراً. للانسان قدرة معينة على الاحتمال ثم يتلاشى... وانا هل ينكر أحد كم تحملت خلال السنوات الخمس؟ من منهم تحمل مثلي؟ اتخدهم جميعا... قل يا عصمت، هل تحملت اكثر مني؟ الضرب، السجن الانفرادي، التعليق في السقف، المياه الباردة ايام الشتاء، المنع من النوم... جميعنا تحملنا... ربما تحملت اكثر مني وانت معلق، قضيت يوماً زائدا. هذا ليس ذنبي، جسدي لم يعد يحتمل، أغمي علي مرات كثيرة، وآخر مرة لم يعد الماء البارد أو الصفعات كافية لايقاظي، لانهاء حالة الاعياء التي سقطت فيها... كان الفرق في الوزن بيننا يزيد على عشرين كيلو غراما، كان وزن عصمت يزيد على الثمانين وانا لم ابلغ الستين في حياتي. ماذا استطيع اذا انهار جسدي؟ ارادتي لم تتداع، لم تنهر في أي يوم... تحملت أكثر منهم، وهم يعرفون ذلك تماماً... يتذكرون ذلك الغروب... كانت الجمعة، موعد الزيارة الاسبوعية، جاءت أختي وعمتي... اما امي فلم تأت... كانت اول مرة تنغيب... لم تقولا لي كلمة واحدة. أحسست. صرخت أسألها، بكّت أختي فجأة وعرفت كل شيء!

كانت امي تعاني من ارتفاع الضغط منذ فترة طويلة. قلت لها عشرات المرات: كفي عن زيارتي... لا اريد أن ترييني هكذا. كانت تبسم ولا تحجب، وتأتي.

في ذلك الغروب شعرت اني وحيد لدرجة لا يمكن احتماها. هم قتلوا امي، ظلوا ينخرون في عقلها وقلبها حتى قتلوها.

ظللت أياماً عديدة لا انام. كنت اسهو مثل طائر. انتابني آلام حادة في المعدة. تقيأت مرات كثيرة، حتى ظن الأغا اني اصبحت لقمة سهلة... عرض علي أثناء مرضي ان أوقع واخرج فوراً، بصقت في داخلي، وانا اتلوى من الألم، وقلت له بجلالة:

-اموت ولا أوقع.

وهز رأسه بثقة، وطلب من آمر الحرس اعادتي الى العنبر دون علاج.

لم تمت أم أي واحد منهم... امي وحدها هي التي ماتت وانا سجين... لا انكر ان اثنين منا كانا دون امهات قبل السجن منذ وقت لا يتذكرانه، أما الآخرون، فانهم ظلوا يتدفأون بذاك الحنين الرائع، وهم يتذكرون امهاتهم... كانا

متكدين ان السجن سينتهي يوماً، ويعودون الى بيوت تملؤها الامهات بالدفء، والامهات يعنين شيئاً خارقاً، شيئاً يعرفه اكثر من يعرفه اولئك الذين فقدوا امهاتهم.

بعد وفاة امي بسنة، سقطت هدى.

كانت هدى اقوى الآمال التي تشدني الى عالم الحرية، كنت اتصورها مثل بطلة الاساطير، لا تمل ابداً من الانتظار. لكن لم تنتظر، قالت لي في آخر رسالة: «أنا مرغمة على الموافقة يا رجب، ولكن سأحتفظ بالذكرى الى الابد... اي نفع من الذكرى يا هدى...؟ هل تدفئ السجن الذي لا يحلم الا بساعة الحرية؟ هل يخرج من ليالي السجن الطويلة ليسقط في البرودة والفراغ؟

كانوا يعرفون علاقتي بهدى، لم يبق احد الا وعرف. كان كل شيء مباحاً بيننا في السجن. لم يقرأوا رسائلها مرة واحدة، لكنهم لم يتوقفوا عن السؤال، في كل مرة تأتي الرسائل. انيسة هي التي تعرف كيف تهرب الرسائل... كانت تضعها في غلاف قدر الطعام، تحت السجائر، في داخل اقراص الكبة... وبلهفة المجنون كنت انتظر، حتى اذا وصلت الرسالة الى يدي لا أمل من قراءتها، إلى أن تأتي رسالة اخرى... كنت احفظ رسائل هدى، واقبلها في الليل، كنت اضعها تحت رأسي مثل تيممة مقدسة، وعندما تضطر لان تحرق رسائلنا واوراقنا، بين فترة وأخرى، خوف الهجمات المفاجئة والتفتيش، كانت روحي تحترق مع الرسائل. تمنيت لو اضرب او احبس انفرادياً، لو اكنس مراحيض السجن كلها من أجل ان يوافقوا على أن تبقى لي رسائلها، لكن فكرة مثل هذه كانت تبدو مستحيلة، واضطر للمشاركة في حفلة الحريق التي تجري كل اسبوعين، وفي الظروف المفاجئة.

ضاعت هدى لاني كنت سجيناً... لو كنت حراً لما انتظرت كل هذه السنين... كان باستطاعتي ان أقول لها «الان يمكن ان تتزوج يا هدى...» وتتزوج فعلاً. لو كنت طليقاً لما استطاع احد من أهلها ان يحتج او ان يقول كلمة واحدة، لكن ماذا تستطيع أن تقول لهم وانا محكوم وراء جدران السجن لمدة احدى عشرة سنة؟ هل يوافق احد على الانتظار طوال هذه المدة؟ هل يقتنع أهلها؟ كانت امها تعرف علاقتنا، لكنها مثل كل الامهات تريد لابنتها حياة لا يمكن للسجين ان يوفرها... وذهبت هدى... تزوجت. سألت أختي مرات كثيرة عنها، كانت اجاباتها سريعة، عصبية، كأنها لا تحب ان اذكر اسمها.

أنا الوحيد بينهم الذي كانت تربطني بالعالم الخارجي علاقة من هذا النوع، وفقدتها.. وهم: ثلاثة متزوجون وهم أطفال، وثلاثة لا يعرفون عالم المرأة ابداً.. حتى ان وليداً لم يكن يحب ولا يطبق حديثاً عن المرأة، كان يصرخ بجنون اذا سمع احداً يتحدث عن عالم المرأة الغني الرائع.. كان يقول:

-السجن والمرأة لا يجتمعان، وبداية انهيار السجين ان يسيطر عليه شبح امرأة. كفوا عن هذا المرض أيها الثيران.. اخصوا انفسكم لينتهي عذابكم!
ولم اذكرها بعد تلك الرسالة. قلت لهم بأسى، في ليلة شتائية، بعد ان تلقيت آخر رسائلها:

-اصبنا اليوم أربعة ضد ثلاثة، انتقلت الاغلبية للثيران المخصية!

دهشوا.. استغربوا كثيراً. سألوني عند الغروب عن اخبار العالم الخارجي، وهم يقصدون اخبار هدى.. قلت لهم بسرعة:

-العالم الخارجي ما زال يدور على نفس المحور، والثور لم يتعب لكي يغير وضع الارض، وينقلها من قرن الى آخر..

لم يسألوا اكثر، ولم يتحدث، كنت اريد ان اتشرب العذاب على مهل، لكي اشعر بلذة الفقد وعذابه..

أما في الليل، والمطر يتساقط مثل فتاديل مشعة في الساحة المضاءة، فقد قلت لهم، بعد الجملة الاولى التي كررتها بهدوء، كأني الفتي كلمة:

-ارجو الا تسألوني بعد اليوم عن هدى، لقد أصبحت امرأة مثل باقي النساء. وصمت لحظة تشربت خلالها الغصة بلذة مقهورة، ثم اصفت وانا أحاول الابتسام: لقد تزوجت.. لم تتزوج بعد، قريباً سوف تتزوج.

جحظت عينا أجد من الاستغراب والخوف، وكاد يقول شيئاً، ولكي اقطع الطريق على أي تساؤل قلت:

-ارجو الا تسألوني عنها مرة أخرى.. لقد انتهت بالنسبة لي.

ضحك عصمت، كطفل، وقال يريد ان يغير الجو، فيجعله مرحاً:

-تقبل التعازي يومي السبت والاحد للرجال، والاثنين للنساء!

قال ابراهيم وشعور الظفر يسيطر عليه:

-أصبحت الان ثوراً جيداً، ويجب الا تتخلى عن هذه الصفة طوال حياتك

وعاد عصمت الى جو المرح مرة أخرى. قال:

-لو فكرت زوجتي بالطلاق لأصبحت مطلقاً منذ ثلاث سنين، ولاصح لأولادي اخوان من فعل غيري!

كانوا يسخرون، وانا كنت اتألم.. لم يفقدوا زوجاتهم، لم يفقدوا هذا لا يتغير الشديد الروعة، سيخرجون يوماً لكي يروا ابناءهم الذين تركوهم صغاراً، قد كبروا واكتسبوا عادات لا يعرف احد كيف اكتشفوها!

نعم سيكون اولادهم كباراً، الصغير منهم يزيد على احدى عشرة سنة، أما الكبار فقد بدأت لحاهم تنمو، وبدأوا يغازلون الفتيات الصغيرات.. وانا من الذي ينتظرن؟

تحملت.. انطويت على نفسي، وبدأت احارب هدى التي عاقت في دمي ولا اعرف كيف ظللت مسطراً لسؤال انيسة عنها، كنت أسأها في أغلب المرات التي تزورني فيها، واتلقى نفس الاجابات:

-تزوجت.. تزوجت وسافرت. عادت من السفر ولم ارها الا بسرعة. يبدو ان هدى تفضل هذا اللون من الحياة: الراحة، والبعد عن المشاكل!

-ألم تقل لك شيئاً يا انيسة؟ ألم تبعث معك رسالة؟

وتضحك انيسة بحزن. تهز راسها دلالة النفي، وبسرعة تسألني عن شيء ما لكي أكف عن ذكر هدى!

وصمدت بعد أن تزوجت هدى، صمدت شيئاً.

أما المرض اللعين فانه لا يرحم.

سمعت صرير الباب. اغمضت عيني بسرعة لكي اواصل لذة العذاب. لم أكن اريد أن أرى أحداً، أو اسمع صوتاً. شعرت من الاقدام الناعمة، التي تشبه خطوات قطرة، ان انيسة دخلت الغرفة، شعرت بأنفاسها تقترب مني. تحملت وادرت ظهري. وقفت فوقتي فترة طويلة. كانت نظراتي تحترقني، فتميت ان أراها. تنظر الى دون ان أفتح عيني. هل مرت فوق شغفها ابتسامة حزن؟ هل تراقب

امامها مخلوقا حقيقيا يشبه باقي الناس؟ والانبياء الا يبدو واضحا على وجهي؟ انيسة لا تريد في الدنيا الا ان تراني امامها، «أن اكون موجودا» دون ان تسأل عن سبب وجودي، عن الطريقة التي أصبحت فيها موجودا! انيسة ورثت عن امي الصفات الضعيفة، امي لم تورث الا الصفات الضعيفة، نحن الاثنان ضعيفان، امي وحدها القوية، حملت معها قوتها ورحلت، ولم تترك الا الضعف.. قالت لي انيسة في المرات الاخيرة كلمات جعلتني أحس بالمرض اكثر من السابق. كانت تبكي، تتلمس خدي بخوف، تضع يدي بين يديها وتطيل اليها النظر.

انيسة التي دمرت حياتي، جعلت ايامي الاخيرة في السجن جحيما. كانت تنقل اليّ حقارات العالم الخارجي وانتهاء!

-ياسل جن، اصبح يدور في الشوارع عاريا.. خالد فقد عينه نتيجة الضرب، وعينه الأخرى مهددة. ومحسن.. ألا تتذكر محسن؟ لقد أصيب بالشلل. وعندما حملوه الى البيت ورأته أمه ماتت! أنور وعبد الكريم ونجيب يعيشون الآن بحرية. أنور تزوج قبل شهرين، وترك السياسة نهائيا. نجيب يريد ان يواصل دراسته، مرّ علينا قبل ايام وطلب مني أن أقول لك أن تتعقل. الجميع تركوا.

كانت أنيسة تحفظ قصص العالم وتنقلها اليّ.. غضبت مني شهورا طويلة، قلت لها بطريقة أبكتها:

-انيسة اذا كنت تريدان ان تنقلي اليّ هذه القصص، فلا تأتي الى هنا مرة اخرى.

وجاءت مرات كثيرة، وظلت تنظر الي بصمت، وبعض الاحيان تبكي. أما اذا امتدت يدها الى وجهي، تريد أن تتأكد من صلابة اللحم وتماسكه، فكنت انزل يدها بعصبية. كنت أقول لها:

-انا رجب، اللحم والدم، كل أعضائي سالمة، وليس في شيء مستعار.

كانت تسمع وتبكي. وعادت من جديد الى قصصها: بدأت اول الامر بقصص بعيدة لا تحمل مغزى ولا تريد من ورائها شيئا محددا، ولكن بعد فترة وصلت الى قصص العذاب:

-خذ بالك يا رجب، ربما سمعت بالمحاكمة التي جرت الاسبوع الماضي،

ضاعفوا المدة بالنسبة لجابر واسعد، بعد ان تبين لهم وجود علاقات بينهم وبين الخارج.

واطمنئتها بهزة رأس، بابتسامة، بكلمة عجولة.. ولكن لا تكف..

- رجب، الله يستر عليك يا رجب.. اسمع مني ولا تأخذ برأيي.. أصبحت كبيرا وعاقلا ويمكن ان تقدر الذي يفيدك.. نعمان انتحر، ولكن الناس يقولون انهم قتلوه، قتلوه بعد محاولة الفرار. خذ بالك يا رجب.

في الشهور الثلاثة الاخيرة، تغيرت هجة انيسة تماما.

-حامد اتصل بمدير الشرطة وقال له ان صحتك سيئة وبحاجة الى معالجة في الخارج، رفضوا. قالوا: الحل الوحيد هو أن تقدم تعهدا بأن تترك العمل السياسي، وحامد لم يعد بشيء. ماذا تقول؟

-لكن يا انيسة صحتي ليست سيئة لهذه الدرجة!

-آه لو ترى نفسك بالمرآة، لم يبق منك الا الجلد والعظم.. عيونك مصفرة، شفاهك زرقاء.. آه لو ترى نفسك.

-العلاج الدفء، وعندي ملابس ثقيلة!

-العلاج ان يكون لك بيت، ان تنظم حياتك، تأكل بموعد، تنام بموعد. وهنا في السجن العذاب والبرد.. انت تعرف كل شيء احسن مني.

وتصمت قليلا ثم تسأل من جديد:

-حامد يسأل ماذا تريده ان يقول لمدير الشرطة؟!

-أنا لم أطلب من حامد أن يتصل بأحد.

-ولكن انا التي طلبت منه.. انا رجوته.

-وفري التعب، لا أريد شيئا.

-فكر بالامر، ويمكن لحامد ان يؤجل الاتصال بمدير الشرطة الى الاسبوع القادم.

-انيسة لا اريد شيئا.. اذا تمكنت احضري لي قميصا داخليا من الصوف، هذا كل ما أريد!

نيسة فحرت عالمي، جعلته ذرات منشورة في فضاء لا نهاية له. قالت لي مرة، وهي تحاول ان تقتلني:

-اصبح لهدى ولدان. قبل شهر جاءها الولد الثاني. وقد سألت عنك.

-ولد ثان؟

-سموه عدنان.

-والاول.. كم عمره؟ وما اسمه؟

-اعتقد ان عمر الاول اكثر من سنة ونصف، واذا لم اكن مخطئة، فان اسمه

راجي

-راجي؟

-راجي!

-وماذا عندك من الاخبار غير ذلك؟

-والله لا أرى أحدا، صحتي انهارت، وحامد لم يعد يطبق ان يراني هكذا.

-وحامد، ما اخبار حامد؟

-يسأل ان كنت توافق على الاقتراح الذي عرضه مدير الشرطة!

-قلت لك الف مرة لا اوافق، ولا حاجة لان تتصلوا بأحد.

-وصحتك يا رجب؟

-راجعت الطبيب، واعطاني دواء جديدا.

-وماذا تفيد الادوية في مثل هذا الجوع؟.. الضرب، الاهانات، الاعدام!

وسقطت من عينها دمعة وهي تضيف: كل يوم بسنة يا رجب!

وبدأت أسقط. أصبحت الآلام تنتشر في جسدي مثل انتشار النار. كتفي الايمن مشتعلة من الألم. معدتي تخرج من حلقى كل يوم. رجلي اليمين رخوة وتحرك فيها الروماتيزم حتى أصبح المشي بالنسبة لي عذابا لا نهاية له.. واتلمس أعضائي عضوا بعد آخر لكي أتأكد.. ثلاث اسنان منخورة، تسبب لي آلاما هائلة، خاصة أثناء الليل. انفي مزكوم بصورة تكاد تكون دائمة. صدري يجرح، والسجائر لم يعد لي ذاك الطعم اللذيذ.. واصبح الفراش الدافئ، النوم دون كوابيس. القراءة،

التطلع الى واجهات المحلات، الركوب في سيارة عامة.. أصبحت هذه الاشياء احلاما يومية تغزو رأسي، وافكر فيها كأمنيات مستحيلة!

وانيسة لا تتعب ولا تكف:

-حلمت أول أمس انك خرجت من السجن.. لم تخرج ماشيا، خرجت على نقالة اسعاف، تصور يا أخي اني لم أستطع ان أذوق طعاما منذ أول أمس، وطوال الوقت ابكي، وقد غضب حامد ووجه لي كلمات قاسية!

وأصمت.. لكن العالم الخارجي يظل في رأسي كتلة نار راکضة.. هل هذا العالم موجود فعلا؟ هل ما زال الناس يذهبون الى دور السينما؟ يضحكون؟ يجلسون في الحدائق؟ والسيارات ألا تزال تسير في الشوارع؟ والباعة والمتاجر، والمتحف؟ أه لشد ما اتلهف لان اذهب الى المتحف، والنساء..؟ النساء في المدينة الكبيرة آلاف، عشرات الآلاف، كل امرأة عالم من الجنون والدفء.. هل تنقضي هذه السنين واخرج مرة اخرى؟ سبع سنين.. ست سنين، ما أطولها: آلاف الايام انتهت ولم نقض بعد نصف المدة التي حكمنا بها. هل تنتهي المدة؟ الا يستطيعون ان يلفقوا لنا تهمة جديدة ونقضي في السجن خمس سنين اخرى؟ انهم قادرون على كل شيء! ألم يحكم على مجدي ثلاث سنوات جديدة قبل انتهاء المدة الاولى بيوم واحد؟ وعثمان..؟ تركوه في الخارج اسبوعا واحدا، ثم جاء مرة اخرى يحمل على كتفيه ثماني سنين!

الشوارع المضاءة في الليل، الناس، الرجال والنساء، كل شيء في العالم الخارجي يسير دون خوف. والمطاعم؟ يمكن للانسان أن يدخل الى أي مطعم، ويطلب كل ما يشتهي. يمكن أن يأكل في أية ساعة، حتى يشبع.. واذا لم يعجبه نوع من الاكل يصرخ طالبا نوعا آخر، ويعطي النادل الحساب وفوقه قروش قليلة، ولكن اذا رأى صرصاراً فان المطعم سوف يغلق في اليوم التالي.

ان صرصاراً يكفي لان يهدم سمعة اكبر المطاعم..

والانسان في العالم الخارجي يستطيع ان يذهب الى المرحاض متى يشاء.. لا احد يمنعه، لا احد يدق عليه الباب ويطلب منه أن يخرج فوراً، لا أحد يجبره على حمل القذارة بصفيحة ترتج بين يديه وتسرّب الى ثيابه ويديه..

هل ما زال العالم الخارجي موجودا بالفعل؟

كانت انيسة تترك لي أن افكر، لاحظت ذلك مرات كثيرة. ربما كانت ترى في عيني أضواء الشوارع، وقامات النساء، وروعة الأشجار.. كانت تتركني أتيه في العالم، ولكي تزيد آلامي كانت دموعة صغيرة تتساقط من عينيها.. وعندما تراني أتابع خيط الدموع، تقول:

- إلى متى يا رجب نظل وراء القضبان؟ وإلى متى نظل وحدك؟

انظري.. انظري يا انيسة.. ليس رجب هو الذي تراه عينك الآن، مات رجب، وقع بنفسه شهادة الوفاة، كانت الساعة تقترب من السادسة، عندما ارتجفت يده لثانية صغيرة ثم سقط، الإنسان الممدد على السرير الآن، المطفأ العينين، الصامت، لا علاقة له بذلك الذي كان من قبل.. آه لو لم تكوني اختي يا انيسة، وانت يا هدى، لو كنت امرأة أخرى، لو أن ذلك حصل لما سقطت.

قالت امي وهي تشد وجهها لكي تخنق الخوف والحنان:

- اسمع يا رجب، أنا أمك وانت قطعة من لحمي، وليس في هذه الدنيا احد يعزك مثلي.. لكن لا تسمع كلام عمك.. ماذا تقول للناس، لأصدقائك، غدا اذا اعترفت وخرجت؟ الحبس يا ولدي ينقضي.. افتح عيناً واغمض عيناً تمر الايام، وتبقى رافعا رأسك. اذا اعترفت فكلهم سيقولون خائن، ولا تستطيع ان تنظر في وجه احد.. خذ بالك يا ولدي.

لماذا مت يا أمي؟ لماذا؟ لماذا تركت انيسة الضعيفة لتكون نافذتي على هذا العالم؟ آه لو أن لي أختاً غيرها! واخي لم يزرنى مرة واحدة، قال لانيسة ذات مرة، يريد ان يصلني كلامه:

رجب لم يعد صغيراً، قلنا له ألف مرة ان يترك الاعمال الصبيانية، ولم يسمع.. الآن، اذا تعهد أن يقدم براءة، فهو أخي، واذا لم يفعل فلا هو أخي ولا أنا اعرفه.

لما سمعت من أنيسة هذه الكلمات بصقت على الارض، بصقت بغضب ودست فوق البصاق، واستدرت بكل ثقلي، قلت لها:

- قولي لاسعد لا هو أخي ولا أنا اعرفه، واذا جاء يوم وطلبت منه شيئاً فليطردني مثل كلب.. لكن بالمقابل اذا تكلم عني كلمة واحدة، فأنا مستعد أن أقضي حياتي كلها في هذا المكان، ودمه في رقبتى.

كنت غاضباً مثل ثور، ولم تمض دقيقة على كلمات انيسة، حتى استدرت وعدت الى العنبر، رغم ان الزيارة كانت في بدايتها!

مات اسعد بالنسبة لي منذ ذلك الوقت، وحتى قبل ذلك الوقت لم يكن موجوداً بنظري. كانت امي تعتبره لثيماً، خسيساً، لانه باعنا حين كنا صغاراً، وبعد وفاة أبي مباشرة..

لن تفرح يا أسعد، صحيح اني وقعت تلك الورقة اللعينة، لكن لن أتترك لك فرصة للشماتة، لن ترى وجهي، وقد لا أراك في حياتي كلها!

أول شيء اريد ان أفعله غداً زيارة قبر امي.. هل تذهبن معي يا انيسة؟ لا أريدك ان تذهبي، دليني على قبرها فقط. أريد ان اكون وحيداً الى جانب القبر، سأبكي، سأقول لها كل شيء، سأقول لها كيف حصل الامر، لماذا حصل. هي الوحيدة التي تفهمني، تفهم ما يدور في رأسي حتى دون أن أقول كلمة واحدة. سأبقى ساعات الى جانب قبرها، لكن لماذا ماتت؟ ان قوة غامضة وغيبية هي التي تدبر هذا الكون، وهي نفسها التي انتزعت امي في وقت كنت أريدها ان تبقى.

اعرف انها كانت تتكلم لساعات طويلة أمام زاوية السجن، وامامها سلّة فيها اكل وخبز وبرتقال.. وفيها ثياب، وفي مكان ما من الثياب رسالة.. كانت تنتظر دون تعب، حتى اذا سمحوا لها بالدخول، كنت ارى من بعيد ابتسامة تملأ وجهها، وفي تلك الدقائق، التي لم تكن تزيد على العشر اتزود بالقوة، بالجنون، بالمحبة، كنت اتزود منها لفترة طويلة تكفيني اسابيع، حتى عندما يمنعون الزيارة..

وماتت.. انيسة لا تشبه امي، الملامح، الصوت، نظرة العيون، كل شيء مختلف، كانت كل واحدة تحب بطريقة مختلفة، كل واحدة تعبر عن حبها بطريقة الخاصة. آه لشد ما كنت قويا في السنوات الاولى.. وفي تلك السنوات تحملت من الضرب والاهانات ما لا يحتمله بشر، وصمدت، وبعد أن رحلت امي، تغير كل شيء في: الآلام، الخوف من الموت ومن عالم الحرية، الكراهية. لقد اصبحت انساناً جديداً.

هم قتلوها.. كانوا يطردونها عن بوابة السجن، هي والامهات الاخريات، مثلها يطردون الكلاب، كانوا يضربونهم بالعصي، يشتمونهم، كانوا يقولون عنهم بغايا وقوادات، ولا يتورعون عن شيء أبداً. رأيتها مرة ترتجف امامي.. كانت

حاولت ان تبسم، حاولت ان تخفي اضطرابها، لكن :
لحظة... انها تبكي... سألتها قالت:

-بحق لهم ان يفعلوا كل شيء.

وصمتت، تاركة لدمعة كبيرة أن تسقط دون أن توقفها أو تمسحها كما تعودت
ان تفعل. ولما سألتها مرة أخرى، جاءت كلماتها غامضة حزينة:

-الكلب امسكني من صدري.

وأشارت برأسها إلى الحارس الذي كان يدور حولنا.

حفروا لامي مئات الخنادق، كانوا يحفرون لها خندقا جديدا في كل مرة تأتي
فيها لزيارتي. منعوا الاكل، منعوا الثياب، منعوا أمواس الخلاقة، ضربوها، قالوا
لها: لو لم تكوني بغيا لما خلفت هذا القواد، وأشاروا الي، وهم يدفعونها أمامهم!

كانت امي صخرة... كانت أصلب من كل الصخور. غدا سأقبل التراب
مئات المرات، أه لو أستطيع أن أرى وجهها لثانية واحدة، لثانية... ثم لنذهب بعد
ذلك، لا أريد أن أراها، تكفي تلك الصورة، وهي تطل علي من وراء القضبان،
وتقول بصوتها المجروح القوي:

-الدنيا حياة وموت يا رجب، وصيتي لك أن لا تضر أحدا، تحمل يا ولدي.

قالت لي هذه الكلمات قبل أن تموت بشهرين، تذكرت ذلك فيما بعد، عندما
رأني مرة أفكر، وتبته نظراتي بعيدا. احسست بالخوف، واحسست بالافكار اللعينة
تقترب من رأسي. قالت تلك الكلمات لتحارب خوفي، لتحارب في لحظات
الضعف القدرة.

غدا سأنام عند القبر، سأقول لها ان جسدي هو الذي خانني يا أُمي، انت
التي بنيت هذا الجسد، واذا انهار فلأنه ضعيف هكذا... وانا لست مسؤولا، لم
يكن جسدي ضعيفا بهذا المقدار عندما كنت حية.

كانت تأتي لزيارتي كل اسبوع. بعد موتها فجأة تغير جسدي، اصبح هشاً
مستعدا لاستقبال الالم، اصبح عبثا علي، لا يتركني انام، لا يتركني اتذوق الاكل،
وله فوق ذلك طلبات تزداد كل يوم!

انيسة تابعت الرحلة حتى نهايتها، بدأت تنبهي الى أمور لم اكن احظها من قبل:

-تطلع هذه الناحية يا رجب.

ومثل طفل صغير ادير رأسي... وتصرخ:

-عروق رقبتك نافرة مزرقة... هل ضربوك؟ هل حصل لك شيء؟

وعندما أهرز رأسي دلالة النفي والاستغراب، تقول:

-العروق تظهر اذا ضعف الجسم... وانت ضعيف جدا في هذه الفترة.

وبشكل سرّي وبطيء أنطلع الى يدي الممدودة، أنطلع الى العروق، وانحسر
صدري!

تابعت انيسة الرحلة الخطرة حتى نهايتها، ومع الرطوبة والرائحة الكريهة
والالم، لاحظت يوما بعد آخر ان اشياء كثيرة في جسدي تتغير وتضطرب.

انكسرت يدي حين كنت في العاشرة، بكيت بتوجع، صرخت من الالم،
رأيت أُمي تقول لي بلهجة لا تستعملها الا في لحظات الغضب:

-لو رأكَ أبوك تبكي مثل النساء، لكسر يدك الثانية... ماذا حصل حتى تبكي
هكذا؟

ولا أكف... كان الالم اكثر مما احتمل، ولم تجد اُمي غير تلك القصة التي
كررتها على مسامعي مرات كثيرة...

-أصيب المرحوم والدك مرة، انكسرت رجله عند الساق، أصيب برأسه عدة
اصابات، ومع ذلك قتل اثنين، ومنع الآخرين من ان يتقدموا... لو كان سليما
لقتلهم كلهم. تصور انه جبر رجله وركب الحصان وحده، وعاد الى البيت. ماذا
يقول عنك اذا رأكَ تبكي هكذا؟

أُمي التي تنام تحت التراب الآن، تركت لي انيسة تقودني في الدهاليز اللعينة.
ظننتها وهي تتحدث عن العالم الخارجي، تتحدث عن الجنة. كانت تسرف في
وصف حديقة البيت، وانا اذكرها من سنوات طويلة: حديقة صغيرة، لها سور من
أحجار مصقوفة بعلو نصف القامة، ولان ارضها تستقبل المياه الفذرة والصابون،
تحولت الى سبخة لا تنبت فيها غير تلك النباتات الشيطانية والتي تتحمل الحرارة
والبرد ومياه الغسيل... أتذكر تلك الحديقة جيدا، ولا اعتقد ان من الممكن ان

تتحول خلال فترة غيابي الى شيء مختلف، لكن انيسة تصرّ وهي تتحدث عن الحديقة:

-عباد الشمس يا رجب.. أطول من رجل على حصان.. المداد، الريحان، الأس.

-وماذا أيضاً يا انيسة؟

-لو تراها يا رجب.. انها الآن غير الحديقة التي تعرفها!

-وهل بدأت تزرعين فيها القمح والشعير؟

-أتمزح؟ أه لو تراها!

-لا أمزح، مجرد اسئلة.

-وعرفتك، كل اسبوع انظفها بالصابون، وهي الآن حاضرة، نظيفة، يلعب فيها الهواء والشمس.

-وأي شيء آخر في عالم الحرية يا انيسة؟

-كل شيء تغير، الشوارع غير الشوارع، البيوت غير البيوت، الحدائق، الاضواء، اشياء كثيرة تغيرت!

-وماذا أيضاً يا أنيسة؟

-وتضحك وهي تحجب:

-وانت يا رجب تغيرت كثيراً. كبرت عشر سنين، عشرين سنة، من يراك الآن لا يعرفك: الشيب، التجاعيد.

-وتغير نبرة صوتها وتنفصل الابتسامة وهي تضيف:

-الله يلعن السجن ويومه، قلنا حين تخرجت من الجامعة سعادتنا بدأت، لكن ما مرّ شهر حتى نحول الفرح الى ماتم!

-لو ظلت أُمي، لظلت شاباً وصامداً، لو ظلت هدى لظلت أقوى وأشد، لكن جسدي هو الذي عذبني، لم يتركني ارتاح يوماً واحداً. حاربت جسدي فترة طويلة، جاملته، سألته ان يقف الى جانبي، لكن شيئاً من الخارج ظل يغزوني دون رحمة.

-انيسة تقترب وتبتعد. ترتب الغرفة، ترتب بقايا ملابسي. سمعتها وهي تفتح حقيبة، ثم حين فتحت الخزانة.. أي شيء في هذه الحقيبة المسلوكة؟ بقايا ثياب، بقايا يابى حتى المتسولون ان يمدوا اليها أيديهم.. لو تركتها في السجن لكانت تنفع احداً، أما في العالم، خارج السجن، فانها تثير الشفقة! ولكن لمن اتركها؟ هل يقبل احد من الاصدقاء ان يمد يده اليها؟ لم تكن ملوثة بنظرهم فقط، كانت تحمل رائحة جيقة، ربما كانوا احرقوها لو تركتها.

-اصنعي ما تريدان انيسة بهذه الحرق.. لا أريدها، لن ألبسها بعد اليوم، أريد ان أخلص من كل شيء له علاقة بالماضي. اذا لم تمزقها فسوف احرقها، يجب ان احرق كل ما له علاقة بالماضي.. وأي ماض اريد ان احرق؟

-السادسة.. تلك الساعة اللثيمة التي جعلت نهايتي حقيقية مؤكدة، نهائية. قبل ذلك كنت رجلاً وبعد ذلك اصبحت شيئاً آخر.. لم يحتمل التوقيع الا ثانية صغيرة.. حصل الامر بسرعة، اضطربت يدي واضطرب التوقيع، نهاية التوقيع طويلة، مشوشة. أه لو توقفت في تلك الثانية، أه لو توقفت!

ظل نور الغرفة يتأرجح على الستارة وأنا انظر اليها بصبر نافذ، كنت اريد ان اتأكد من نومه قبل ان أنام. انتظرت حتى سمعت أنفاس حامد تغرق في هذه الدورة الازلية من الاطمئنان، جررت نفسي بهدوء، وانزلت الى الصالة.

كان السكون يغطي الدار كلها، الاولاد نائمون منذ ساعات، وفي الخارج شيء يشبه الريح الصغيرة، كنت ارى آثارها من الاهتزازات اللينة للسائر، ومن صرير باب قن الدجاج. لم أكن اتصور ان الايام تنقضي خفيفة راکضة هكذا. انقضت تماماً. مر اسبوعان لم اره خلالها كما تميت. غدا يسافر، لا.. اليوم، لم تبق سوى ساعات قليلة وابدا الانتظار من جديد. قال لحامد بصرامة، يريدني ان اسمع الكلمات تماماً:

«إذا انقضى شهران ولم اعد، فمعنى ذلك ان اقامتي طويلة، اذا وجدت هناك عملاً مناسباً بقيت!»

لم تكن هذه الفكرة تخطر على بالي، سمعتها مرات كثيرة، لكن قبل هذه الليلة لم أكن متأكدة أنه يعنيها، كانت كلماته واضحة، وان بدا فيها شيء غريب، ثم يعود اليها بطريقة اخرى.

في هذه الليلة لست متأكدة من شيء، حتى السفر كان من الممكن ان يتخلل عنه. هل أطلب منه أن يبقى؟ ولكن كنت أعرف أن أية كلمة جديدة تسبب له عذاباً لا تحتمله صحته. ليذهب. الحل الوحيد ان يذهب. وأنا سأتعلم الانتظار من جديد.. انتظرته خمس سنين حتى عاد.. واليوم يمكن ان انتظره، انه لا يعني كلماته تماماً، هل يبقى؟ واي عمل يستطيع ان يعمل؟

قبل ان ينام حامد بكيت وأنا ألح عليه لكي نقتعه بأن يترك فكرة العمل، قلت:

سنبيع البيت ونرسل له ما يحتاجه، له اكثر من نصف البيت ومن حبه - يبيعه.

ان رجب الآن ليس رجب الذي اعرفه.. تغير كثيراً. رفض استقبال احد من أصدقائه، كان فظاً وهو يصرخ في وجه عادل، ويطلب منه أن يقول للذين جاءوا بأنه غائب ولن يعود قبل منتصف الليل.. وعمي، آه لشد ما غضبت، لأول مرة رأيتها تبكي بهذا الشكل. امسكها من كتفها وهزها بقوة يريد ان يوقعها على الارض، لم تكن تدري ان زغرودة فرح يمكن ان تسبب له مثل هذا الغضب؟ ظنت اول الامر انه يداعبها، لكن عندما توالى هزاته القاسية خافت، وتوقفت. نظرت اليه بتساؤل واستغراب، فلما رأته غاضباً والكلمات تتطاير من فمه، تراجعت وهي تنظر الى تسألني بعينيها، لم اكن اعرف ما ينبغي ان افعل، اقتربت منها، احتضنتها حتى اذا رأت دموعي، انخرطت في البكاء، أما هو فقد دخل الى الغرفة وارتج الباب وراءه صاحبا عنيفاً.

قالت عمي بعد ان ابتعدنا كثيراً عن الغرفة، وجلسنا في طرف الحديقة، عند الباب:

«والله يا ابنتي لم اصدق، كان كل يوم بسنة، كنت اريد أن أفرح به سبعة أيام. ومسحت دموعها وهي تقول بصوت مكسور: أرايت ما فعل؟»

قلت لعمي أشياء كثيرة لاقنعتها، لكن قبل ان يحل المساء كانت تعود الى القرية، والدموع تملأ عينيها، ورجب رفض أن يخرج الى الغداء. ورفض أن يقول كلمة. ظل يدمخ ويشرب القهوة، ولما جاء حامد ودخل غرفته رأى بقايا دموع في عينيها! انتهى ذلك كله.

اقتربت من باب الغرفة ووضعت اذني. كان السكون الاخرس يغرق الدار. ظننته نائماً وانه نسي الضوء فلم يطفئه. انتظرت لحظة، ثم شفت الباب بهدوء ومددت رأسي، كان يجلس في السرير مثل كرة، وما كاد يراني حتى انتفض. شعرت أن ملامح وجهه تنخفض دفعة واحدة، تصبح غاضبة. أردت أن أراجع، لكنه كان قد رأي، تقدمت لاوضح له واعتذر.. ولم اجد سوى الضوء حجة.. قلت:

«ظننتك نسيت الضوء يا رجب!»

وهز رأسه دون أن يجيب. كان وجهه حزيناً وغاضباً، ودخان السجارة يتصاعد ويتلوى، حتى ظننت وأنا أتشق الهواء، أن عدداً لا يحصى من السجائر يشتعل في نفس الوقت، فيجعل الرؤية مضطربة، والتنفس ثقيلاً. قلت بلهجة متوسلة:

- يجب أن تنام يا رجب. ثم ساعة، ساعتين، حتى تستيقظ نشيطاً وتستطيع أن تسافر!

ورأيت أنه يسحب سجارة جديدة ويشعلها من السجارة التي في يده. حتى إذا انتهى، اطفأ الأولى، ودون أن يعدل جلسته، قال وهو منحني:

- اتعرفين يا أنيسة أن حياة السجن أفضل؟.

كنت انتظر كلمات مجنونة مثل هذه التي يقوها رجب الآن. لقد تأكدت ظنوني، بدأ يقول الكلمات التي اخاف منها، والتي حاربتها خلال الأيام الماضية. لم أكن أصدق أن حنيناً مثل هذا يمكن أن يعاوده. سألته وأنا أقترّب وانظر إليه، لكي أتأكد أن عيونه تعني الكلمات التي يقول:

- وهل يزعجك شيء يا رجب حتى تقول مثل هذا الكلام؟.

ولم يجب. ظل يهز رأسه بلوعة مميتة، حتى ظننت أن الدموع ستنفجر من عينيه. لم أكن أحب بكاءه فقد تمزقت روحي وأنا أراه.

في هذه اللحظة يجب أن أحارب، لكي تبقى صورته مثلما كانت قبل السجن.

بدأت الدموع صغيرة خجولة في عينيه في اليوم الأول... ولكن لا يكاد يوم جديد يأتي حتى أرى حزنه يتحول إلى غمامة سوداء تفرد ظلها على البيت كله.

جلست بخوف على حافة السرير. كنت مستعدة لأن احتمل كل شيء حتى انتزع العذاب الذي يموج في داخله، ويدفعه في كل وقت إلى العصبية والبكاء. قلت وأنا أشد يده وأمسكها:

- رجب... برحمة أمي، اكاد أموت من صمتك... قل يا رجب، هل رأيت شيئاً، أو سمعت شيئاً أزعجك؟.

وبنفس الطريقة المدمرة الكاوية، هز رأسه دلالة النفي. كنت أريده أن

يقول. لم تبق إلا ساعات قليلة ويرحل، وإذا لم يتكلم الآن، فقد لا يتكلم أبداً. ضغطت على يده، وسألته من جديد:

- الدنيا لا تستاهل أن تعذب نفسك بهذا الشكل، ما الذي يعذبك؟.

هز رأسه وكنتفبه، وعبرت ملامحه الحزينة عن شيء. لم يكن يريد أن يتكلم. أحسست، أنه لو تكلم، فسوف يتعذب أكثر... ومع ذلك لم أتركه، اعتقدت أن عذاب لحظة، بكاء لحظة، قد يخلصه. القيت رأسي على ركبتيه، وقلت له بتوسل:

- ارحمني يا رجب، لقد اسودت الدنيا في عيني، وإذا لم تقل لي، إذا لم تتكلم، فسوف أقتل نفسي.

وسمعت صوته، بدا لي كأنني اسمعه لأول مرة، كان صوتاً مبوحاً يائساً:

- هذه الطريقة تعذبني أكثر يا أنيسة!

- أية طريقة؟ ما يعذبك؟.

- لا شيء، تأكدي أنه لا شيء.

- وهذا الصمت والعصبية؟.

- ماذا تريدني أن أفعل؟.

- تكلم، أنا أختك وأريد أن أساعدك، قل لي ما في قلبك، أنت تعرف أن الإنسان إذا تكلم يرتاح. ما الذي يعذبك؟.

- ماذا تريدني أن أقول يا أنيسة؟.

- قل، قل أي شيء، المهم أن لا تترك شيئاً في قلبك.

وضحك بيأس، كان يريد أن يسيطر عليّ ويعذبني، حتى إذا تلاشت الضحكة، قال وملامح وجهه تعربد بالحزن:

- وماذا تقولين إذا لم يبق لي قلب؟.

وجلست مقابله على السرير. جلست مثل جلسته. ولا أعرف لماذا طلبت أن يشعل لي سجارة.

ضحك هذه المرة مثل طفل، لكن بحزن أيضاً، وسألني وهو يسحب سيجارتين من العلبة:

- نبدأ السهرة من أولها؟

واشعل السجارة ومدّها إليّ، ثم قال بنفس اللهجة:

- الا تعرفين أنني سأسافر في الصباح ويجب أن أنام؟

وضحك وهو يراني ادخن. لأول مرة أراه يضحك. ربما كانت طريقي في التدخين هي السبب!

اشعل سيجارته وقال:

- ابلعي الدخان... ابلعيه، لا فائدة في أن تحصره في حلقك ثم تتركه!

وعب نفساً، وتابع:

- أنظري إليّ... لقد بلعت الدخان، وبعد لحظة أخرجه من فمي وأنفي... انظري!

ان رجب الذي أراه الآن، هو نفس الطفل الذي عرفته قبل أكثر من عشرين سنة. نفس الشاب الدامي الوجه الذي كان يعود من المظاهرات... وعندما أراه الآن يعلمني التدخين، أتذكر كيف علم أمي. كانت أمي في البداية قاسية، شتمته أكثر من مرة، رمت السجائر في المرحاض، ولكنها تغيرت بعد أن أدركت أن طريقتها لا تجدي. بدأت تحذره، وتذكر له قصصاً كثيرة، حتى كان يوم أصبحا يجلسان عند أول المساء في الحديقة، على كرسيين واطئتين ويدخنان. ضحك عليها كثيراً حين رآها تدخن بطريقة النفخ كما كان يسميها، ولم تخض فترة حتى أصبحت أمي تشتري علبة سجائر، كل ثلاثة أيام، ثم لم تعد تكفيها العلبة أكثر من يومين، ولما سجن رجب لم تكن تفعل شيئاً سوى التدخين والبكاء...

قلت لرجب، أحاول ألا أذكره بكل شيء:

- يبدو أنني سأتعلم التدخين...

رد عليّ وقد عاد للملامحه الحزن:

- الأفضل أن لا تتعلمي!

- وانت... لماذا تدخن بهذا الشكل؟

- قريباً سوف أترك التدخين... أشعر أن التدخين يتعبني، وأنت يجب أن لا

تتعلمي مثل أمي!

التقط رجب الخيط. رفرفت صورة أمي فوقنا. رفرفت مثل طائر كبير، تصطك اجنحته في الهواء. وتغير كل شيء في لحظة. قال يريد أن يجري:

- أمي كانت تدخن كثيراً... انتذكرين؟

- أتذكر.

حاولت أن أهرب، قلت أتذكر ولم أرد أن أقول شيئاً آخر، لكن رجب لاحفني، كأنه يريد أن نتحدث عنها، وعننا فقط. سألتني:

- هل كانت تدخن كثيراً لما كنت في السجن؟

- مثل قبل، أكثر قليلاً!

- نفس السجائر؟

- نفسها.

- كم سيجارة كانت تدخن؟

- علبة في اليوم!

وهز رأسه دلالة الاستغراب، كأنه يريدني أن لا أكف عن ذكر كل شيء، ولما وجد أن دفاعي الوحيد هو الصمت، سألتني:

- وهل استمرت تدخن حتى اثناء المرض؟

- أوصاها الطبيب أن تنقطع، قالت له أنها لا تستطيع، وعندما وجدها مصرة طلب منها أن لا تدخن أكثر من سيجارتين إلى ثلاث سجائر.

- وماذا فعلت؟

حاولت أن ابتسم لكي اجعل الحديث عنها أقرب إلى ذكرى بعيدة، ذكرى لا تولد حزناً من أي نوع.

قلت وقد تغيرت نبرة صوتي فأصبحت عالية ولها رنين:

- تصور... كل محاولاتي في إخفاء السجائر فشلت. كنت أمنعها. كنت أبعاد

السجائر عن البيت كله، ولكن دائماً نجد طريقة.. تفتش عن السجائر حتى نجدها،
نبعث ولداً لكي يشتري لها علبة سجائر دون أن أعرف.. وتضعها تحت وسادتها..
عرفت كل الأماكن التي كانت تخبئ فيها السجائر، ومع ذلك ظلت تدخن!
- ظلت تدخن كثيراً؟

- ليس أقل من عشر سجائر!

- عشر سجائر في اليوم؟

- كانت تنوعل، كانت تستغل وجود الزوار، وبعض الأحيان تبكي وتذكر
السجن ورجب، واجد نفسي مضطرة لأن اعطيها سيجارة من اجل ان تكف عن
البكاء وتنسى.

- وظلت تدخن حتى اللحظة الأخيرة؟

- في اليومين الأخيرين لم تعد تستطيع.. انهارت تماماً، اما قبل ذلك فقد
ظلت تدخن رغم وصايا الطبيب، ورغم كل المحاولات لمنعها.

- وكيف ماتت امي يا انيسة؟

- لا استطيع ان اتحدث عن موت امي بحياد. مهما حاولت لا استطيع. كنت
امتلىء تصميمي على الا اتحدث مع رجب عن موتها، رغم انه في اليوم الاول، قبل
ان ننام، قال لي انه يريد زيارة قبرها في الصباح التالي، حاولت صرفه عن الفكرة،
لكن شبح امي ظل يلاحقنا نحن الاثنين طوال هذه الايام، اقام معنا في البيت،
وما يزال حتى الان. حاولنا كثيراً، كل بطريقة، ان نتحدث عن الامر، وان لا
نتحدث بنفس الوقت. حاولنا ذلك كثيراً، اما الان، فاننا نواجه المشكلة، وهذه
المرّة دفعة واحدة!

- في اليوم الثاني، بعد ان غادر رجب السجن، ذهبتنا معاً الى المقبرة. قال لي
بعد ان وقفنا لحظات فوق القبر، ورأى دموعي، قال بعصبية:

- ارجعي الان يا انيسة.

- ولما رأي واقفة لا تحرك، ورأى دموعي، قال لي مرة اخرى:

- ارجعي الى البيت، وانا سأبقى هنا بعض الوقت، سأزور قبر ابي وقبر

حالي.

- ونتيجة لالحاحه عدت، رأيته وانا اخرج من المقبرة يتابعني بنظراته ليتأكد،
ولا اعرف اي شيء فعل.

- لكن عند الظهر، لما عاد، رأيته شاحباً، عصبياً، وتمنيت لو اني لم امثل
لكلماته وبقيت معه.

- والان يريد ان ينكأ الجروح كلها مرة واحدة، قلت له وانا افكر بطريقة لا
تجعلني انهار امامه واغرق في بحر من الدموع:

- لقد مضى على موتها ثلاث سنوات، ونسيت!

- امسك بكتفي وهزني. كانت يده حنونة دافئة، والسيجارة في فمه تهتز،
سألني وهو يغمض احدي عينيه، ربما من اثر الدخان، وبصوت غامض متداخل:

- انت نسين يا انيسة؟

- حاولت ان ابسم واجبته:

- نسيت يا رجب!

- تراجع فجأة. اسند ظهره الى السرير ومد قدمه اليسرى على طولها، ورأيت
يحاول ابعاد نظراته عني.. رجب لا يخطيء في معرفتي.. ان ابتسامات صغيرة،
وبطريقة معينة، هي النذر الأخيرة قبل الانفجار. كان يعرف اني احتمل كثيراً،
لكن فجأة ينتهي كل شيء، أسقط، أصبح مثل طفلة صغيرة لا يمكن لاحد ان
يمنعها او يوقفها. رأي أكثر من مرة ابكي ذلك البكاء الصاخب المجنون، والان،
تراجع وغير جلسته، كان يحاول ان يسحب الذكرى كلها.

- كنت أريد البكاء، كانت لدي عشرات الأسباب، وتصورت اني اذا تركت
لنفسي الحرية في البكاء فقد انقذ رجب أيضاً. كنا، نحن الاثنين، بحاجة الى أن
نغتسل بالبكاء، ولا يهم السبب الذي نبكي من اجله، فقد كانت قلوبنا تمتلئ
بالأحزان لدرجة ان اي شيء يكفي ليكون سبباً.

- عندما سقط رماد السيجارة على الوسادة، انتفض، نفذه بعصبية، وهو ينظر
اني وابتسامة صغيرة ترسم على شفتيه. قال:

- ما دمت نسيت كيف ماتت العجوز فإنك كبرت كثيراً، وربما نسيت كل
شيء!.

- لست صغيرة يا رجب، عمري الآن يزيد على الأربعين.

- وهل ينسى الناس ويخرفون في هذه السن؟

- المهم يا رجب، انت لا تعرف كم تحملت وكم تعذبت!

وهز رأسه هذه المرة. هل أتركه يفلت ويبقى يتعذب؟ لماذا لا نيكى معاً، ومن اجل امي هذه المرة، لكي يغسل نفسه ويعود إنساناً آخر؟

قلت وأنا أغبر جلستي فوق السرير، أترجع واستند الى الحافة الواطئة:

- لا يمكن أن أنسى شيئاً يا رجب... أتذكر كل شيء كما لو أني أراه الآن، وهل تتصور انني انسى امي وموتها بهذه السرعة؟

تغيرت ملامح وجهه، وبدأ بعيني المتسعيتين، أكثر رغبة في ان يسمع. التقط بسرعة سيجارتين من علبة جديدة، وقال يسألني دون ان يقطع علي افكاري:

- سيجارة؟

ورفعت اليه وجهاً رافضاً، وربما كان متعباً ومتحفزاً في ذات الوقت. تركته يشعل سيجارته وينفث نفساً او أكثر قبل أن يبدأ تلك القصة الخزينة.

- أتعرف كيف ماتت امي يا رجب؟ لماذا ماتت؟

رأيت في نظراته اشعاعاً غاضباً، ينفذ الى أعماقي، تابعت قبل أن يجيب:

- لقد قتلوها يا رجب!

ودفنت رأسي في الفراش وأخذت ابكي. لا أتذكر اني بكيت هكذا في حياتي كلها. في لحظة تجمعت آلاف المواقب الخزينة، وضغطت على رأسي بقوة، حتى تصورت ان رأسي سينفجر، لكن والدموع تنزف من عيني بغزارة، رأيت المواقب الخزينة تتفكك، تتباعد، ثم تبتعد، وظلت صورة امي وهي تعود في ذلك اليوم، عند العصر، الصورة الوحيدة المليئة بالأسى.

لما رفعتي ومسح دموعي، احسست انه استغل لحظات بكائي، وأنا أدفن رأسي في الفراش، وبكى هو الآخر. كانت عيناه حمراوين، لكن لم يكن فيها دموع، وكان وجهه محتقناً من الألم وشديد الاصفرار، أما السيجارة فقد ظلت وحدها على المنفضة تتابع بدخانها مشهداً بائساً. قلت له وفي صوتي بقايا دموع

مضطربة:

- هم الذين قتلوها يا رجب، لولاهم لكانت حية الى الآن!

- كيف؟ من قتلها؟

- لا أعرف، لو لم يقتلونها، لرأيتها الآن أمامك!

- اجلسي يا انيسة، لا احتمل اكثر، أكاد اختنق.

- قبل موتها عشرة أيام.. كان يوم خميس، ذهبت مع امهات ونساء المعتقلين لمقابلة وزير الداخلية. لا أعرف من الذي اقنعها بالفكرة، لكن خلال أيام لم نهدأ ولم نتعب وهي تنتقل من بيت لبيت، حتى تجمع عدداً من النساء، ويوم الخميس ذهبن لمقابلة الوزير. لم يسمح لهن بالدخول، أو بمقابلته. ولا أعرف من اقترحت أن لا يتركن المكان حتى يصلن الى نتيجة. كشفن عن رؤوسهن، ونفشن شعورهن، وبدأن بالصراخ والعيول، وقد صممت كل واحدة منهن ان تموت... انت تعرف موقف الشرطة، بدأوا بالضرب، بالصراخ، لكن لا فائدة. ولما حاول الوزير الخروج هجمن عليه. ويبدو ان الضربة التي تلقتها على أضلاعها عجلت في نهايتها.

قبضوا عليها وقبضوا على عشرات أخريات، وفي النظارة كانوا وحوشاً، ضربوها، أهانوها، شتموها... وأبقوها حتى اليوم التالي، بعد أن عرفوا اسمها وجاءت تراجع من أجل من. عادت الى البيت عصر يوم الجمعة وبدأ لي كل شيء منتهياً.

أصابتها الحمى منذ تلك الليلة، وكانت صحتها تزداد سوءاً، وتنهال كل يوم، ولم تتكلم إلا قليلاً، كانت تشتم وتدخن، وبعض الاحيان تبكي؛ احضر حامد ثلاثة أطباء، أعطاهم الأول ابراً، والثاني طلب اجراء تحاليل لها ثم اقترح ان تنقل الى المستشفى، اما الثالث، فقد وصل بعد أن ماتت بخمس دقائق...

كانت لا تذكر في الايام الأخيرة إلا رجب. قالوا لها في النظارة ان رجب سيموت قبلها، وأنهم سيضاعفون مدة محكوميته، وأن رجب سيأكل ضرباً لا يحتمله حمار.

وفي اليومين الأخيرين، عندما كانت تصحو من الغيبوبة، كانت ترفع يديها الى السماء وتقول: «اللهم قو رجب، وأعم عنه عيون الظلام». وتشتم.

هم قتلوها يا رجب، وأنا منذ ذلك الوقت خفت، وحزنت عليك أكثر من حزني على امي. خفت أن يقتلوك!

ويكي رجب. كان يجب ان يكي من اجل قضية محددة، مفهومة. أفهم بكاءه الآن، اما في الايام الماضية فقد كان غامضاً، لم أكن أعرف لماذا يصمت ولماذا يبكي.

تركته يفعل ما يشاء. كانت الدموع مثل سيول صغيرة تندفق، وتتساقط من عينيه على خديه. لم يرفع يديه ليمسحها، ليمنعها، تركها تسيل، ولم أتصور في حياتي أن الرجال يملكون هذا المقدار من الدموع.

في لحظة سكون، وأنا أحاول مسح دموعي، وانظر اليه بعيون جديدة، سمعت صرخة جعلتني ارتجف، قال بصوت حاد يشبه سقوط الحجارة:

- انت مجرمة يا انيسة، لماذا لم تقولي لي هذا وأنا في السجن؟.

- وما تستطيع ان تفعل يا رجب؟.

- لماذا لم تقولي؟ لماذا؟.

- كانت أحزانك تكفيك!

- لكن لماذا لم تقولي لي؟

- لا أعرف، تصورت اني لو قلت لك فسوف ازيد همومك وحزنك.

- كنت بحاجة لذلك.

- انتهت تلك الايام يا رجب، يجب ان تنسى.

- نسي؟.

- وهل نستطيع ان نفعل شيئاً آخر؟.

وضرب وجهه، وضرب جبهته. كانت صرخاته حادة مزقت صمت الليل، وكانت ضرباته مثل سكاكين تنغرز في القلب. هجمت عليه اريد منعه، دفعني بقوة، وضرب رأسه بالجدار، ولا أعرف ان كان حامد أفاق على الصرخات ام على ضربات رأسه.. رأيت فجأة يتصب وسط الغرفة، وقد ارتاع وجهه لدرجة اني تصورته إنساناً آخر.

كان يجب ان تبقى وحدنا. فأني انسان لا يستطيع ان يفهم مشاعر تلك اللحظة، حتى حامد، زوجي، الذي اعرفه، منذ ثلاثة عشر عاماً، بدا لي غريباً، وكدت أصرخ في وجهه لكي يخرج.. لكن رجب وهو يضرب رأسه بالجدار، وصرخاته المتشنجة المتدفقة من الألم الممض، لم تترك لي حرية التصرف.. رأيت حامد يهجم عليه، يمسكه من كتفيه ويهزه بقوة. ولا أعرف كيف بدأ الحديث من جديد.. أو متى.

في وقت ما، سمعت حامد، يقول بصوت قاس:

- يجب ان تناموا... لستم صغاراً لكي تتصرفوا بهذه الطريقة!

حين أطفأ رجب السيجارة، وتعدّد في الفراش، قال لي حامد بصوت حاد:

- انهضي يا عاقلة..

هل نام رجب بعد ذلك؟ لم يشعل الضوء، ولم تسمع صوتاً، لكن شيئاً في داخلي قال لي انه لم ينم. ظللت طوال الساعات الأخيرة مفتوحة العينين في الظلمة، انتظر.. كنت انتظر سماع صوته أو سماع طلق ناري رغم انه لا توجد في البيت كله اسلحة. كنت أتوقع صوت ارتطام رأسه بالجدار. عندما رأيته يضرب رأسه هكذا، خفت كثيراً، تصورت في لحظة خاطفة ان رجب اكتشف الطريقة التي سيقتل بها نفسه.. سيقف في اول الغرفة، ويركض بسرعة نحو الجدار المقابل ويضرب رأسه.. ان ضربة واحدة من هذا النوع تكفي لأن ينتهي.

لما انتظمت دورة النوم الأزلية، وأصبحت انفاس حامد منتظمة، عدت اذكر من جديد: امي تقف في وجه الباب تمنعهم من الدخول. جاءوا عند الفجر، قبل الفجر بقليل، سمعنا صوت امي، كانت تصرخ في وجوههم، لكن دفعوها بقوة ودخلوا. قبضوا على حامد أول الامر، ظنوه رجب، لكن الهمة الصغيرة التي وصلت الى اذن قائد المفزة من احد العناصر، جعلته عصيباً أكثر مما تصورنا. دفع حامد في صدره، وصرخ في وجهه:

- اين الحقير رجب؟.

وقلبوا البيت كله، لكن رجب كان قد استعد قبل ذلك بثلاثة أيام، واختفى. تركوا في البيت اثنين. كان الاثنان يتغيران كل بضع ساعات، وكانا يجلسان، اغلب الوقت، في الصالة، في مواجهة الباب. كانا يقفزان مثل الذئاب اذا سمعا خطوات

سرب، يفتح احدهما الباب، والثاني يشهر مسدسه ويقف في الناحية الثانية. افزع الصغار وابكوهما، اما نظراتهما الى الكبار فكانت اتهامات مباشرة حاقدة. كانت عيونهما من نار، وطلبائهما لا تحتمل التأخير أو المناقشة. باختصار قلبا حياتنا كلها خلال تلك الايام الكثيرة، لم نكن نستطيع ان نتجول أو ان نتحرك، وفي اليوم الرابع، عندما وصل رجب بعد الغروب قبضا عليه.

قبضوا قبل ذلك على خالد وأدمون. كانوا فرحين بخالد وكانوا ينتظرونه منذ فترة طويلة، واعتبروا صيده أثمن صيد في تلك الفترة. اما رجب فقد تملكه الغضب حين رآهم أمامه، انقضّ بشراسة، اخذ يضرب ويشتم.. لكن لم يقاوم طويلاً، سقط بعد ضربة على رأسه، بكعب المسدس، وظهرت أصابع حمراء منتفخة على وجهه، اما صرخات امي واظافرها وهي تدافع عن رجب فقد ذهبت أدراج الرياح.. دفعوها بقوة، قالوا لها كلمات لم تستطع ان تنساها الى ان ماتت. قال لها القصير الذي ضرب رجب بكعب مسدسه، كان يعربد من الغضب والتعب:

- ابعدي يا قدرة، لولا انك فجة، لما خلفت ابن الحرام هذا!!

بعد فترة قصيرة من القبض عليه، رجع الذي ذهب لاستدعاء العناصر، اما الآخر، فقد ظل مستنداً الى الجدار ويده المسدس. كان عصيباً وخائفاً، امرنا ان نبقي في اماكننا، وهدد بأن يطلق النار على أي واحد يتحرك من مكانه.

لما اخذوا رجب، ولولت امي وركضت وراءهم. تجمع الناس في الزقاق، لكن احدهم وقف وهو يرفع مسدسه وهدد كل من يتقدم. حتى امي، لم تستطع ان تتابع، امسكها الرجل أول الامر، ثم تدخل الناس في الزقاق، وقالوا لها كلمات أقرب الى الخشونة.

وبدأت امي تدور.. كانت تخرج من الفجر ولا تعود إلا بعد الغروب. لم تترك مركزاً إلا وذهبت اليه، لكن دائماً ينتظرها نفس الجواب:

- ليس عندنا احد بهذا الاسم!

كانت تريد ان تتأكد من شيء واحد: ان رجب لا يزال حياً. لم تكن تتمنى اكثر من ذلك، ولم يقل لها احد تلك الكلمة اللعينة. ظلت تبكي طوال وجودها في البيت ودموعها تسبقها:

- انيسة... ماذا تقولين لو ذهبت الى الحاج مصطفى الغزاوي، انه يعرف

اناساً كثيرين، ويمكن ان يساعدنا؟ قبل طلوع الشمس سأذهب الى بيت مدير الشرطة، سوف أقبل يده، اريد ان يطمئنني ان رجب ما يزال حياً. الكلب أبو سعدي لم يشأ أن يتطلع في وجهي، قال لزوجته ان لا علاقة له بالامر، ويجب ألا أسأله مرة اخرى.

وحامد.. استعان بكل الناس الذين يعرفهم. اصبح عصيباً دائم الصمت، فإذا سألته صرخ في وجهي، اما اذا سألته امي فكانت تبدو عليه علامات الضيق ويردد بعض الكلمات التي اصبحت تثير امي اكثر مما تطمئنها.

اربعة شهور كاملة ولا أحد يعرف عن رجب شيئاً. لبست امي طرحة سوداء وعصبت جبينها بشريط أسود. عافت نفسها الأكل وقالت بيأس ممت: «قتلوه..» اربعة شهور وهم يضربونه، لو كان جلاً لقتلوه. وأثر السهر والقلق على صحتها، تحولت الى شبح، لا تعرف للراحة طعماً. واذا كانت في البيت تشق الباب وتتطلع الى الشارع، لعل أحداً يأتي ويقول لها كلمة، فإذا يشتت جلست في الركن صامتة، لا تكلم أحداً. اما كلماتها وهي تنبه على الجميع ان يتركوا لها فتح الباب اذا دقه احد، فقد حفظها الصغار وظلوا يرددونها فترة طويلة.

ويوماً بعد آخر بدأت تتعود، ولكن رافق العادة ذلك الغضب الذي يتحول الى ثورة لأبسط الأمور. كانت تصرخ في وجوه الصغار، تبعدهم عنها بغلظة، وتغضب اذا ضحكوا بصوت عالٍ، وتغضب اذا ضجوا ولعبوا. لم تعد تطيق ان ترى احداً يضحك، قالت لي مرة، لما رايتني اضحك:

- لم يبق إلا أن تحني رجلك.. مات رجب وعليك الآن ان تفرحي وترقصي!

ندمت كثيراً على تلك الضحكة حين رأيت امي تبكي. ولم تكف عن البكاء إلا بعد فترة طويلة، وظلت أياماً لا تتكلم معي!

ظلت امي هكذا، حتى كان يوم رجعت فيه وتغيرت تماماً.. قالت وهي ما تزال في حوش الدار قبل ان تدخل:

- انيسة.. يا أنيسة، رجب عايش، رجب حي.

وحدثني كيف ذهبت الى السجن، وظلت هناك ساعات طويلة، حتى اذا رأت ذلك الشرطي الذي يشبه ابن عمي محمود، كما قالت، هجمت عليه، تريد

الوم، قلت:

- رجب ليس أول رجل يسجن، ولن يكون الأخير، ولو عرف أنك تفعلين هذا كل يوم لغضب.

صرخت وكان صوتها غاضباً وحزيناً:

- وماذا فعلت؟ هل سرت؟ هل نهبت؟

- لا... ولكن الدوران في الشوارع، ماذا يفيد أن نظلي هكذا؟

- اسمعي يا أنيسة، لا تتدخل في اموري ابداً، أنا كبيرة وأعرف ماذا يجب أن افعل!

- ولكن الناس يتكلمون...

- عن أي شيء؟

- يقولون أم أسعد جنت، طوال الليل والنهار دايرة على كعبها.

- لم أقم بعمل مخجل أبداً.

- ابق في البيت، ويوم الزيارة زوري رجب، وهذا هو الشيء المعقول.

- والشيء غير المعقول؟

- أن تكوني بهذا الشكل!

- سأظل بهذا الشكل مهما قال الناس وإذا لم يعجبك ارحلي أنت وزوجك!

وظللنا فترة لا نتكلم. جاء حامد ذات يوم، قلقاً مضطرباً، ولما ألححت في

السؤال قال لي أن ثلاثة سجناء قتلوا، لأنهم حاولوا الفرار، وأضاف وهو يتسم بحزن: هكذا كتبت الجريدة! كانت تأكل، كانت تجلس على الأرض وأمامها صحن معدني لم تغيره منذ وقت طويل، وقد وضعت قطعة اللحم جانباً على قطعة من الخبز، لعلها تأخذها لرجب. رغم أننا كنا في يوم الأربعاء، أي قبل الزيارة بيومين! لما رأني توقفت عن الأكل، تطلعت إلي باستغراب، وتساؤل، رغم محاولتي أن ابدو هادئة. نحت الصحن جانباً ونظرت إلي، وقبل أن تسألني قامت بحذر، حملت السلة ولم تنس أن تلتقط قطعة اللحم وتغضي!

أن تقبل قدميه، ورجته أن يساعدها فقط في معرفة ما إذا كان رجب داخل السجن. رق قلبه وقال أنه سيتأكد من ذلك حالما يعود إلى السجن، في الثانية بعد الظهر... وانتظرت من الثامنة والنصف حتى الرابعة، وكانت أكبر بشرى في حياتها حين قال لها انه في السجن.

ظلت طوال الليل تكرر القصة وكل مرة تضيف إليها تفاصيل جديدة، لكن القلق بدأ يساورها من جديد. ماذا لو كان يكذب عليها؟ ماذا لو كان في السجن شخص آخر بنفس الاسم؟ ماذا لو أخطأ في السؤال؟ كانت تريد أن تتأكد، فكرت طويلاً تلك الليلة، وقبل طلوع الشمس هيات صرة صغيرة وضعت فيها ملابس وبعض الأكل وذهبت!

وظلت تعود كل يوم وهي تحمل نفس الصرة. كانت تبقي الملابس، اما الأكل فتخرجه، لتهيء غيره لليوم التالي.

رجب أكثر من أخ بالنسبة لي، رغم السنين العشر التي تفصلنا. اتذكره عندما كان طفلاً، واتذكره، وهو معصوب الرأس، بعد المظاهرات. اتذكر ضحكاته وصرخاته وغضبه. لكن رجب الذي يرقد في الغرفة المجاورة لرجب، كبير كثيراً في الشهور الأخيرة... لم أتصور الإنسان يمكن أن يكبر بهذه السرعة، ولكني رأيته بعيني... وهو يكبر كل أسبوع.

لما رأيته قبل شهرين تشبثت بالباب الحديدي وبدأت أبكي بصوت عال. تصورت اني لن اراه بعد ذلك. كانت عيناه تغوران في وجهه معروق أصفر، كأنه قام لتوه من مرض خطير، وأنه سيستأنف المرض، وبشكل أشد بعد أن أتركه. مددت يدي إلى وجهه أتملمسه، ولم يفعل مثل المرات السابقة، ترك يدي ترتاح على وجهه، ولما رفع اليّ عينيه مرة أخرى رأيته كما لم أراه من قبل.

كنت ألوم أمي كثيراً، وأنا أراها كالنحلة تحوم في البيت والأزقة طوال النهار، كانت تقضي وقتها أمام باب السجن، وعندما تريد أن تستريح تذهب لأم سجين آخر وتبدء ان معاً الندب والذكرى. قلت لها مرة وبتحريض من حامد بعد أن ملّ الجو الكئيب:

- سافري عند عمتي، هناك يمكن أن تستريحي!

نظرت إلي بمرارة ولم تحب أول الأمر، ولما رأيته صامته ونظراتها أقرب إلى

وفي المساء ظلت ساعات طويلة تلح عليّ لأقول لها ما سمعت. قلت لها كل شيء، وأكدت ان الحادث وقع في السجن الصحراوي البعيد، فلم تقتنع، وأيقظت حامد، بعد منتصف الليل والدموع في عينيها لتطلب منه الذهاب معها الى مدير الشرطة في تلك الساعة المتأخرة. . والحلّ عليها حامد كي تؤجل الأمر الى الصباح، ولما يشت فتحت باب البيت وجلست على العتبة حتى الصباح!

كنت أتصور أن ما تفعله أمي سيء إلينا كلنا، وإلى رجب بشكل خاص. كنت اعتبر موقف رجب خاطئاً منذ البداية. اذ ما فائدة العمل الذي يقوم به؟ وهل يستحق هذي السنين الطويلة التي يقضيها في السجن؟ وامي، ماذا يجدي ان تذهب من بيت لآخر والسجناء في سجنهم بعد أن صدر عليهم الحكم؟.

كنت أتصور الأمر خطأ، لكن ظلت تصوراتي تنام في صدري، لم أفلها لأحد، حتى حامد وهو يسخر من السياسة، كان يضطري ان أدافع عن موقف رجب، وقد أدى ذلك الى خصومات كثيرة. . اما مع أمي فقد كان الأمر مختلفاً تماماً، إذ أحسست ان كلمة واحدة أو التفاتة تصدر عني، تسيء إلى رجب فإن ذلك يمكن أن يدفعها الى الجنون. آخر مرة بعد صدور الحكم بشهور، قالت لي:

- اسمعي يا أنيسة، اذا سمعت كلمة واحدة عن رجب فلن تراني عينك، سأرحل.

بعد وفاتها تغير كل شيء. ندمت كثيراً على تلك الأفكار التي كانت تنطح رأسي بين فترة وأخرى، وندمت أكثر على الكلمات التي قلتها، بل تصورت ان موقفني ساعد على موتها بهذه السرعة.

منذ أن ماتت، قررت ان اكون لرجب أكثر من أخت. أصبحت أمه واخته في نفس الوقت، وتحملت من أجل ذلك أكثر مما تحتمل امرأة في مثل سني. . حتى حين كنت اسافر الى تلك القرية الملعونة، على أطراف الصحراء، كنت أواجه احتمال الطلاق من حامد. وكنت لا أتكلم عن التصرفات التي أتعرض لها: بصقت في وجه اثنين من الشرطة عندما اسمعاني كلمات بذيئة، ونزعت حذائي أكثر من مرة وهددت المخبر بالضرب، اما الانتظار والجلوس على باب السجن، فقد تعودته تماماً وبدأت اجد لذة حين اسمع قصص الامهات والزوجات عن الابناء والأزواج، وأصبح لدي شيء يمكن أن أرويه عن رجب!

بعد فترة من الزمن أصبحت بنظر النساء امرأة لها ميزة تفوق الكثيرات. كيف

ان رجب حكم احدى عشرة سنة، وظل معلقاً سبعة أيام بلياليها في السقف، وأنه تعرض لعذاب لا يحتمله انسان. كانت النسوة يستمعن إليّ بخوف ممزوج بالاستغراب والتقدير، وكنت لا أمل أبداً من اعادة هذه القصص، التي كان لها أن تنهي بكاء امرأة عجوز، أو بنت صغيرة، بصورة خارقة. كنت أقول هن: كل ما تسمعه من الشرطة كذب، فالشرطة تقول هكذا كي . . ولو صح ما يقولونه فإن الرجال قادرون على الاحتمال أكثر مما تتصور. . ماذا تظن؟ اخي رجب اسماعيل، ظل ثلاثة شهور وسبعة أيام في المفردة. . كان ينام ويأكل، دون أن يرى انساناً أو يسمع صوت انسان، ليس هذا فقط، رأيت مباشرة بعد هذه الفترة كان أكثر شجاعة وأقوى من ذي قبل!

نفس القصص التي كانت ترددها امي بدأت أرددها، وكأني سمعتها من لسان رجب مباشرة، لم يقلها أحد، بل رأيتها بعيني وأصبحت مقتنعة بكل كلمة، وكانت النساء في أغلب الاحيان يسألني عن أدق الأمور وأصعبها.

لكنني لم استطع ممارسة هذا الدور حتى النهاية. لما رأيت رجب قبل شهرين مريضاً، ونوبات الاغواء تتكرر، وجدت نفسي احارب نفسي أكثر مما أريد ان احاربه. قال طبيب السجن، وهو من نفس قرية حامد:

- يجب ان تفعلوا شيئاً من اجله وبسرعة. . اذا تأخرتم خسرتم الرجل!

لما قال لي حامد ذلك أصابني الخوف. . تصورت ان رجب لن يموت فقط، وانما سينتهي معه كل شيء. اسودت الدنيا في عيني، وبدأت أحاول. نسيت كلمات امي التي ظلت ترددها لكل من يسأها، حتى قبل ان تموت بأيام قليلة.

قالت مرة لعمتي، وهما تتحاوران:

- ماذا تظنين يا حسبية. . رأس مال رجب شرفه، اذا فقدته فقد كل شيء. .

ثم أنا أعرفه، الله يسلمه، عنيد ورأسه مثل الصوان.

قالت امي هذه الكلمات عشرات المرات، كانت ترددها لنفسها، حتى لو لم يسأها أحد، كانت تقولها امامي وامام حامد لكي تحارب تلك الافكار التي تدور في رؤوسنا، حتى لو لم نقلها.

في يوم ماطر، عند أول المساء، دخلت مبجلة ترتجف، ظننتها أول الأمر ترتجف من البرد، لكن ما كادت تجلس قريباً من النار، حتى خرج صوتها غاضباً:

- الله يقطع هذي الأم... هذه ليست أمأ، هذه مزيلة، نكون جالسين بانتظار أن يسمحوا لنا أو أن يأخذوا الأكل، وما أن يظهر أمر الحرس، ويبدأ ينادي على الاسماء، حتى تولول والدموع على خديها قناطير... قبل دقيقة كانت امرأة عاقلة، تحكي وتنتظر، لكن حين تدخل على ابنها تسبقها أصواتها... تبكي، تولول، تصرخ... هذه الأم تقتل...

ونصمت أُمي ريشاً تحفف شعرها على طرف النار، بعد أن تفردت. تنظر إليّ لترى آثار كلماتها، ثم تتابع، وهي ترخي الجديلة الثانية وتقلبها:

- ام... ما أحقر مثل هذه الأم، اليوم خرج ابنها، خرج بعد أن اعترف على جماعته ووقع.

وتتطلع إليّ، كانت نظراتها تبدو حانقة، أكثر من كلماتها، وكنت أتصور أن أُمي تقاوم قوة خفية، تعاودها بين فترة وأخرى على شكل خوف أو رغبات غامضة. لكن كانت تخاف منا أكثر مما تخاف من نفسها.

نسيت كلمات أُمي تماماً لما رأيت رجب ذلك اليوم. وعندما جاءت كلمات الطبيب، تصورت أني لن أراه مرة أخرى، وقررت أن اخترق مقاومته.

تقلب حامد، ضرب بيده طرف السرير، كأنه يقاوم قوة تحاصره، لما استقر في الفراش من جديد، انتزعت نفسي، مشيت على أطراف أصابعي، حتى إذا اقتربت من باب غرفة رجب، انصت...

كان يقطع السكون صوت اسنان تصطك... رجب نائم اذن. اذكر صريف الاسنان، تلك العادة التي لم يتخل عنها ابداً. كانت تسأله أُمي ان كان قد رأى احلاماً، كان يحاول ان يتذكر، وأغلب الاحيان لا يستطيع، حتى اذا سأها عن سبب سؤاها، اجابته وتلك الابتسامة تملاً وجهها:

- قلت لنفسي سفتت اسنانك، وكان صوتها عالياً وهي تصطك.

تعود رجب على السؤال. كان وجهه يتقلص وهو يحاول التذكر، لكنه لا يتذكر أو على الأقل، لم يكن يتحدث عن احلامه.

نظلت الى الساعة الموضوعة على طرف الشباك، كان فسورها يشع مثل حبات صغيرة راقضة. استغربت ان الساعة بلغت الثالثة والنصف. في السادسة يغادر رجب، يسافر، وقد لا أراه مرة أخرى.

لم يبق إلا ثلاث ساعات، ساعتان، وتنتهي تلك الأيام التي كونت حياتنا معاً. لم تكن حياة حلوة... كانت صعبة، ومع ذلك احبها أكثر من أية أيام أخرى. خلال سجنه كنت انتظر الجمعة، وكأني طفلة صغيرة... ماذا انتظر بعد الآن؟

ان شيئاً في داخلنا تمزق، احسست بذلك ونحن نمد أيدينا الى الطعام في المساء الأول بعد ان خرج رجب من السجن.

كان الجو ثقيلاً... رجب صامت أغلب الوقت، لا ينظر الى احد، والمرح الذي حاول حامد أن يخلقه لم يجد على شفني رجب إلا ابتسامات شاحبة، كانت ابتسامات حزينة وتغيب بسرعة، ويحل مكانها صمت ثقيل، ينذر بأخطار كبيرة.

نجينا الحديث عن السجن. لم نسأله إلا أسئلة عادية لا تثير ذكرى، ونجيب أكثر منا أن يتحدث. وفي كل المرات التي جلسنا فيها معاً، كان يحاول ان يظل صامتاً، لكن رغبي في ان أخرجه من صمته دفعتني لأن أهذي واتحدث في امور كثيرة غير مترابطة. كان يسمع ولا يجيب. حتى اسئلته، كانت من ذلك النوع الذي لا أعرف كيف يتذكرها... الآن تبدو لي الأمور أكثر وضوحاً... كنت اجيب عن تساؤلاته الصغيرة بسرعة، لم أكن اتصور انها تعني أكثر من تساؤلات.

سألني عن جارنا الأسود... قلت له مات. سألني عن تمام الخادمة العجوز، قلت له ماتت. سألني عن أم جعفر، قلت له أنها ماتت قبل دخوله السجن، ولم يستغرب اجاباتي.

في وقت ما، وأنا أدور حوله ملهوفة وكأني معصوبة العينين، أريد أن أفعل شيئاً، لابعاد الكآبة الثقيلة التي تخيم على الدار، والتي سرت عدواها الى الأولاد، فأخذوا يلزمون الصمت أغلب الاحيان، أو يذهبون الى الخارج ليلعبوا، حاولت أن أذكره بأيام لعبه، وحين كنا في المدرسة... رأته مرة واحدة يضحك ضحكة صغيرة فرحة، لكنه زُمها بسرعة، وبدأ على وجهه ما يشبه الندم!

قبل ثلاثة أيام، وكنت أسير امامه في الحديقة، خلف الدار، أريد أن أريه الأزهار الجديدة، وشجرة المانوليا التي كبرت، سألني دون تمهيد عن هدي!

ما زال الجرح في قلبه ينز. لم ينسها، ولم تغب عن فكره، كان سؤاله متلهفاً ومباشراً، قال لي وعينه الى الأرض:

- ما اخبار هدي، يا انيسة؟ هل تربنها؟ ألم تسأل عني؟

حاولت كثيراً تجنب كل ما يذكره بها. لم اذكر عنها شيئاً، ولم أعطه بعد الرسالة التي تركتها، وأوصيتني ألا يقرأها إلا بعد ان يترك السجن، قلت لنفسي، وأنا أحارب الافكار التي تدفع بطيفها: «اصبحت الآن بعيدة، والاحسن أن ينساها. أما الرسالة فسوف أتصرف فيها بشكل ما».

أعرف هدى، كانت تريد ان توضح له شيئاً ما. قالت لي عندما أغلقت الرسالة ودفعتها الي مع تلك الدمعة الراجية «احفظي سري». ولم أشأ إلا احترام هذه الرغبة. كنت أريد في ذلك الوقت ان أترك لرجب ذكرى مضيئة، أما الآن، وأنا أراه حزيناً لهذه الدرجة، فقد تصورت ان قراءة مثل هذه الرسالة قد تتعبه، وتولد في نفسه احزاناً جديدة، وصممت أن اكتم امرها.

قلت له، وأنا لا أزال أسير أمامه وعيناي تنبهان في الأفق البعيد، احاول ان اتخيلها بالصورة التي يحبها رجب:

- لن أقول لك، هذه المرة، ان هدى ماتت، لا. انها لا تزال حية. وبيتها لا يبعد كثيراً من هنا، ولكن هدى تغيرت، تغيرت كثيراً. اصبحت الآن سميئة، أسمن مما تتصور، وتذهب الى حفلات الاستقبال، وتتحدث بمناسبة وبدون مناسبة عن زوجها!

- ألم نسأل عني أبداً يا أنيسة؟

- في البداية كانت تسأل، لكن منذ سنة، أو اكثر، لم أراها إلا مرة أو مرتين... ولم تسألني...

وأضفت وأنا أحاول تخفيف اثر كلماتي:

- عندما رأيته لم تكن وحيدة، ولم أستطع أن أراها على انفراد... ربما كان هذا هو السبب الذي منعها من السؤال!

ظل صامتاً يسير. لا أعرف عالم الرجال إلا من خلال رجب وحامد! وحتى هذا العالم، لا يبدو لي واحداً أو متشابهاً. وحين اتذكر هدى الآن، اتصور انها حاولت كثيراً... كانت تبكي. كانت تقضي عندنا ساعات طويلة، ولا تفعل شيئاً إلا البكاء. سألتني مثل طفلة صغيرة: «هل أهرب يا أنيسة؟ لا أطيق أن اتزوج غير رجب». لكن رجب كان بعيداً ومستحيلاً، وأهلها كانوا يلاحقونها ويحاصرونها، ولم تكن تستطيع ان تتخلص.

حاربت شبحها، عندما كان يسألني عنها وهو سجين. قلت له أشياء لم تحصل، ولكن ماذا أستطيع؟

ومع الايام تغيرت هدى... تغيرت فعلاً هذه المرة. لم تعد تسأل، لم تعد تبكي، خلقت لنفسها عالماً جديداً، وبدأت تصبح جزءاً منه. اما الرسالة التي تركتها لرجب، فقد حاولت بعد سنة من زواجها أن تستردها. الحت كثيراً، رجعتي ودموع الخوف تملأ عينيها، قالت ان زوجها سيقتلها لو عرف بذلك... وحين قلت لها اني احرق أوراق رجب كلها، وأول ما أحرقت رسالتها، بدت غاضبة وشاكة... وكانت كلماتي تلومها اكثر مما تقنعها، وأنا أقول: كل العالم القديم احترق ولا أريد أن نتحدث عن الأمر من جديد!

قلت لرجب... وأنا امسك بيده لكي اكتشف عالمه الداخلي:

- امي زرعت لك هذه الشجرة، زرعناها بعد شهرين من سجنك.

قال يتسأول للذيد:

- شجرة حور!

- نعم شجرة حور، وقالت عندما يخرج رجب من السجن سيكون كبيراً شامخاً مثلها!

ولأول مرة رأيت وجه رجب يتقلص من الألم، ثم تركني بسرعة. ارتكبي على حائط الدار باستسلام يائس، وبعد لحظة صمت مدمرة بكى. كان بكاء متوجعاً، أقرب الى النشيج.

ترأى لي في فترة من الزمن ان الحديقة التي حدثته عنها حين كان سجيناً، ستخلق في نفسه الفرح، ولكنني الآن وأنا أشير الى الاشجار واحده عنها تصورت انني اقتله.

تركته يبكي. لم أفهم اول الأمر. ظننت ان ذكرى امي هي التي دفعته لهذا البكاء، لكن لما استعدت الكلمات وجدتها حادة، نازقة بالمرارة...

قبل ان ينتهي ذلك اليوم، رأيت رجب والعرق المريض يغسله تماماً، كان يحاول قطع الشجرة، وبعد ان تعب، عاونه حامد. لم نسأله شيئاً، ولم نحتاج على ما يفعله، تركنا له ان يتصرف دون كلمة احتجاج واحدة، اما حامد، فقد قلت وأنا

أقنعه بالحاج لكي يساعده:

- بعض الناس يتوهمون خصومهم بالأشياء المادية.. رجب يتصور هذه الشجرة عدواً.. لا يريد أن يناقشه.. المهم أن تساعده!

ساعده حامد بصمت. ظلاً يعملان معاً، وعندما هوت الشجرة، تداعى جزء من السور. وفي محاولة بالئسة، للاعتذار، قال رجب بطريقة مرتبكة:

- سأبني غداً هذا السور بنفسى.

فرحت عندما سقطت الشجرة، أما حامد فقد أغرق بالضحك بعد أن استراح، وأخذ ينظر الى رجب تلك النظرة التي تمتلئ بالموده، وكانت ابتسامة ظافرة على وجهه عندما قال له:

- مثلما قرأنا في القصص.. هذه الشجرة هي رمز للماضي.. والآن بعد أن انتهت وسقطت سقط معها الماضي وانتهى، ماذا تقول يا رجب؟

قال رجب بكلمات بطيئة اقرب الى الغموض:

- هذا النوع من الاشجار، النوع الضامر، الطويل، يولد في نفسي حزناً، ومن أيام بعيدة وأنا أكره الحور والسرو، انها اشجار كثيبة!

حاول حامد أن يتحدث عن الاشجار، عن الماضي، لكن رجب الصامت أول الأمر، ثم الذي نهض فجأة وبشكل عصبي، جعله يتوقف، وكأنه احس بخطئه!

بعد ذلك اليوم، ظل رجب في غرفته، لم يغادرها إلا قليلاً. أما السور الذي قال انه سينبئ، فقد طلب منى في صباح اليوم التالي أن أفتش عن رجل ليقوم بهذا العمل، تقبلت الأمر بهدوء، ولم أكن لأحتج على أي تصرف. كنت أريده ان يفعل ما يريد، فلو بناه لما قلت كلمة واحدة، والآن وهو يسألني أن أفتش عمن يبنيه قلت وأنا أنظر بالمرح:

- أنت تهدم وحامد يبنى... وحتى اذا لم يبنه حامد، فسوف نفتح للحديقة باباً آخر.

وهز كتفيه دلالة الاستخفاف، وعاد الى غرفته، وأغلق الباب وراءه!

الآن.. مرة أخرى نسير في الحديقة، ورجب يسألني عن هدى.. ماذا أقول

له غير هذه الكلمات الميتة؟ ان هدى في ذاكرته هي تلك المرأة التي تقفز مثل غزال، تضحك، تغني، وبعض الأحيان يحمر وجهها من الانفعال، اذا اختلفت معه حول أمر من أمور السياسة، التي لم تكن تفقه منها إلا القليل!

رفع حامد رأسه في الظلمة. كان يريد ان يتأكد ان كنت قد نمت، أغمضت عيني بسرعة، ثم بعد برهة صغيرة، وكرد فعل لحركته، استدردت الى الناحية الثانية، وتظاهرت بالنوم!

ربما تجاوزت الآن الرابعة.. سيضيء رجب النور، قال لي في الليلة الماضية ونحن نطلب اليه أن ينام مبكراً:

- سأضع الأشياء التي استعملها في الحقبة الصغيرة، سأرتبها بنفسى لأعرف مكانها.

وحاول أن يغير لهجته ليدخل الطمأنينة الى نفسي، تابع وهو يضرب كتفي بمودة:

- سأنهض مبكراً لأحلق وأرتب الأشياء.

سينهض رجب.. ربما نهض الآن، لم يضيء النور، لكن لا يمكن أن يستمر نائماً...

في الايام الماضية راقبته بدقة.. كان ينهض مبكراً، ولا أعرف أين يذهب، خفت كثيراً لما رأيته في اليوم الثاني يخرج وتعمدت أن أنتظره.

يا إلهي كم تغير رجب، لم يعد ذاك الذي اعرفه، الذي عشت معه. انه الآن انسان آخر. هل مات رجب ذاك؟ هل تركه في السجن؟ والانسان.. هل يمكن أن يتغير بهذا المقدار؟ الصوت المشبع بالثقة والمودة، تراجع ليحل مكانه صوت هامس يخنقه البلغم والسعال، العيون الضاحكة، التي كانت تسميها أمي عيون اللصوص، انطفأت غمماً، عيونه الآن مثل مرايا مجللة بالبخار، لا ترى أبداً، تنطلع، لكن لا ترى. آه لو تركني رجب انطلع الى جسده. هل يمكن أن يتغير الجسد ايضاً؟

قلت له والأطياف والأفكار تتراكض في رأسي بسرعة مجنونة:

- السجن غيرك؟

- لا.. لم أتعير، واذا تغيرت، فنحو الأحسن!

- السجن يغير الانسان الى الأسوأ، ألا ترى كم كبرت؟ كم تعبت!

- ولكن لم أعد أعتمد على احد.. تعلمت أشياء كثيرة: غسيل الملابس، الصحن، ولا تستغري يا انيسة اذا قلت لك اني اصيحت اشطر من امرأة في خياطة الأزرار والرفع.

- وتعلمت ان تغتسل وحدك؟

- في البداية كنت احك ظهري بالجدار. لكن تعلمت ان امسك اللبقة من الناحيتين وأفرك.

لو أرى جسده لأتأكد من الجروح في الساقين، والكتف، ألا تزال جراحك التي اذكركها في مكانها؟ ألم تتغير؟

لا يريدني ان ارى جسده كي لا أكتشف الآثار التي قالوا انها في اجساد السجناء مثل الخرايط، ولكن ألا تتغير تلك الآثار؟ سمعت قصصاً كثيرة عن السجناء الذين يفاخرون وهم يشيرون الى آثار التعذيب... الورم في الأرجل، العلامات الزرقاء على الظهر، كانوا ينظرون الى العلامات بدهشة بمازجها الشعور باللذة، كأنهم يكتشفونها لأول مرة. نظرت الى جسد رجب قبل أيام، كان يمد ذراعه في كم القميص، تقدمت منه دون أن أشعر، ووضعت أصبعي على كتفه قريباً من الصدر، اتحسس نتوءاً متورماً.. رفع ذراعه بسرعة، يريد أن ينتهي من ارتداء قميصه، ولما رأى السؤال في عيني قال:

- لا تظني ان كل شيء من السجن.. هذا مكان الجرح عندما سقطت عن شجرة الجوز.. الا تذكرين؟

اتذكر ان ذراعه كسرت، ولكن لا أتذكر ورماً او علامة، وحتى لا يترك الفرصة لأسأله قال:

- لا يتركون علامات.. ولا يحبون ان يكون السجن مشوهاً، حتى لو اعترف فإنهم يحتفظون به الى ان يشفى!

- هل ضربوك كثيراً يا رجب؟

وبعصبية رد، كأنه فوجيء بالسؤال، ولا يطيق ان يتحدث:

- لا.

- والاخبار التي سمعناها؟

- كذب.. كلها كذب.

لم استطع أن أصدق، فتميت لو أرى جسده، لو رأيته بنظرة خاطفة، اقرأ فيه كل شيء: الآثار، التغيرات، الكبير، ولكن رجب يعتبر جسده، منذ وقت بعيد، سرّاً، ولا يبيح لأحد أن ينظر اليه. اذكر عندما سمع قصة ذلك الرجل الذي سكن بعيداً من بيت خالتي، والذي كان يحلو له أن يتعري من أغلب ملابسه ويصعد الى السطح، عندما سمع رجب أن أولاد اخي ضربوه وأرغموه على أن يترك البيت، قال لأمي وهي تتحدث عنه:

- الحيوانات تعرف من النظر اليه، ماذا يظن؟ هل يتصور ان النساء يترакضن عليه ويرغمن تحت أقدامه؟

ولم يعلق أحد على تلك القصة، لكن رجب قال لمنعم، ابن خالتي، بعد أيام وهو يسأله عن الرجل:

- لو كنت مكانك، لأركبته حاراً بالمقلوب وجعلته يسير في الشوارع! ألا ينجل من كرشه؟ من مؤخرته التي تزيد عن خنزير؟

ان شيئاً في جسد رجب يسبب له الخوف، لست متأكدة، لكن لما سألت حامد عن شبابه وحاولت أن أقارن، تبين لي أن الاثنين يختلفان، فحامد لا ينسى أبداً القصص التي تؤكد قوته، كان يكررها بلا ملل: «ثلاثة كانوا.. وكنت وحيداً لم يكن معي سلاح، لكن تظاهرت ان شيئاً في جيبى، ضربت الأول فسقط على الأرض، ضربت الثاني على وجهه، وسال منه الدم، وبعد الضربة الثانية كانت اثنتان من أسنانه الأمامية في فمه وعندما بصق الدم، سقطت الى الأرض.. اما الثالث فقد بقي متفرجاً أول الأمر، ثم هرب».

سمعت هذه القصة من حامد عدة مرات، وسمعت غيرها.. رجب لا يجب ان يمتحن جسده. كان يعتمد على خفته، ومهمته ان يبدي براعته في امور يتصور ان الآخرين لا يستطيعونها.. كان ماهراً بالكرة، بالركض.. اما جسده فأقرب الى الضمور، وظل كذلك فترة طويلة، حتى حين أصبح كبيراً، وبدأ يعود من المظاهرات دامي الوجه، متورم الشفة، فإني أعتقد انه كان يعتمد على براعته أكثر مما يعتمد على قوته!

قلت أول أمس وأنا أضغ في صحنه قطعة اخرى من الدجاج:

- عادل يأكل اكثر منك، لماذا لا تأكل؟

رد علي بكلمات غاضبة، وهو يضرب على بطنه دلالة الشبع:

- اصبح الأكل مضجراً بالنسبة لي. ومع ذلك أكلت كثيراً!

ربما يريد ان يعذب نفسه بشكل ما. بدأت اعتاد عليه من جديد، لكن رجب لم يعد ذاك الذي اعرفه. بعد ساعة يرحل، وهناك، من سيعد له طعامه؟ وهل سيأكل؟ انه الآن معنا ويهرب من الأكل، ماذا سيفعل اذا ظل وحيداً؟ لن أنسى ان اكتب اليه، سأوصيه دائماً ان يهتم بصحته. لقد أفسده السجن اللعين، وهو الآن بحاجة الى عناية زائدة، لكي يعوض السنين الخمس التي لم يأكل خلالها مرة واحدة مثل انسان.. لقد قال ان أكل السجن لذيذ، لا أصدق أبداً، عندما رأى وجهي ساخراً قال بأصرار:

- الجوع أحسن معلم.. قبل السجن كان لي مزاج خاص: هذا طيب، هذا أحبه، هذا لا أحبه.. في السجن كنت أكل أي شيء.. ولكي لا أعلق، قال:

- حشو مصران، المهم ان يأكل أي شيء، فقط لكي لا يجوع، ومع ذلك كان الأكل لذيذاً.

والنوم.. هل استيقظ رجب؟ بقيت له ساعة، ويرحل، ان النوم عدوه في هذه الأيام. لا أعرف متى ينام ومتى يستيقظ! كان الضوء يلعب في انحاء الغرفة اغلب الساعات، ولما سمعت أقدامه عند الفجر، في اليوم الثالث بعد الخروج من السجن، استغربت كثيراً.. انذكر اني رأيت ضوء غرفته بعد ان استيقظت للمرة الثانية، تلك الليلة. كان النوم يطفو على عيني بلذة، ظننته أول الأمر قام ليشرب، وأنه سيعود، لكن لما سمعت الباب الخارجي يغلق وراءه اضطربت. اين يذهب في مثل هذه الساعة المبكرة؟ تركته، ولم أسأله في اليوم الأول، لكن عندما سمعت الباب في اليوم التالي، وفي نفس الموعد، تقريباً، قلت في نفسي: رجب يعرض نفسه لمخاطرة جديدة.

انتظرت حتى عاد.. تظاهرت اني لم أسمع عندما ذهب، ابدت دهشة كبيرة وأنا أراه يدخل. فتح الباب بهدوء وانزلق، لما رأي أمامه تراجع وبدت في وجهه آثار غضب وحيرة.

قلت له وأنا أضغط على الكلمات لكي أجعل لها وقعاً مشجعاً:

- خرجت الى الهواء لكي تحارب الأرق.. يبدو انك لم تعود على الحياة الجديدة!

قال باضطراب:

- نمت مبكراً، ولم استطع البقاء في الفراش اكثر، فخرجت؟

- تعودتم ان تستيقظوا مبكرين؟

- ليس قبل السادسة!

- ولكن الساعة الآن أقل، كم الساعة الآن؟

قال وهو يتجه الى غرفته، لكي اكف عن الثرثرة:

- حوالى السادسة، ربما اكثر قليلاً!

- هل أصنع لك قهوة يا رجب ام تريد ان تنام ثانية؟

- سأنام!

رجب يفعل أشياء غامضة، الى أين خرج؟ ماذا فعل؟ أريد ان أعرف، لكن لو احس اني اراقبه، لو سألت، فإنه لن يرحب بمثل هذه الأسئلة، ولن يغفر لي! لم تتغير عاداته في السجن، والأسئلة تولد في نفسه مرارة، لا تلبث أن تصبح عصبية منهورة...

كان يقول لامي إذا سألته:

- اذا كنت تحبيني فلا تسألني.. اصبحت كبيراً وأعرف كيف اتصرف، لا تخافي أبداً!

وعندما تحاول ان تتوصل اليه، أو تشعره بأنها لم تستطع النوم، لأنها قلقه وخائفة، كان يقول:

- نامي، واذا جئت ولم أرك نائمة، فسوف أتاخر أكثر. سأنام خارج البيت.

حاولت معه مرات كثيرة، ولما فشلت، تركته. ونفس الأمر حصل بالنسبة لما يقوم به من أعمال. لم تتجرأ أن تسأله، بعد تلك الليلة التي رد عليها بطريقة

جعلتها عصبية أول الأمر ثم ذهبت الى فراشها وأخذت تبكي! قالت له مرة:

- يا بني لو تترك السياسة، انت ترى بعينيك كيف اخذوا ابن الداوي، كيف حبسوا مجدي، ماذا تفيد السياسة يا بني؟

قال لها بغضب:

- هذه قضايا اكبر منك فلا تتدخل، انا كبير وأعرف كيف أتصرف.

- ولكن ترى بعينيك؟

- ماذا أرى؟

- كل يوم يحبسون واحداً.. كل يوم يقتلون واحداً.. ماذا أفعل اذا حبسوك؟ اذا قتلوك؟

- اطمئي، اذا حبسوا فسوف يحبسوني فقط، اما انت فلن يقتربوا منك!

- وهل تتصور اني احتمل الحياة يوماً واحداً بعد أن يحبسوك؟

- لماذا لا تحتملين؟

- أموت، أقتل نفسي؟

- ما شاء الله، كنت أظن أن لي أمأ أقوى من الرجال، كنت أتصور أني اذا ذهبت الى السجن، اذهب وأنا واثق، وأنا مطمئن، لا دموع ولا صراخ، انت الآن وقبل ان اسجن تهددين، تريدان أن تجعلي مني امرأة؟ ان أتحوّل الى رجل مخصي؟

لا أعرف ما الذي دفعني لأن أتدخل. لو ظلت المناقشة بينهما لانهت دون نتائج. لكن عندما قلت لأمي بلهجة باردة، أقرب الى التأنيب، ان تكف عن التدخل في شؤونه، ردت عليّ بعصبية:

- انت لست أمأ ولا تعرفين شعور الأمهات، اذا سجن فلن تركضي في الشوارع، ولن تسهري الليل. ماذا تستطيع ان افعل؟

قلت لها بنفس اللهجة:

- رجب امامك الآن، وقبل ان يسجن يجب الا تتحدثي عن السجن.

- بعدما يموت تريدان أن أوصيه؟

قال رجب بعصبية كي ينهي المناقشة:

- اتركوا الموضوع، واذا سجنت فأنا أحمل النتائج!

- لكن يا ابني انا أم وأنت تعرف قلب الأم.

- اذا كانت كل أم تقول الكلمات التي تقولينها فلن يتحرك احد، وسوف نموت في المزابيل.

- ولكنك تعرض نفسك للهلاك يا ابني.

- انا كبير وأعرف ما يجب ان افعل!

قلت وأنا أفهم رجب، وأريده أن يهدأ:

- امي اتركيه كما يشاء.

- الى الجحيم، ليفعل ما يشاء، وأنا لن أندخل ولا شأن لي!

قال رجب غاضباً:

- اذهب اني جهنم ولا أريد أن يذهب معي احداً!

- لو كان ابوك حياً ورآك بهذا الشكل، تعرض نفسك للخطر، لعرف كيف يربيك!

- الحمد لله انه ميت، وحتى لو لم يكن ميتاً، فأنا أعرف كيف أتصرف.

- هل تقول شيئاً اذا منعك من العمل في السياسة؟

- ربما لن يمنعني.. راح ذاك الوقت الذي كان يستطيع فيه احد أن يمنعني!

- يا ابني يجب ان تسمع كلمتي.

- انت خرفة ولا تعرفين شيئاً.

قالت بعصبية جامحة، وكأن الحرج الذي أصابها لم يترك لها فرصة لكي تفكر بهدوء:

- مائة جهنم، وأكون مجنونة اذا سألت عنك!

- مائة جهنم، وأنا لا أريد من أحد أن يسأل عني!

ذهبت غاضبة الى فراشها، لكن ما كادت تستقر في الفراش، حتى بدأت تبكي، كان بكاءها هادئاً أول الأمر، ثم تحول الى نسيج، ولم يفعل رجب شيئاً. ذهبت اليها، وظللت أتكلم معها ساعة، قلت لها أشياء كثيرة، ولم ترد عليّ بكلمة واحدة، حتى اذا هدأت، نامت دون أن تبدل ملابسها!

منذ ذلك الوقت تجنبنا سؤال رجب عن أشياء كثيرة. كنت أحاول أن أضعه في جو معين كي يتكلم، فإذا تكلم وحده، أو تها، أدفعه تدريجياً لما أريد، وأغلب الاحيان أرى على وجهه ما يشبه الندم، اذا تحدث في امور لا يجدر أن يقولها لامرأة أو لانسان غريب!

ومنذ ذلك الوقت، عرفت ان رجب لا يضيق بالاسئلة فقط بل يكرهها، وتدفعه لأن يتصرف بقسوة ليست من طبيعته.

سأله جارنا ذات يوم، وكان جاراً جديداً، ظل يسكن بالقرب منا الى ان ماتت زوجته في السنة الماضية، وكان يكبر رجب بقليل. سأله حين كان يزورنا لأول مرة عن أصل العائلة، وعن عداد أفرادها وعن مصدر دخلها. اجاب رجب عن اسئلته بضيق، حتى اذا سأله عن مساحة الأرض التي تملكها في القرية، وما اذا كنا نستثمرها مباشرة أو عن طريق أقاربنا، نظر اليه رجب نظرة حائرة وقاسية وسمعته يقول بعصبية:

- لي أخت واحدة ومتزوجة، وأنا لا أريد أن أتزوج في الوقت الحاضر!

فلما استغرب الرجل، وبدت على وجهه علامات التساؤل والحيرة، قال له رجب:

- يا سيدي، لا حاجة لمثل هذه الاسئلة، واعتقد ان احداً لا يسألها إلا اذا كان يريد ان يصاهر!

حاول الرجل ان يعتذر، لكن ظل هذا اللقاء مطبوعاً في ذاكرة رجب، كذكرى حزينة تثير في نفسه الكراهية، ولم يجد كلمات كثيرة يقولها لامي، حين الحت عليه أن يرد الزيارة لجارنا، قال لها بحزم:

- لا أريد زيارته، أما التحقيق فسوف يأتي دوره، لا تخافي!

ولما استغربت اُمي رده، قلت لها بعد أن خرج كيف ان ذلك الجار أثار رجب بالاسئلة.

وصمتت اُمي دون أن تقول شيئاً!

يجب ان استيقظ، سأذكر كل شيء عن رجب فيها بعد، الآن أريد أن أراه، أن اتملى من وجهه في الساعة الأخيرة، قد لا يعود، وحتى لو عاد فلن يكون ذلك في وقت قريب.

لما دفعت الباب بهدوء، رأيت رجب ينحني فوق الحقيبة الصغيرة. تقدمت على أطراف أصابعي لكي لا يراي، حتى اذا أصبحت قريبة جداً، رأيته يضع مجموعة من الأوراق!

أذكر الدفتر الأسود.. وهذه الأوراق اللعينة. خفت وتصورت ان الغضب سينفجر دفعة واحدة، وسيفرقنا في بحر من الحقد الأصم. انها نفس الأوراق، نفس الدفتر، لقد اعطاها لامي، وكان شديد الحرص على أن يبقيا سرية، وبعبدة، بحيث لا تصلها يد. أتذكر ان صمتاً مرتباً كان يحيم على الغرفة، في ذلك اليوم، رأيت اُمي تحفل وتضع الأوراق بسرعة تحت الفراش حين دخلت، تراجعت وأنا اتظاهر اني لم أر شيئاً، وقبل أن تموت اُمي، قالت، وهي تشير الى المدخنة، في الغرفة العليا، الصغيرة:

- انيسة، امانتي الوحيدة ان تحفظي هذه الأوراق لرجب، لا أعرف ما فيها لكنه ائتمني عليها كثيراً.

لم أجب. ظلت الأوراق في مكانها فترة طويلة، لكن الشيطان الثاوي في قلب كل انسان، ارتعش ذات يوم في قلبي، ولا أعرف كيف امتدت يدي الى الأوراق.

لا أستطيع ان اقول كل شيء، لأنني لم أقرأها كلها، وحتى لو قرأتها، فربما كان من المضني أن أتكلم.. لم تكن أوراقاً خطيرة، ولا تعني احداً غير رجب، ولو وقعت في يد أي انسان فلن يجد فيها ما يجده رجب.. انها دون كلمات كبيرة، عالمه الصغير، أفكاره، احلامه.. حبه وجنونه، وفيها بعض الشائيم، هذا ما أريد ان أتذكره.

لما رأيته ارتجف، نظر اليّ بحقد، كأنه يرتكب عملاً فظيماً، ولكي أبعد أفكاره وأوحى له بالثقة قلت:

- أأصنع القهوة الآن أو بعد أن تحلق؟.

رد وابتناسمة شاحبة تتخلل كلماته:

- لا يهم .. الآن أو في أي وقت .

- وهل انتهيت من ترتيب أغراضك؟

- تقريباً!

- ألم تنس شيئاً؟ حاول أن تتذكر .

ودون أن يحاول، قال بعصبية:

- لم أنس شيئاً.

ارتقى على مقعد قريب . دفع الحقيبة برجله لكي يبعدها، قال لي وهو يمد اليّ سيجارة:

- انتذكرين ما كانت تقول أُمي عن السيجارة الأولى!

هزرت رأسي دون أن اجيب، كنت أريده أن يقول، لأنه يتذكر أُمي من جوانب لم أستطع أبداً أن أتذكرها، فلما رأي صامتة، قال:

- «السيجارة الأولى سم، أقوى من السم، ضع سيجارة في ماء وأتركها حتى تجل، وأنظر الى لون الماء بعد ذلك، انه اصفر قائم، هذا هو السم». أما كيف عرفت السم، من قال لها أن لونه هكذا، فلم تجب أبداً. كانت تردد هذه القصة كلما رأني أأخذ قبل الأكل، وكانت تحاول أن تسرق مني السيجارة، تركض لكي تعطيني شيئاً آكله .. أنتذكرين ذلك؟.

هزرت رأسي. ورأيت ملامح وجهه تعتكر وتتداخل، حتى لتصبح قاسية، قال:

- لذلك سادخن وحدي، لن أعطيك سيجارة مثلما فعلت في الليلة الماضية.

قلت وأنا أحاول تقليد أُمي لأدخل على قلبه بهجة الذكرى في الساعة الأخيرة:

- وكيف تدخن قبل أن تأكل يا رجب؟ ألا تعرف أن السيجارة الأولى سم، أقوى من السم؟.

- السجن يعود .. والسيجارة الأولى الآن تجعل لحظي استمرار طعم المראה، التي احتاجها.

- لماذا تقول هذا يا رجب؟.

- وهل ما قلته شيء سيء؟

- تغيرت حتى طريقتك في الكلام!

سحب عدة انفاس، وهو غارق في ذكريات بعيدة ومتناقضة، هذا ما أحسسته من حركاته العصبية ومن وجهه الذي كان يتغير في كل لحظة، وكأنه يصارع قوى عديدة. فجأة، رأيته يعتدل في جلسته، يسحب قدمه التي كانت مثل مخلوق زائد في أرض الغرفة، ويقول:

- ما زلت حائراً يا أنيسة .. هذا الدفتر الذي تركته عند أُمي، والذي أخذته منك، وأشار الى الحقيبة، لا أعرف أن كان يجب أن أخذه معي، أم أحرقه قبل السفر .. اذا اخذته قد يفتشونني ويجدون، وهذا فضيحة جديدة، فضيحة من نوع آخر: رجب عاشق، رجب يكتب اشعاراً، رجب يحلم. سوف ينشرون كل شيء كي يضحك عليّ الجميع، خاصة اصدقائي، وقد تصل الجريدة الى السجن: الى عصمت وامجد .. والآخرين، سوف تتأكد كل الأفكار التي قالوها عني ... واذا لم أخذه معي، واذا احرقته، قد أندم، فيه بقايا اشياء أريد أن احتفظ بها كذكرى.

كان يتدفق وهو يتكلم، كأنه يتحدث الى نفسه، لم يكن يرى أحداً، ولم يكن يسألني، كانت كلماته محاولة اخيرة لاقناع نفسه. قلت:

- اتركه عندي يا رجب، وعندما تعود سوف تتصرف به كيفما تشاء.

- ولكنني احبه يا أنيسة، وقد فكرت فيه كثيراً وأنا سجين.

- اعتقد أنك قرأته في هذه الأيام، وتذكرت كل ما فيه، ولا حاجة لأن تعرض نفسك لخطر جديدة، أليس من الأفضل أن تتركه؟.

- قد يكون من الأفضل ان احرقه، ماذا تقولين؟.

- اتركه عندي الآن. سأضعه في مكان أمين، ولن تمتد اليه يد حتى تعود!

- قولي لي الصديق يا أنيسة، هل قرأت هذه الأوراق؟

كيف اجيبه؟ هل أقول اني قرأت بعض الصفحات؟، هل أنكر؟ لا أستطيع ان اقول كلمة ولا أندم عليها. اذا قلت قرأتها فسوف يغضب، اذكر صمته عندما دخلت عليها، حين أعطاه لأُمي. اذا قلت لم أقرأها، فلن يصدقني، ستفضحني

عيوني. انه يسأل بعض الأحيان بعينه، تكون عيناه مركبتين عليّ تماماً، وبشكل مدمر يرى ما يجول في رأسي من أفكار، حتى لو لم أقل كلمة واحدة. قلت وأنا أغامر بكل شيء:

- قرأت بعض الأوراق يا رجب، لأنني خفت من الشرطة، خفت أنه إذا جرى تفتيش جديد وعثروا على الأوراق، ان يخلقوا لك المتاعب، قرأت لكي أتأكد أن هذه الأوراق لا علاقة لها بالسياسة!

- وأي شيء قرأت؟

أمسكت يديه بكلتا يدي، أحاول ان اقنعه ليصدق، قلت:

- صدقتي يا رجب اني لا أتذكر.. كنت أريد أن أعرف فقط.

- وأي شيء عرفت؟

قلت ضاحكة وأنا أهزه لكي يقوم:

- لن أفشي أسرارك لأحد، تأكد من هذا تماماً.

- حتى لو ضربوك؟

- حتى لو ضربوني،

- لو استعملوا الكهرباء؟

- لو استعملوا أي شيء.

- تكذبين.

- اكذب؟

- نعم تكذبين.. الانسان يقول انه لن يقول شيئاً، اما اذا بدأوا يضربونه، اذا استعملوا أساليبهم، فإنه سيقرر في تلك اللحظات.. وكيف يقرر؟ ان جسده هو الذي يقرر، الارادة في تلك اللحظات تموت، تحب، والجسد وحده هو الذي يفعل كل شيء!

- وهل تحملت كثيراً قبل أن تقول يا رجب؟

بصق على الأرض، وقام.

كنت أتمنى لو تكلم، لو قال شيئاً فإن صورة رجب ستبدو أكثر وضوحاً بالنسبة لي، ولكنه الآن يرحل، وترحل معه أسراره، هل قال رجب شيئاً؟ هل تحمل كثيراً قبل أن يقول؟

ماذا كان شعوره بعد أن رآهم يعيدون عليه الكلمات التي قالها جسده، وهو يتلوى تحت كلماتهم وكرابيجهم؟

كان من الواجب ان ارغم رجب على ان يقول شيئاً، لكن يبدو هذا مستحيلًا الآن.. لماذا لم أسأله في الأيام الماضية؟ لماذا تركته وراء الستائر في غرفته العجوز يعلك ذكرياته وحده؟ ان الانسان مهما كان قوياً، لا يعادل ذبابة اذا كان وحيداً! رجب كان وحيداً، هو الذي اختار ان يكون كذلك، لكن لماذا يختار ويقرر وحده؟

والأوراق.. والدفاتر، أتركها له؟ أحتفظ بهذه الذكري وأبيع لنفسي كل الحق في أن أقرأ الكلمات وأتذكر رجب عندما كتبها؟

رأيت وهو ينهض ويضرب الحقيبة بحقد، ربما كان يضرب الأوراق، الماضي، لحظات تعبة! قلت وأنا أحاول أن أعيد:

- ماذا قلت.. هل سترك الأوراق أو تأخذها معك؟

- لا أعرف، قبل أن أغادر البيت بدقيقة واحدة سأقرر!

- الأفضل أن تقرر هذه اللحظة، ونحن الآن وحدنا، أما اذا كان معنا حامد والاولاد فقد يكون صعباً ان تترك الأوراق.. اذا رآوها فسوف يسألون، ولن أستطيع ان احتفظ بها سرية كما فعلت في الفترة الماضية!

- لا تخافي يا انيسة.. اذا قررت أن أبقها هنا، فسوف أقول لك أن تحرقها، لأنني لست بحاجة لها بعد ذلك!

- الأفضل أن لا تأخذها.. لو تركها الآن، سأحتفظ بها حتى تعود!

- لا أعرف!

كنت أصنع القهوة لما اخذ يخلق، كان الصمت ممتداً مثل جسر من الموت، لم أكن أسمع تمزق صوت الماء وهو يتقلب في الوعاء ويغلي، تذكرت الأوراق من جديد، وكنت أضع القهوة في الماء الغالي وأتذكر:

مجموعات من الأوراق مطوية بعناية، ودفتر أسود له غلاف مقوى، وصفحات كثيرة، حاولت أن أتذكر...

مذكرات ثلاثة شهور، انتهت قبل السجن بفترة طويلة، وخلال الشهور الاخيرة لم يكتب شيئاً رغم الأوراق البيضاء. بعد المذكرات اشعار، ثلث الدفتر أو أكثر قليلاً.

كان عنوان الاشعار «عربيات صغيرة وحزينة» أما القسم الأخير فقد وضع له عنواناً ثم شطبه، كان العنوان الأول: «افكار من أجل الحرية» وبعد أن شطب هذا العنوان كتب تحته «بلا عنوان»!

ماذا قرأت؟ هل أتذكر الكلمات واللحظات العنيفة التي مرت تحت عيني؟

انسفحت القهوة.. رأيت هذه المرة يقف ورائي، ويضحك. لقد تبادلنا الادوار الآن.. قبل قليل كنت أتابع حركاته وهو يرتب الحقيبة الصغيرة، لم يري أول الأمر، وعندما التفت عيوننا اجفل، وبدأ حائراً وغاضباً.. والآن، منذ متى يقف ورائي ويراقبني؟ كانت يدي ترتفع وتنخفض بوعاء القهوة دون وعي، حتى اذا قربتها من النار اكثر مما ينبغي، انسفحت، انطلقت النار واستيقظت.. ورأيت يضحك!

قال لي ينقذني من الحرج:

- لقد نسيت كيف تحضر القهوة.. لم نشرب طوال سنوات، لكن أستطيع أن اصلحها الآن بعد أن أفسدتها!

ولم أتركه. أضفت من جديد ملعقة من البن وقليلاً من السكر.

لم يتغير رجب وحده.. تغيرنا كلنا، وإلا كيف أفسر هذا الوله، هذا الارتجاف في اليد والخفقة في الصدر؟ كيف أفسر تصرفاتي كلها؟ لم أعد كما كنت.. اختاً وأماً.. انني اتعذب الآن. ولا أعرف كيف ستقضي هذه الساعة الباقية، أخاف أن يبقى وحيدين. أخاف على نفسي، وأخاف عليه أكثر. ماذا لو عاد الى البكاء مثلما فعل في الليلة السابقة! ماذا لو بكيت؟ ان هذا الجو المشحون دائماً يهدد بالانفجار كل لحظة، يمكن أن يتحول في ثانية الى عويل مجنون، الى هستيريا من البكاء لا يوقفها أحد!

واذا لم نبك فماذا نستطيع ان نفعل؟ هل أدور حوله لانظر اليه واحفظ

تفاصيل وجهه وحركاته قبل أن يرحل؟ هل أشغل نفسي بأشياء تافهة لكي لا أجلس في مواجهته وأنظر اليه؟ أكاد أفقد سيطرتي على نفسي!

كنت طوال الفترة الماضية أخاف ان أكون وحيدة مع رجب. أجلت مرات كثيرة الأفكار والكلمات التي كنت أريد أن أقولها. الآن، وأنا أراه يلتقط فنجان القهوة ويشرب منه رشقات بينما كان يسير نحو الصالة، سيطرت عليّ رغبة جامحة لأن أمتعه من السفر. ولأول مرة أرى في حركته فرح طائر مهاجر. كان رشيماً، وخطواته ترقص، أما أصابع يده عندما أطبقت على الفنجان والصحن معاً بطريقة محكمة، فقد بدت لذيدة تنهش الانسان من الداخل. قلت لنفسي وأنا أضرب الأرض بحقد: «لماذا يعود رجب في هذه اللحظة الى أيام الطفولة؟».

لما جلسنا على مقعدين متقابلين، سألت بصوت هامس:

- ألا تؤجل سفرك يا رجب؟.

كانت الابتسامة على وجهه غطاء رقيقاً للتصميم المعبذب. هز رأسه كما لو انه يترنم بالرفض، ولم يقل كلمة واحدة. وخيم علينا الصمت.

كانت عيونه تتراكمض في كل الأنحاء، لئلا تتوقف لحظة واحدة، وتلتقي بعيني. اية افكار كانت تحوم في رأسه؟ أية رغبة تسيطر عليه؟ لو طلبت منه أن يبقى، لما وافق، سيحمل حقيبتيه بعد قليل ويلوح بيده ويسافر، سيسافر وفي حلقه تلك الشبهة الموجهة! ما دام الأمر هكذا يجب ان أبدو متماسكة قوية، لأقل له كلمات لذيدة يتذكرها حتى وقت بعيد. قلت:

- لا أقصد أن تؤجل سفرك تماماً، كنت أريدك أن تعدني!

- اعدك؟ بأي شيء؟.

- ان تعود وان تكتب!

- ساكتب، ساكتب كثيراً.

- رسالة في الاسبوع؟.

- ربما...

- اذا لم يكن كل اسبوع، ففي كل اسبوعين مرة.

- سأحاول.

- هذا وعد يا رجب!

- سأكتب دائماً، لن أقول لك كل أسبوع أو أسبوعين، لكن سأكتب عندما أكون قادراً.

- قادراً؟

- اذا رأيت ان في الكتابة راحة. اما اذا لم اكتب فمعنى ذلك اني ابحث عن الراحة، أطاردها ولن يكون لدي وقت لكي اكتب!

- معنى هذا ان اتعذب وانتظر. اذا انقطعت رسائلك فسوف اعرف انك في حالة صعبة، وعلى فوق ذلك ان انتظروا! أليس كذلك؟

- رحلة صغيرة يا أنيسة، ولا أعرف لماذا نحب ان نتحدث بهذه الطريقة عن الرسائل والفراق والعذاب. ألم تعوددي علي؟ ألم يعودك السجن كيف يجب أن تصبري وتحلمي؟

- ولكن انتهت أيام السجن، وحتى عندما كنت سجيناً كنت أحسك قريباً... اما الآن!...

- السجن يا أنيسة في داخل الانسان، أتمنى ألا أحمل سجلي أينما ذهبت، اد مجرد تصور هذا عذاب يدفع بالانسان الى الانتحار!

تنحني حامد، ليشعرنا انه اقرب. كان يحس بغريزته ان لحظات مثل هذا تجعلنا اقرب الى الحلم، وكان يحرص أن يترك لنا الاستمتاع أو العذاب، دون ان يتدخل.. ان الرجل الغريب، أياً كان، زوجاً أو صديقاً، تبقى بينه وبين الايام البعيدة سدود من الغيوم السوداء، الايام التي كونت طفولتنا وحياتنا الأولى، ولا يستطيع ان يخترقها إلا بعد فترة طويلة من الحياة المشتركة والعذاب، حتى اذ صارت ماضياً، اتسعت آفاق الرؤية وبانت الحياة كلها وكأنها مقاطع من الحجار الصلبة المتداخلة.

تنهت وحامد يدخل. كان وجهه متعباً من أثر النوم القلق، ترك أصابعه تنخلل شعره، بطريقة عصبية محرجة قال:

- أحلام الليل أقسى من عذاب النهار!

جلس حامد، لم نسأله ولم يتكلم. اخرجته الصمت، نظر اليّ طويلاً وفي عينيه ذلك التساؤل الممض والذي يحمل لوماً أكثر من التساؤل، حتى إذا رأي لا تحرك، قال:

- وأنا..؟ أين قهوتي؟

انتفضت، اغمضت عيني أكثر من مرة، كأي أفيق من حلم، لما رأيت حامد يبتسم، ابتسمت له ونهضت!

انقضت الفترة الباقية كما ينقضي حلم لذيد...

عند السابعة، وضع رجب الحقيبة الكبيرة عند الباب من الداخل، وعلق الحقيبة الصغيرة في كتفه أول الأمر، ثم تركها تسقط وبدأ يدور في البيت ليلقي عليه آخر نظراته.

كان يدور بحركة أقرب الى من يفتش عن شيء ضائع. كان يخرج من غرفة لأخرى، ينظر الى الجدران، الى النوافذ، الى وجوهنا. كانت نظراته متسائلة. لم يكن يتكلم، لم يكن يتذكر، كان يبحث، ولا يريد معونة من أي نوع، حتى قال له حامد:

- لم يبق لنا وقت، يجب ان نتحرك.

انتفض، هجم على الصغار مثل ديك مبلول، حمل رامز وليلى على صدره، قبلهما بجنون كأنه لن يراهما بعد اليوم، وظل ينقل نظراته بينهما يريد ان يشرب وجهيهما، حتى اذا احس بجسم عادل وخالد يحتكان به قرفص، وضع رامز وليلى على ساقيه، تاركاً لهما أن يتشبثا بعنقه، وأمسك خالد من كتفيه، وهزه محاولاً أن يمنحه قوة أو أن يدمره، ثم التفت الى عادل وضربه في بطنه.. وقال له بلهجة امرأة:

- لن تكذب بعد اليوم.. اذا سألك احد عني فستقول انه سافر.. وأكون قد سافرت بالفعل، أليس كذلك؟

وهز عادل رأسه دلالة الموافقة ولم يتكلم. اما خالد فظل يدور حوله كأنه يراه لأول مرة.

وددت لو تنتهي الحياة في هذه اللحظة. شعرت بالحزن كبيراً كثيفاً مثل يد

قاسية تنزع أمعائي، ولكنني صممت ان ابقى قوية، كنت أريد لرجب ان يتذكر وجوهنا الضاحكة، لتكون له زاداً في الغربة. اما حامد فكان وهو يرقب المشهد، راضياً ومخرجاً في نفس الوقت.

قال حامد يخاطب رجب من خلال الصغار:

- اتركوا خالكم يا اولاد.. لا تؤخروه.

ظللت الوحيدة التي يجب ان يفعل رجب شيئاً من أجلها. هل يهز يدي وينسحب بسرعة لكي ينقذ نفسه، هل أركض الى غرفتي ولا أرى في عينيه دمعة محبوسة يخاف أن تنطلق في اللحظة الاخيرة؟.

ثميت لو ان امي تراه للحظة واحدة ثم تموت. لو كانت موجودة الآن لحملت عنا اللحظة الثقيلة المشحونة بالخطر، لجئتنا الدموع وآلاف المشاعر المضغوطة، والتي تتجمع في سيول صغيرة، لتصب في تلك النقطة الضعيفة.

لقد رحلت حين كان يجب ان تبقى. رحلت دون عودة، وهي الآن ترقبنا، ترقب أيدينا، عيوننا، لهائنا، خفقات قلوبنا، ترقب لتعرف كيف تنصرف، كيف نواجه لحظات ضعفنا المدمرة، كانت لا تحب أن تبكي امامه. أوصتني آلاف المرات أن أحبس دموعي، حتى لو اختنقت ولا أبكي امامه. كانت تقول «البكاء يهد أكبر الرجال، وأقصى ضربة توجه لرجل ان يرى امه أو اخته تبكي امامه». لن أبكي الآن.. لن أبكي. سادفن وجهي في صدره وأقبله، وبعد ان يغيب سأكبي، سأبكي وحدي، لن اترك له في غربته ذكرى دموعي، وكأنها نجوم سوداء تتساقط عليه لتضغط على قلبه. سأضحك، لكن فكّي لا يطاوعاني، أحسها ثقيلين متصلبين، سأبتسم، الانسان يستطيع ان يبتسم، والابتسامة ارادة حتى لو كانت حزينة!

التقط رجب الحقيبة مثل قط.. وبسرعة لم افطن لها سحجني من يدي الى الغرفة القريبة. تصورت الدفتر الأسود والأوراق.. كان رجب يفكر طوال الوقت، كان يصارع ولكنه في النهاية قرر شيئاً!

دخلت وراءه وبذلك الرشاقة الخائفة المضمحلة من ذاكرتي، والتي نسيتهما لفرط ما ابتعد بها الزمن، رأيت يد رجب تدخل الى جيبه. كنت أنتظر شيئاً. ماذا خبأ في هذه الساعة الاخيرة؟ وأي حزن ستولدها هديته؟.

بيد مرتجفة اعطاني مغلفاً مفتوحاً.. قال لي قبل ان اقرأ الكلمات المكتوبة على ظهره:

- ما زلت متردداً هل أعطيك الأوراق كلها أم لا.. هل أترك هذه الآن؟. كان يريد أن يسأل. ان يتكلم، لكن عيون الصغار وحامد المترصدة، قطعت عليه كل شيء...

قلت له احاول تخليصه، من الاحراج:

- اتركه كله لي، وسوف أفعل الشيء المناسب.

وباستسلام يائس خفض عينيه. لم تنته المأساة بعد، ما زال يصارع نفسه: الأوراق، الدفتر.

قلت والرغبة تسيطر عليّ في أن يبقي الأوراق عندي:

- اعطني الأوراق يا رجب، سأحتفظ بها حتى تعود!

ان اقوى الناس واكثرهم قدرة على التصرف، يفقدون في لحظات معينة قدرتهم على ان يتصرفوا منفردين. يجب ان يكون احد الى جانبهم لكي يقول لهم ما يجب ان يفعلوا. رأيت رجب ينحني على الحقيبة، وبمراة يسحب الدفتر والأوراق ويضعها بكلتا يديه على كفّي المفتوحين. ودون ان التفت الى الباب المفتوح والى النظرات المنصبة علي، رفعت طرف الفراش، مثلما فعلت امي تماماً قبل أكثر من خمس سنين، ووضعتها هناك، وضعتها بصمت دون كلمة، ولكن بخوف أيضاً.

الخطوة الأخيرة قبل الرحيل.. دفعني بيد رقيقة امامه، حتى اذا أصبحنا عند الباب، قبلني، قبل شعري، وقبل وجنتي. كان لا يريد أن يتركني. وأنا كنت استجيب له ولا أفعل إلا تلك الحركات الصغيرة، والتي تشبه ردود الفعل لحركاته.

ثميت لو أتلاشي. كنت اختنق بدموعي، وأتعذب. لو أن دمعة واحدة انفجرت الى الخارج لجعلت روحي تنفس وتحاول ان تتملى منه قبل أن يرحل، لكن كنت مسلوية، اجاهد مثل حيوان مخنوق لكي التقط الهواء.

لما خرج، كانت امطار بداية الشتاء الصغيرة الناعمة تنزلني بهدوء اخرس على اوراق الشجر. وكانت الأقدام على ممشى الحديقة، تترك علامات حزينة باهتة.. ظل الأولاد يركضون وراءهما، حتى غابا في الشارع.. اما أنا فقد ظللت عند الباب التقط بقلبي صورته التي بدأت تغيب.. وبدأت أبكي!

- أريد أن أنسى . ان أتوقف نهائياً عن استعادة تلك الايام البائسة . الذكرى حيوان قارض، حيوان يزحف في الدماء، وأنت أيها الحيوان ألا تخاف من دمائي الملوثة؟ أقول لك كصديق: الدماء التي احملها الآن في عروقي يفتتها الروماتيزم، لا تغرق في هذه الدماء، فتش عن غيرها. . أسمع ما أقول لك؟ .

انا الآن املك جسدي، استطيع ان القيه في البحر، لا أحد له سلطان عليه مثلي، كانوا يستطيعون ذلك، فعلوا اشياء كثيرة، لكنهم الآن لا يستطيعون، أصبحت بعيداً، في كل ثانية ابتعد، أنجو، وحتى لو أرادوا الآن أن يفعلوا شيئاً، فلن يكون أمامهم إلا طريقة واحدة: أن يطلقوا عليّ الرصاص، وحتى لو أرادوا ذلك فيجب ان يفعلوا ذلك من بعد ، لن امكنهم أبداً ان يلمسوا جسدي مرة أخرى... اهتزي يا اشيلوس وابتعدي.. أنا ابتعد، ابتعد!

هل يمكن أن أتصالح مع نفسي بشكل ما؟ أريد أن أتفق مع هذه النفس، أعرف أن كل شيء فيّ خبا، تمزق، لكن يمكن للانسان ان يعقد صلحاً مع أيامه الاخيرة، هذا ما أريد الوصول له .

الباحرة، منذ ثلاثة أيام، توفر لي جواً من الحرية، لكنها حرة لا تصل حدود ان أغني، تمنيت امس أن أغني بأعلى صوتي، كان المهاجرون يغنون أغنيات حزينة، كانوا يغنون ويتوعدون القدر بأن يعودوا. كنت أريد الغناء دون أن أتوعد أحداً. لم يبق احد إلا وغنى. لماذا تركت نفسي تذوي وراء السارية ولم أغن؟ الآن استطيع، الايام الخمسة الباقية تتيح لي الغناء طوال الليل. كانت أغنياتهم تهدر.. كانت تختلط بالدماء، بالصراخ، كانوا يحبون ان يقوموا بالعمل، وصوت آلة التسجيل يمزق الصمت الثقيل!

كيف ادعو الناس لكي يخرجوا الى ظهر الباحرة ويسمعوا غنائي؟ حصل الامر صدفة، الشمس هي التي ولدت فيهم رغبة الغناء.. كانت الشمس خريفية دافئة وحزينة، كان الرجال والنساء على ظهر الباحرة، ناحية المؤخرة، وفجأة بدأ الغناء.

العرب الذاهبون الى فتزويلا والأرغواي.. والى اماكن بعيدة لم يسمع احد باسمها، غنوا. كانت أغنياتهم حزينة، تحمل مرارة الملح الذي فسد.. والملح اذا فسد لا يمكن ان يصلحه احد. ولم يغن العرب وحدهم، غنى ثوار المناطق الفقيرة المغتصبة. غنى مكسيكي وهو يعزف على قيثارة. وفي وحدة عاطفية شديدة البوح، غنى هندي وباكستاني معاً هل كانا يعبران عن شيء ما؟ أكانا يعرفان بعضها قبل

اهتزي اشيلوس. اهتزي اكثر، تحولي الى حوت، اذا أصبحت حوتاً، انتفضي فجأة، اقلبي البشر، وعندما يطفون حواليك موق، ممسوخى الوجوه، التقطهم واحداً بعد آخر: ازدردي المخلوقات التائهة، والذكريات، ولحظات السقوط، أسمع اشيلوس ما أقوله لك؟ يجب أن تسمعي كل الكلمات، اذا سمعتها جيداً سيزول الندم، ستقتضي لحظة التردد، وتفعلين..

اشيلوس باخرة الركاب اليونانية تبحر الآن عبر المتوسط، اذا انقطع المطر، وظل البحر مثلما هو الآن، غاضباً كرجل وقور، فعند الغروب سنصل الى البيرية، البيرية أول خصلة من ارض اليونان، لن أتوقف فيها أكثر مما تتوقف الباحرة، لا أريد يونان معذبة، سأحبي رجالها من بعيد، وأواصل الرحيل، قالوا ان الحرية في أرض أخرى، أبعد من اليونان، يمكن ان يعيش فيها الانسان أيامه دون أن يوقظه عند الفجر صوت المخبرين وضربات أحذيتهم.. سأرحل الى تلك البلاد.

اشيلوس، كفي عن الدعابة السمجة، اهتزي كما أقول لك، اهتزي مثل راقصة شرقية عذبتها ذكرى أيام الجوع، وتريد بأردافها أن تضرب العالم، ان تنتقم! هل تريد ان أقول لك كل شيء يا اشيلوس؟ لا تلعي هذه اللعبة، لا تفكري ان نخون بعضنا.. بقيت لي خمسة أيام يا اشيلوس، سأشد على الدرابزون كأخر تحية يمكن ان يوجهها اليك انسان راحل، لن يراك مرة أخرى!

امس في شمس خريفية كابية كنت أضرب الحاجز على ظهر اشيلوس، وأقول لنفسي بصوت عال، يمكن ان يسمعه انسان على مسافة أمتار! لم اكن خائفاً، ربما لأول مرة في حياتي لا اشعر بالخوف. قلت لشيء ما، للبحر، للحاجز، للشمس، لا بهم لمن قلت!

الغناء؟ وهل عرفا نفسيهما أكثر بعد ان غنياً معاً.

كنت أقف وراء السارية، ورغبة الغناء في حلقي مثل دمل أريده أن ينفق،
لكن لذة العذاب، غير المقدسة، جعلت السارية كبيرة مثل اشباحهم وقررت أن
أصمت. الصمت دواء، تعلمت ان اخرج هذا الدواء في كل الاوقات، وكنت أشفى!

هذا القدر من الحرية، فوق اشيلوس الهادرة في الليل والنهار، يكفيني زاداً
لسنين. اشيلوس يا صديقتي.. يا صديقتي، انت لم نري السجن، لو رأيته يوماً لتغير
صوتك، كانوا يريدون صوتاً، مجرد صوت، يصرخون: «قل كلمة يا ابن الفحبة»..
واصمت، لا أقول شيئاً.. ويضربون. لو عرفت السجن يا اشيلوس لتعلمت كيف
تصمتين. لو توقفت صوتك دفعة واحدة، فإن الرعب سيصلهم، سيموتون. «قل أي
شيء يا ابن العاهرة، اشم.. أما أن تظل صامتاً مثل الجدار، فسوف تغرق في البول
حتى تموت». ولا أجد شيئاً، أي شيء لأقوله، وأصمت.

سأنظم لك اشعاراً يا اشيلوس، وأريد أن أغني. لا أحد الآن على ظهر
الباحرة، إنهم يتكلمون في الصلاة وفي البار. يتعودون على الأيام القادمة تماماً مثلما
تعودت على أيام ماضية.. هكذا بدأت المسألة..

بدأت المسألة أول الأمر في الهواء الى جانب حقول القمح أو تحت ظلال
الاشجار، كانت تترافق الكلمات مع الشنائم والضحكات، ثم أصبحت الكلمات لا
تقال إلا في الغرف المغلقة المليئة بالدخان، كانت كلمات تمتلئ بمقدار مجنون من الثقة
والدخان، حتى أصبحت في النهاية همساً من تحت الأبواب أو دقات على الجدران.

الانسان يتعلم.. وأنت يا اشيلوس تريدان أن تعلمي البشر، احصرهم في
الصلاة والبار لتمتلئ رئاتهم بالدخان والكلمات.. في البيري سينزل قسم من البشر،
وبعد ساعات يرسل الآخرون على ظهر الماء الى مكان آخر، ثم الى مكان ثالث.

لو تابعت الكتابة، لو وضعت لعيني حواجز مثل تلك التي يضعونها للبالغ كي
لا تضل، لو غنيت أو صرخت.. هل ترصين يا اشيلوس؟ ولكن من أنت أينما
الخنزيرة المساء كي استجديك؟

كانت لهم شعور طويلة، فوق أيديهم حتى الأصابع، وكانت لهم شعور في
صدورهم، أما رؤوسهم فقد تعودت أن تترك لشعورهم الحرية في أن تنزلق، ساعات
الغضب.

«ألا تعرف اين ذهب نجم؟ خد، خد». الزيد يتطاير حول أفواههم كما يتطاير
حولك يا اشيلوس. العيون تنتفخ من الدهشة والغضب. «يجب ان نتكلم يا قواد»..
سأعلمك كيف تقول كل شيء. لن تعيش هذه المرة! كان جسدي يرتعش،
يتمزق، يتحول الى كلب لا يتوقف عواؤه.. «والآن ماذا تقول؟ ألا تعرف اين
نجم؟».

قل لهم شيئاً يا رجب، اكذب عليهم، لا لن أقول كلمة واحدة. اصرخ وقد
احتقن وجهي واحس عيني تخرجان: «اسألوني عن نفسي يا كلاب».

«أخيراً بدأت تتكلم.. من أنت يا م^(١).. حتى نسألك عن نفسك، نريد
هادي، نريد نجم، اين يختبئ هادي، قل لنا يا ابن الفحبة!« واصمت. لو عرفت
السجن يا اشيلوس يوماً واحداً، لعرفت الصمت، لتحولت الى صوت يتنفخ في
الشمس ويأكل الحشرات التي تحوم فوقه.. سيأتي يوم نقفين في ميناء مهجور مثل
سجين قال كل ما عنده، ولم يكتف احد. سيغادر كل شيء، حتى الجرذان، واذا
هب ربح تميلين على هذا الكتف، ذاك الكتف وتغرقين.. لم يتركوا لك فرصة لكي
تغرق في البحر الكبير، في اعماق المياه الخضراء، سوف يجرونك حتى تصلين الى ميناء
مهجور، وهناك يجردونك من ثيابك، من الذكريات، ويتركونك وحدك تموتين.. لا
تنسي ما أقوله لك يا اشيلوس!

آه.. ما ألد أن يموت الانسان وهو قوي. كانوا خائفين لدرجة الرعب عندما
مات هادي، لم يصرخوا في وجوهنا مثلما كانوا يفعلون. صمتوا.. نحن الذين
سألناهم. صرخ زيد في وجوههم: «اين هادي أيها القتل؟ لا تظنوا ان دم هادي
يذهب دون ثمن». لم يقولوا شيئاً.. ظلوا ينظرون الينا بصمت والخوف يمزق
احشاءهم.

ظلوا خائفين فترة طويلة.. كنا نسمع أصواتهم الخائفة، خطواتهم وهي تنتقل
يحذر.. لماذا يخافون ما دام هادي قد مات؟ وهل يخاف القاتل لهذه الدرجة؟ كان
هادي قوياً وكبيراً. كانوا يخافون منه في كل وقت.

كان يضحك مثل طفل وهو يقول لنا: «لا تخافوا منهم أبداً. انهم أنذال،
وضعاء كلهم وجبناء.. كانوا يقولون: اعترف يا هادي ولا أحد يمد يده عليك، قل

(١) كلمة قبيحة.

من معك يا هادي وثمن الاعتراف الحرية، يجب ان تعترف» ولا يسمعون مني كلمة واحدة.

لما تعبوا من هذا الأسلوب، بدأوا يجربون أساليبهم الأخرى: السجائر الأجنبية، فناجين الشاي، المعاملة الجيدة... وبعد اسبوع: ماذا تقول يا هادي، هل حان الوقت الذي تقول لنا فيه كلمتين وتخرج؟ وأصمت...

وتعبوا ايضاً... وبعد ذلك هل تعرفون ماذا حصل؟ الانسان أيها الأصدقاء، أقوى من الصخر، يحتمل كل شيء... جربوا الضرب، التعليق، الكهرباء، جربوا المنفردة والمرحاض، جربوا الأضواء وأصوات التعذيب والغناء... وأقول لهم: لن تصلوا يا أنذال إلى ظفر هادي ولن تظفروا بشيء!

كان صمته يعذبهم. وتعلمنا الدرس قبل أن يقبضوا علينا!

من أين جاءت هذه الطفلة؟ لها وجه الاطفال وجرائهم، وفيها عنادهم، قالت لي أمس ونحن نتكىء على حاجز السفينة، بعد أن انتهى الغناء:

- انت من بلدة... اليس كذلك؟

قلت لها أدعها، ولم احس انها انثى كبيرة، الا بعد ان رفعت صدرها عن الحاجز:

- كيف عرفت؟

- عرفت!

- ولكن كيف؟

- الشكل لا يخفى، قدرت، وأنت، الآن، تؤكد!

- لم أقل شيئاً!

- ولكن من طريقة السؤال، من الكلمات، عرفت اني لم اخطئ!

هكذا بدأ بيننا الحوار امس. لم أرها قبل ذلك، ومنذ ساعات وأنا أنجب الصعود الى الصالة لكي لا أراها. لا أفكر الآن بأي شيء، ولم أعد أحب أن أتحدث مع انسان. قال الرجل الذي انضم إلينا بسرعة، بعد ان عرف اننا من نفس بلدة، وهو يضغط على حروف الكلمات لتبدو واضحة:

- الذي لا يعرف لغة اجنبية ويسافر وحيداً يكون مثل الضائع.

قال الكلمات وظل واقفاً الى جانبنا، كأنه يريد رداً على كلمات ليس لها رد. قلت له لكي أوفر على الصغيرة:

- الى اين تسافر؟

- الى ايطاليا!

- لفترة طويلة؟

- شهر! وأنتها؟

- أنا أسافر الى فرنسا، ولفترة طويلة!

- وأنت؟

- الى بريطانيا... للدراسة!

عرفت اذن انها تسافر الى بريطانيا، وأنها طالبة، لم أسألها من قبل، وبعد ذلك تحدثنا مثل طيور عصبية، عن البحر والغناء والسفر. كان البحر في بداية الغضب، قلنا ذلك. وكان الغناء قد انتهى، قلنا كان الغناء رائعاً... أما السفر، فقد بدأنا نتحدث، لما وقف الرجل الى جانبنا، ودون أن نسأله تبرع وقال كل شيء:

- حظي جيد. اغلب المرات التي سافرت فيها، يسر لي الله اناساً طيبين، شباباً يعرفون اللغات، وقضينا في الباخرة وفي ايطاليا فترات جيدة، السفر للذي يسافر أول مرة صعب، لا يعرف الانسان كيف يتصرف، والطليلان، اذا رأوا واحداً لا يعرف لغتهم، سرقوه، ضحكوا عليه... انهم خبيثاء!

قالت له الطفلة التي لم أعرف اسمها أبداً:

- سافرت كثيراً واصبحت تعرف كل شيء!

- لكن اللغة، اللغة يا آنسة مصيبة كبيرة.

- ألم تتعلم شيئاً من السفر؟

- كلمات، أقل من عشر كلمات: مرحباً، شكراً، مع السلامة... مثل هذه الكلمات.

- ولكنني لا أعرف اللغة الإيطالية!

- المهم لغة أجنبية، أية لغة، العربية بعد بيروت لا تفيد شيئاً، حتى هؤلاء اليونانيون الذين قضوا فترة طويلة في مصر، ويعرفون اللغة العربية، لا يحبون ان يتحدثوا بها بعد أن تغادر الباخرة بيروت!

تركتهما يتكلمان. بدأ يتحدث عن إيطاليا، عن الطبيعة الجميلة والشوارع، واتذكر ان آخر كلمات سمعتها وأنا أبعد:

- اذا رغبت يا آنسة، فسوف يكون لي الشرف ان اطلعك...

وذابت الكلمة في الهواء قبل أن تصل اذني، ليس لدي شيء يمكن أن أقوله هذه الطفلة، ساكون مضجراً لدرجة الألم. لماذا أخرج الى الصالة؟ لماذا أفسد عليها الأفكار المضيفة التي تشتعل في رأسها وهما يتجولان في روما... أو في أماكن أخرى! اذا رأتني على ظهر الباخرة وسألتي، فماذا أقول لها؟ أشيلوس أنت لا تسألين، تسمعين ولا تحيين. لقد امتلات روعي بالأسئلة حتى لا أطيق الآن أن يسألني احد. لا أعرف شيئاً ولا أريد أن أعرف أي شيء!

ولكن بعد إيطاليا سنقضي يومين وثلاثة أيام، كيف أواجه هذه المرأة الطفلة بعد أن تتدرب على يد هذا المثاق الجاحم؟ يمكن أن أرابط في غرفتي أطول فترة. يمكن ان تجنب لقاءها، ويمكن أن أظل صامتاً كما فعلت من قبل. ولن تتعب لتجد صديقاً. الجميع يفتشون عن أصدقاء. انا الوحيد الذي لا أريد. يكفي ما رأيت وما عرفت. الآن أشيلوس، الحديد الصلب، الخشب المثقل بالملوحة والمطر، الزبد المتطاير، الايام الصعبة التي تنتظر عندما تموتين، يا أشيلوس، حين تهزم اركانك وتتداعى، أي مصير سيواجهك؟ أشيلوس وحدها التي أريد أن أتحدث معها، ووحدها يمكن أن تسمعي... أشيلوس تسمع ولا تسأل!

«دون أن نسألك. احك كل شيء، يجب ان تعترف، الأفضل أن تعترف. لماذا تصمت مثل النعجة؟ هل أنت خائفة؟ كما قلت لك اذا اعترفت لا أحد يمد يده، اما اذا لم تعترف الآن فسوف اجعلك تعترف مثل كلب. أتعرف كيف يعوي الكلب، ستعوي اكثر منه».

قلت لهم وقلبي يرتجف:

- ماذا تريدون أن أقول؟.

- ابدأ من يوم ما جئت من... (١) امك.

- تعرفون كل شيء عني!

- تريد أن نسمع منك.

- اسألوا.

- امرك يا بك، سوف نسأل وأنت تحيب، لكن اذا كذبت بكلمة واحدة، فلا تلم إلا نفسك.

كان يوم اثنين، أول يوم بعد عيد الفطر. قبضوا عليّ قبل نهاية دوام يوم الخميس. كانوا يترაკضون، لم ينظروا إليّ طويلاً، قال نوري وهو يصرخ مثل ثور:

- هذا بعهدتك، جديد، وأريدك أن تعتني به!

امسك بي حاتم، آمر الحرس، مثل قط أجرب. امسك بكتفي وقال بلهجة امرأة:

- افتح السرداب يا عبد.

دفعني امامه. صرخت بتحد:

- أنا مريض بالقلب، ولا أستطيع ان انزل الى القبو!

اتذكر اني رأيت الباب يفتح، ثم رأيت بقعة الدم وقد غطت مساحة واسعة من أرض القبو. لا أعرف كيف نزلت الدرجات العشر. حصل ذلك في لمح البصر، ضربني حاتم على وجهي بظهر يده، وفي اللحظة التالية احسست برجل تضربني على ظهري، وأهوي، لم يدم ذلك وقتاً طويلاً، حصل بسرعة!

كان القبو صغيراً لدرجة ان ثلاثة اشخاص لا يمكن ان يناموا فيه، اما الجدران والسقف، فقد كانت متقاربة لزجة، والنافذة الصغيرة، والتي تشبه شقاً، كانت تستقبل ضوءاً باهتاً، ينزلق اليها من ارض الحوش.

ما أن افقت من الصدمة الأولى، حتى بدأت أصرخ. شتت، قلت بأعلى صوتي: أيها الأندال. انفتح باب القبو. كان الضوء في الخارج زاهياً فواحاً، وكان طلاء الجدار المواجه، له صفرة لذيذة. فرحت لما رأيت الباب يفتح. لقد استجابوا

لصراخي، ولن يقولوا شيئاً لسجين اضطرتهم المعاملة القاسية لأن يشتم.

قال لي رجل لم استطع أن أتبين وجهه، لأن الضوء وراءه كان يطنى ويعطيه ظلاً أسود:

- اخرس يا ابن الكلب، وإذا سمعت صوتك مرة أخرى يا ابن الفجبة العن اجداد اجدادك؟

اي شيطان حرك لساني في تلك اللحظة؟ أية افكار دارت في رأسي؟ لا أدري. قلت له بصوت أردته ان يكون صلباً:

- انا مريض، ولن أبقي في القبو!

- مريض.. سوف تشفى الآن.

اوفعني خرطوم الماء المندفع من أعلى. وخلال فترة قصيرة كنت أعوم في بركة من المياه، وذهبت كلماتي التي حاولت ان تكون قاسية، في جوف المياه المتدفقة، حتى اذا تعب قال:

- هذه المرة ماء، اذا سمعت صوتك مرة أخرى اغرقتك في البول!

لم أنم.. ظللت طوال الليل ارتجف، حاولت كثيراً، فكرت كثيراً بطرق لا حصر لها من أجل أن أتخلص من الماء، لكن ذهبت محاولتي وأفكاري دون جدوى. فتحتوا لي الباب في اليوم التالي. خرجت لفترة، دقوا على باب المرحاض مرتين أو ثلاثاً، ولم أستطع أن أفعل شيئاً. شعرت بحقد لا يوصف، بصقت على أرض المرحاض مرات كثيرة، لكن الألم في رأسي كان قوياً لدرجة اني لم أستطع أن أفكر. لما رجعت رأيت رغيفاً من الخبز وقطعة صغيرة لا تزيد على قطعة نقود معدنية من الجبن، كنت جائعاً، لم أندوق شيئاً، منذ صباح اليوم السابق.

كنت أريد النوم، بعد أن شبع. كان طعم الخبز لذيذاً، أكلت على مهل وقد جعلت قطعة الجبن آخر شيء أضعه في فمي. بدا لي النوم، في تلك اللحظة، أجمل لذة يمكن لانسان أن يمارسها. وقفت في الزاوية، احاول أن استند الى الجدار وأنام، ولكن رجلي وهما تلامسان الماء البارد، جعلتنا النوم مستحيلاً. رفعت ساقاً وتركت الأخرى في الماء، بدلت ساقاً بالثانية، ولكن النوم كان لا يأتي!

لا أعرف كيف خطرت لي فكرة وجود مصرف للمياه. بدأت أتلمس الأرض

شبراً شبراً، لعلني أجد ذلك المصرف اللعين، بدت الأرض صلبة متجانسة لدرجة ان قطرة ماء واحدة لا يمكن أن تنفذ. فكرت ان أصرخ، ان استغيث، قدرت ان الحارس الآن لن يكون هو نفسه الذي وجه لي خراطيم الماء... قلت في نفسي: لا يمكن أن يكونوا جميعهم قساة بنفس الدرجة، وهذا الحارس الذي الملح حذاءه بين فترة وأخرى، من الشق المستطيل الملصق بالسقف، لا بد وأن يكون احسن من ذلك.

لا يمكن أن يشق الصراخ طريقي لقلوب هؤلاء الرجال. يجب أن أدق باب القبو بهدوء، حتى اذا اقتربوا مني، اذا سألوني، رجوتهم أن يخلصوني من الماء، لكي أنام ساعة واحدة. كانت ساعة واحدة تكفي. قلت لنفسي بتصميم: لا يمكن أن أرجو أحداً، سأجلس على درجة من درجات القبو وأنام. لمت نفسي كثيراً لأنني لم أفكر بهذا الأمر من قبل، وصممت ألا أترك شيئاً إلا وأفكر فيه.

بدأت من أولى الدرجات، كانت ضيقة، صغيرة، لا تتيح للانسان أن يجلس، وكانت حوافها محطمة في اكثر من موضع، حتى ان تفكيري قادني الى أن هذه الدرجات حطمت بشكل مقصود لكي لا ينام عليها أحد!

بدأت بالدرجة الأولى.. كانت اكثر الدرجات ضيقاً. تركتها ونزلت الى الثانية، كان احد جوانب الثانية مكسوراً بحيث لا يمكن الجلوس عليها ابدأ، اما الثالثة فكانت مريحة للغاية. جلست فوقها، كانت لا تتسع لي إلا اذا جلست، لو حاولت أن أنام يجب ان أمد رجلي لكي تتجاوز درجتين أو ثلاثاً.. مددت رجلي، شعرت بألم في ظهري، شعرت بألم رأسي يزداد، تركت رأسي يرتاح على الدرجة العليا، استدرت لأنام على جنبي، استدرت الى الناحية الثانية. كان السقف، أو الظلام يغطي كل شيء، حتى ان فكرة الموت طغت علي لدرجة لم أستطع أن أنام. طردت الافكار، وحاولت من جديد. قلت بتصميم لا حدود له: لا يوجد غير هذا المكان ويجب أن أنام. أغمضت عيني، لكن فكرة أن أتخلص من المياه عاودتني من جديد. وفكرت في البحث عن مصرف، أو الدق على الباب، وفكرت بالصراخ. ثم فكرت ان اقول للحارس كلمات حلوة، وأذكره بالعيد لعله يرق لي ويساعدني.. وطردت كل الافكار. قلت وأنا أحاصر الألم الذي احسه ينبع في كل مكان من جسدي: انت يا رجب لا تزال في يومك الأول، لم تر شيئاً، فإذا بدأت تضعف منذ الآن، فسوف تسقط مثل جيفة. اصمد. تحمل.. ورفاقت ألم ينزلوا قبلك الى هذا القبو؟ ألم يتحملوا ويناموا، ثم خرجوا أقوياء؟ ولكن كيف يستطيع الانسان أن ينام؟ أين؟

أه... ما أشد روعة ادراج القبو! استغرب الآن كيف ترددت في أن أنام عليها.
هل كنت أحمق هذه الدرجة؟ وهل يريد الانسان مكاناً أفضل من تلك الادراج لكي
ينام؟

بدأت الضجة منذ وقت مبكر صباح الاثنين. سمعت أصوات البشر ووقع
اقدامهم الكثيرة. كنت أرْتَجِف من الخوف، كنت اتابع الخطوات حتى تبتعد. تصورت
كل خطوة تضغط على اعصابي، تناديني. حاولت أن أجسد في رأسي اشكالاً للبشر
من خطواتهم: هذه خطوات رجل ثقيل، هذه لرجل نحيف، هذه لشرطي، وإلا لماذا
تبدو ثقيلة بليدة هكذا؟ وهذه ليست خطوات الضابط؟ ولكن الضباط لا يمشون قريباً
من القبو، لا يقتربون منه، تكفي إشارة صغيرة لكي ينتقل كل شيء عندهم... وهذه
الخطوات لماذا تبدو بطيئة متعثرة؟ موقوف؟ وهل بدأوا في هذا الوقت المبكر؟

ان هؤلاء البشر عالمهم الخاص. يجب ألا أتدخل، لأتركهم، لاكتشف كل
شيء بنفسني، أما التفكير فيجب ان اوفر كل ذرة من اجل ان اظل متماسكاً، ان
اجيب عن الأسئلة دون خوف. وهل يسأل هؤلاء الناس؟ هل يتكلمون مثل باقي
المخلوقات؟

في احدى الجلسات قال هادي، وهو ينظر في وجوهنا بصرامة:

- يجب ان تعرفوا منذ البداية، الطريق طويل وصعب، من يجد نفسه غير قادر
فليقل الآن، لن نلوم احداً اذا تخلى الآن، اما بعد التوقيف والسجن، فأني اعترف،
أي انهيار، سوف يجعل من المعترف والمنهار خائناً... أتسمعون ما أقول لكم؟

خرجت الكلمات من أفواهنا صلية. ظننا ان هادي لا يثق بنا بالمقدار الكافي.
كنا نريد ان نبرهن له كيف نكون رجالاً، لا نعترف ولا ننهار. لم يستمع الى الكلمات
التي قلناها، اكتسب وجهه حزناً خفيفاً وهو يقول:

- الآن لا نستطيع ان نحكم على احد، السجن هو المحك الوحيد، ولكن ليس
معنى كلامي ان نحوم حول السجن مثلما نحوم الفراشات حول النار... لا... السجن
آخر شيء يجب أن يقع لأي واحد منكم، احذروا كثيراً، اعملوا كل شيء من أجل
أن لا تقعوا في ايدي البوليس... واذا وقع الانسان فيجب ان يثبت انه رجل ويعرف
كيف يتحمل!

كان ذلك منذ وقت بعيد، أتذكر ان رجلاً عصفت خارج النافذة، ولا أتذكر ان

كانت ريح الخريف أم ريح الشتاء. وبمجرد مرور هذه الذكرى الآن، احس أن كلمات
هادي لم تكن واضحة بالمقدار الذي يدفع الانسان لأن يقرر في الوقت المناسب. كانت
الرياح أقوى من كلمات هادي وأشد قسوة!

قلت لهم وأنا أتلو من الألم:

- لا أعرف هادي ولم تره عيني!

- تتصور ان ما تعاني منه المأ؟ سوف ترى بعينك كيف تأخذنا وتشير الى البيت
الذي يجنّب فيه، دون أن نسألك... لن يطول صمتك؟

- ولكني لا أعرف إنساناً بهذا الاسم؟

- هذا ليس اسم انسان، انه وحش، أتعرف وحشاً بهذا الاسم؟

- قلت لكم لا أعرف أحداً!

قال لنا هادي ذات مرة، وكنا ثلاثة:

- لا تصدقوا... ان أكبر قوة على الأرض، لا يمكنها ارغام الانسان على
الاعتراف... اقصد اذا أراد الانسان. بعض الناس يموت ولا يعترف. القضية متوقفة
على الارادة، وعلى البداية اذا قرر الانسان أن لا يعترف، اذا صمم، وتحمل لحظات
العذاب الأولى، يصبح كل شيء بعد ذلك سهلاً.

الارادة... كنت أتصور ان بعض الكلمات لا تعني شيئاً أبداً... وأنت يا
أشيلوس الهرة، هل تريدني شيئاً؟ في القمرة البعيدة، في المقدمة، يجلس رجل يتجاوز
الأربعين، له لحية صغيرة رمادية... هو الذي يريد كل شيء... يقول لك اسرعي،
توقفي، انحرفي في هذه الناحية أو تلك، ذاك هو الذي يريد، وأنت ابنتها الرائعة،
ابنتها البقرة الثقيلة، لا تفعلين شيئاً سوى انتظار ان يقول لك.

كنت أتصور ان الجسد يسقط، ينخر، يفقد القدرة على الاحتمال، وكنت
أتصور الانسان اذا وصل الى هذه المرحلة، يجب أن يستسلم... هذا ما تصورته في
البداية، ولذلك كنت امتحن جسدي. ضربت رأسي بالحائط مرات كثيرة، ضربت
ساقاي اليمنى بطرف حذائي الأيسر... سقطت من الألم، تصورت ان ضربة مثل هذه
سوف تدفعني للاعتراف، لكن التعذيب، أمواج البحر، هبات الرياح، هذا العناد
الأخرق الذي تعبر من خلاله الطبيعة عن وجودها... والملاح، الذي يعرف ارتفاع

الأمواج، اتجاه الرياح، ويعرف خرافة الطبيعة، يستطيع ان ينجو، أن يستدير هذه الناحية أو تلك وينجو، لتصبح الطبيعة في النهاية ذكرى حزينة!

الحقيقة كلها أقولها لك ابتها اهرة.

قال لنا هادي، وقد استبد به الغضب لدرجة تصورت انه سيكي:

- قلت لهذا القدر مرات كثيرة ان يسافر، عرفت انه سيضعف ويعترف، وفي كل مرة يتذرع بأوهى الحجج ليبقى. كنا نريده ونخاف منه. كنا نريد ثقافته وقدرته في الكتابة، وكنا نخاف ان يسقط في أيدي البوليس وينهار.

قبل أيام وجهنا له امرأ بالسفر. قال: اعطوني مهلة ثلاثة أيام لكي استعد، قبضوا عليه في اليوم الثاني، وقبل أن يمضي اسبوع، كان توقيعه في الجريدة. لقد تحولت ارادته الى كلمات، وحتى الكلمات كان يتخلص منها بكتابتها على الورق، كان يكتب لنا، والآن يكتب لهم!

- قل لنا أين هادي ولا نريد منك شيئاً آخر.

- ولكي لا أعرف انساناً بهذا الاسم.

- ألا تعرفه...

- لا...

كل شيء في أشيلوس يذكر بتلك الأيام. نزلت أمس الى العنابر. الوقود والمؤن ورجال لا تظهر منهم سوى اشكال غامضة تحرك في الدهاليز نصف المضاءة. كنت أرى وجهي في عيونهم. الغضب. الحقد. الشتائم. هل يحتوي الانسان على هذا المقدار كله من القسوة والشتائم؟

مددوني على طاولة، كنت عارياً تماماً، وجهي باتجاه الأرض، ورأسي يترنح من الضربات، لا أعرف أي عدد من السجائر اطفأوا في ظهري، على رقبتي، داخل اذني وبين البيتي، كانوا يضحكون أول الامر، وأنا أحاول الدفاع عن نفسي بساقي الطليقتين. رفست مرتين أو ثلاث مرات، ولما حاولت في المرة الرابعة حزموا رجلي بقوة، وبدأوا يصرخون: «اعترف... اعترف يا ابن الزنا».

اتذكر اني قلت لهم: لا أعرف شيئاً، ولن أقول لكم يا كلاب!

انهالت علي آلاف الضربات بالكرايبج والأحذية. ضربوني بأحذيتهم على وجهي

المتدلي، قفز واحد منهم فوق كتفي، وكانت يداي مربوطتين وراء ظهري. شعرت ان عظامي تتمزق ورقبتي تسقط مثل خرقة... وصرخت:

- لا أعرف... لا أعرف شيئاً!

ارتفع صوت الغناء، وضعوا عصا غليظة بين البيتي، ضحكوا وأنا أثلوى، بصقوا علي، أحسست بماء ساخن فوق ظهري... هل كانت دمائي تنفجر في مكان ما وتترنح بسخونتها؟ هل كانت قطرات من البول؟ هل كانت شيئاً آخر؟!

«أتصورون ان الانسان اذا قال شيئاً ينتهي الأمر؟ لا، الكلمة الأولى بداية لسلسلة من الاعترافات... وأي تأخر في الاعتراف، في الاجابة، يثيرهم أكثر من الصمت. لا أقول لكم هذا الكلام إلا عن تجربة... جربت نفسي، ورأيت الذين جربوا العكس. الحزمة الأولى وبعدها ينفرط كل شيء!»

قال هادي هذه الكلمات ونحن نتذكر وجه ناجي، بعد أن قرأنا اعترافاته، وكنا نسير الى جانب النهر، كان الصمت فسيحاً مثل حقل لا نهاية له، وكان الخوف ينعقد فوق رؤوسنا ظلاً حزيناً. قلت له ذلك اليوم:

- هل تتصور ان اعتراف سعد الدين كان نتيجة التعذيب؟

- لا أريد التصور. سعد الدين اعترف، واعترافه نتيجة الخوف... الخوف من التعذيب، أو من التعذيب ذاته. عندما يخاف الانسان يفقد السيطرة على نفسه.

- والاعترافات الاخرى... هل ضربوه من أجل أن يحصلوا عليها؟

- اذا بدأت الخيانة لا تنتهي. الشيء له بداية، أما النهاية فلا يعرفها أحد!

- لم أكن أنصور أن سعد سيعترف!

- وقد يأتي يوم يتبين لنا أن سعد الدين لم يضرب، لم يمس.

- أتقصد انه متعاون معهم منذ البداية؟

- فقد ارادة المقاومة. كان يلذ له أن يسأل كل من دخل السجن عن كل شيء، كان يسأل عن أدق التفاصيل وأصغرها. «متى استدعوك أول مرة؟» «كم كان عددهم؟» «ما أشكاهم؟» «هل جلست؟» «نمت؟» «ومتى انتهى التعذيب؟» قبل الفجر أم بعده؟» كانت اسئلة سعد الدين تحيري، لماذا يسأل بهذا الشكل؟ ربما ارتسمت في رأسه الصورة قبل أن يسأله كلمة واحدة، ولكي يتجنب التعذيب قال لهم كل شيء!

- كيف يمكن للانسان ان يعترف حتى قبل ان يضرب؟

- مثلما قلت، الضرب لا يغير ارادة الانسان، وربما كان العكس هو الاصح. بمجرد ما تمتد الي يد امتلىء نصميماً ان لا أقول كلمة واحدة، ومع كل ضربة جديدة ازداد بعداً عن السقوط. الانسان ارادة قبل كل شيء!

- باعوك يا رجب، اعترفوا عليك، لم يتركوا كلمة إلا وقالوها، وأنت الى متى؟ ألا تعترف؟ ألا تنتقم لنفسك؟!

- ليس لدي شيء..

كانت الاغنية تحدث عن القمر. اذكر بعض الكلمات، عندما رأيت يده تمتد الى مفتاح الصوت احسست برجفة تسري في دمي.

هل يخافون أحداً؟ لماذا اذن يرفعون صوت آلة التسجيل؟ وهذه الأغاني التي تحدث عن القمر والبحر، ألا تنتهي؟ لن اسمع هذه الأغاني. سأحطم الراديو دون رحمة اذا سمعتها، لا أطيق.

امس فوق ظهر الباخرة كانوا يغنون بشكل مختلف. كانت أفواههم وهي تصرخ بتلك الأهات، تحمل معنى ألم الانسان. رأيت دموعهم المنحجرة في عيونهم، أما الأغاني التي كانوا يغنونها فإنها تذكر بالعالم السفلي، عالم الدماء والقطط.

ظلمت صامتاً. الاغنية تنموج مثل السياط في دمي. قال لي ببرودة كاوية:

- اخلع ملابسك كلها، كلها، قطعة وراء اخرى، ولا تتأخر!

حاولت مرات كثيرة أن أتمرد. ظلوا ينظرون الي بسخرية، وكانوا يضحكون. ولكن في النهاية تعودت أن استغفرهم. اذا قالوا اخلع ملابسك، اخلعها. اذا قالوا انبطح على وجهك افعل وكأني أقوم بواجب يومي. اذا قالوا اقعد مثل سعدان، كنت أجلس واضعاً يدي حول ركبتي. كان شيء واحد يملاً عقلي في كل وقت: ان اظل جداراً، جداراً صامتاً. أن لا أقول الا ما أريد.

- رجب.. هذه المرة لا نريد أن نضربك، ماذا نقول؟.

- نعودت وليس عندي شيء أقوله!

- ألا تخاف؟.

- انتم تعرفون!.

- والله يا ابن القحبة سأجعلك عبرة، سوف تتكلم هذه المرة.

قالت الطفلة التي رأيتها امس، وهي تستند على الحاجز بجاني:

- كانت الحفلة رائعة.. الغناء والمزمار، ما رأيك؟.

كانت الحفلة تبدأ في الثانية عشرة ليلاً، في الواحدة، وتمتد حتى الخامسة، حتى السادسة. متى ينام هؤلاء الناس؟ هل ينامون فعلاً؟ ولماذا في هذه الأوقات بالذات؟ كانوا يضربون الباب بأرجلهم الثقيلة، يصرخون في الظلمة، وكل دقيقة تأخير، كل كلمة احتجاج، وحتى النظرة كان يقابلها في الطريق عقاب.

- عصبوا عينيه.. وضعوا رأسه في الكيس.

يمكن للانسان ان يحتمل كل شيء. حتى الضربات الناهية التي لا يعرف من أين تأتي، يمكن للجسد أن يتحداها. سقطت مرات كثيرة من الضربات. كنت أظل على الأرض، لكي أتعبهم وهم يرفعونني، كنت أتباطأ اثناء الوقوف لكي أدمر اعصابهم.. وتتوالى الضربات. بالأيدي، بالأحذية، بالعصي. كانوا يضربونني على وجهي، ثم مباشرة على ساقي. يضربونني لكدمات على بطني، فاذا شددت عضلات بطني تحسباً للضربات التي ستأتي، اسمع وشيئاً في اذني، ثم احس لباً ينفجر من خصيتي!

- ألا تعترف؟.

- ماذا تريدونني أن أقول؟.

- قل كل شيء في بطنك يا ابن القحبة!

وأبدأ:

- ١، ٢، ٣، ٤..

وقبل أن أصل الى الخمسة احس الأرض رخوة، وأحسها تدور. كانوا في البداية يتضايقون من أية كلمة أقولها. وقررت أن أصمت. بدأت المح في وجوههم آثار الصمت: دامية مفزعة.

- قل كل شيء.. اصرخ، اشم، أما أن تبقى صامتاً.. فهذا لن نسمح به أبداً.

وضعوني في كيس كبير، ادخلوه في رأسي، وقبل أن يربطوه من أسفل، ادخلوا قطينين . هل يمكن للانسان ان يتحول الى عدو للحيوان؟ والقبط ماذا تريد مني؟ كانت يداي مربوطتين الى الخلف، كنت مستلقياً على وجهي أول الأمر، وكلما ضربوا القبط ويدأت تهشني، وحاولت أن أنقلب على جانبي، أحس برجل ثقيلة فوق كتفي، على وجهي، وأحس الأظافر تنغرز في كل ناحية من جسدي . لما فكوا الكيس، كنت أريد أن أرى القبط، كنت أريد أن أحفظ صور أعدائي الجدد . تراكضت القبط المذعورة، كأنها خرجت من الجحيم . كنت دامي الوجه وأحسست بالترنف من عيني اليسرى .

ضحكوا كثيراً . . لما رأوا دمائي . . استلقى نوري على ظهره، كان يضحك من الفرح واللذة ، وبعد أن مسح عينيه من آثار الدموع، قال لي :
- ما رأيك بهذه الحفلة؟ ألا تعترف؟ .

لم استطع أن أجيب . كان جسمي يلتهب . يتمزق من الألم . لا أعرف هل حركت كتفي، أم تصورت ذلك، قال لي وهو يجري ناحية الباب :
- عندي آلاف الوسائل التي تجعلك تتكلم مثل بغاء . . هل تتكلم، أم تريد أن تجرب؟ .

كنت في ذلك الوقت مستعداً لأي شيء، ليفعل نوري ما يريد، سوف أقتله بصمتي، يجب أن أعاقبه بالطريقة التي تقتله .
أمسك أصابعي بقوة، ودفعها بين شقي الباب وبدأ يغلقه بهدوء . لما صرخت بصق في وجهي، قال بتشف :
- هل رأيت؟ هذه واحدة من ألف !

- لا تتعب نفسك يا نوري . . لن نظفر بكلمة .

كان يجب أن أظل صامتاً !

- والله يا ابن الكلب، يا . . . (١) ساجعلك تتكلم في نومك . . .

(١) كلمة قبيحة جداً .

هل كانت تلك أقسى الليالي؟ أطوها؟ جرب نوري كل الوسائل، وضعني خلف درفة الباب المفتوحة، وضرب الدرفة بقوة أول مرة . أحسست رأسي ينفجر، شعرت أن اضلاعي تخرج من عيني، ولم يسألني شيئاً، بدأ يغلق الباب بهدوء، وشعرت أن اضلاعي تتكسر، لم أعد أقوى على التنفس، شهقت عدة مرات من الألم ومن الرغبة في ان أعب الهواء قبل أن انتهي .
- هذه بداية . . ماذا تقول؟ .

لم يكن ينتظر جواباً، كان يريدني أن أمر على جميع وسائل التعذيب قبل أن يسألني . قال لي :

- ساجعلك هذه الليلة اعجوبة . . لا أريد منك كلمة واحدة، وسأرفض غداً، وبعد غد، استقبالك، لا أريدك ان تتكلم من الألم، أريدك أن تقول كل شيء وأنت مرتاح تماماً !

لو طلب مني ان انزع ملابسك تلك الليلة، لما فعلت . قررت دخول الرهان مع نوري حتى نهايته، ولو دفعت حياتي ثمناً لهذا الرهان . قال لعبد :
- انزع ملابسك . . وحضر الحبل .

كانت مقاومة بائسة أقرب الى العبث، بعد دقيقة أو دقيقتين وجدت ملابسك كومة الى جانبي وأنفاس عبد تلهث في ظهري، وهو يشد الحبل حول يدي . ماذا يستطيع هذا الخنزير أن يفعل؟ البكارة؟ أن يدعو عشرة من حراسه ويفعلوا ما يشاؤون . . . هذا أقصى ما يستطيع . . سمعت القصة أكثر من مرة . هددني نوري أكثر من مرة، قررت أن أموت تلك الليلة . ليفعل نوري أي شيء . لم أعد أطيق أن أظل حياً يوماً واحداً .

أية روح أبالسة يمكن أن تعيش في الانسان؟ لا أريد أن أنصور أي وصف، أية كلمة لأقول أن نوري هو كذلك .

أمسك مثل طبيب بخصيتي . بدأ يضغط بهدوء أول الأمر، ثم شددهما بعنف الى أسفل، أحسست بروحي تخرج من حلقي، لا يمكن لانسان احتمال هذا الألم كله . . تركهما . .

احسست بهما ثقيلتين، متدليتين كأنهما أجزاء زائدة غريبة، وبدأ يتسرب الألم الى امعائي حاداً مثل سيخ النار.. لا أعرف من أين أتى بذلك الدبوس الكبير، كان أكد دبوس رأيت في حياتي.. أشعل عود ثقاب، أشعل سيجارة ووضع الدبوس فوقها.. تمثيت في تلك اللحظة لو يغرسه في قلبي.. لو فعل لأنتهى كل شيء.. لكن إبليس المجنون العاث لا يريد أن يقتلني.. من جديد رأيت يمسك خصيتي ويغرز الدبوس الأحمر.. أي إله يمكن أن يكون في هذا الكون ويرى؟

الانسان هو الاله.. بصقت في وجهه من الألم والتحدي.. كنت أريد أن أفعل أي شيء قبل أن أموت.. لقد فعل نوري كل شيء، ألا أستطيع أن أرد عليه مرة واحدة؟

احسست بجراحي تزغرد من الفرح لما رأيت البصقة تنحدر بهدوء من عينه الى خده، قريباً من الأنف.. أذهلته المفاجأة، لم يستطع أن يفعل شيئاً أول الأمر، ثم لما احس بالبصقة تقترب من فمه، مسحها بظهر يده.. كان مجنوناً في تلك اللحظة.. ضربني بحذائه على وجهي، ما تزال العلامة باقية حتى الآن، ضربني على بطني، ضربني بيديه وقدميه، حتى تعب، كان الآخرون يتابعون دون أن يقولوا كلمة، لكن عندما جلس، هز رأسه بطريقة معينة، تأكدت بعدها ان حياتي انتهت.. انقض عليّ عبد وأبو خيري، انقضا مثل وحوش مجنونة، وكأنهما ينتظران تلك الإشارة.. أتذكر ان وجهي اصطدم بالحائط وبدأت الدماء تغسلني، ولا أتذكر بعد ذلك إلا ويدي مربوطتان بالسقف وأتدلى!

أشيلوس، يا بقرة بيضاء مقطوعة السيفان، ألا تعرفين كم مرة يموت الانسان وكم مرة يولد؟ التفتي الى الشاطئ، الشرقي، لتغرّز دموعك في الأماكن المظلمة، وانظري.. بقايا البشر.. الضحايا والجلادين.. بقايا البشر!

احذري يا أشيلوس ان عدت يوماً للشاطئ الشرقي.. سيجدون لك سرداباً أصغر من القبر، وهناك يجب أن تقاومي الجنون والوحدة، لقد جنت المخلوقات هناك.. الققط مجنونة لا تقترب من البشر، لا تهره مثل ققط المناطق الأخرى، تجفل من الخطوة، من قطعة الخبز، ونداء الحرية عندها أقوى من نداء الجوع.. لقد جنت الققط تماماً، والبشر المجانين يلاحقون الققط، يقبضون عليها، يدخلونها في الأكياس مع البشر، يضربونها ويضربون البشر، نمو، تصرخ، تمزق بمخالبها كل شيء!

ليست الققط وحدها المجنونة يا أشيلوس: الكلاب والعصافير جنت أيضاً.

آه لشدة ما هم منحدرون. منحدرون وجبناء. أليس لهم أخوة؟ زوجات؟ واطفالهم، هل تعرف هذه الأيدي ان تحمل الاطفال مثل باقات الورود وتداعبها؟ لا أصدق أن يداً مثل هذه اعدت لشيء غير ان تضرب وتضرب وتضرب.

السويدية التي تحمل من شاطئ المتوسط الشرقي ثلاثة كناريات صفراء في قفص كبير، ابتسمت لي امس لما رأيتني انظر الى طيورها بدهشة. ظلت تراقبني من بعيد، ولم تقل شيئاً.. هل هذه الطيور شبيهة بتلك التي كان نوري يعلقها في غرفته؟ الألوان، المناقير، خفقات الاجنحة، تكاد تكون نفسها، ربما كانت هذه أبناء لتلك، نعم يمكن أن تكون.

كان نوري قصيراً، واسع العينين، شفته السفلى ثقيلة مرنجية، أما الأذنان فقد اكتسبتا حمرة معرودة.. كان اذا خلع سترته وبان كرشه بدا أقصر، أما إذا رفع اكمام القميص، حتى الساعد، فإن الشعر الاسود الغزير يتدفق كشلال على يديه، وكان بهاتين اليدين القصيرتين ينثر الحبوب في قفص الطيور، وكان بهاتين اليدين يغمس رأسي في الماء، فأحس اثقالاً لا حدود لها تجثم فوقي، حتى اذا كدت اختنق، جر شعري بقوة ثور، وقبل ان اشهق شهقتي الثانية احس من جديد ثقل الماء رصاصياً كاوياً وهو يضرب وجهي مرة أخرى!

أشيلوس، هل تقولين لهذه السويدية التي تنام الآن في فراش دافئ وتعلم بطيورها، إن اكره كل الطيور، وان نظرات الأمس كانت تشفياً ملعوناً؟ هل تقولين لها يا أشيلوس؟

كانت الطيور تغرد إذا دخلنا، كانت تستقل من طرف القفص الى الطرف الآخر، وتنظر بنا بسخرية، نلتقط الحب وتقفز، كانت هكذا، حتى ونحن تضرب. نفت مرة وأنا ملقى على الأرض ويدي معصوبتان تحت ظهري.. كنت أغرق من الألم، كنت أريد ان ابكي، رأيتها ما تزال تقفز، هل كانت تقفز من الخوف، من فرح؟ كانت تقفز، تغرد.. نوري يحب طيوره، يطعمها بيديه، يقف طويلاً يتأمل شها الأصفر، مناقيرها التي تنغمس في فنان الماء الأبيض، كانت ابتسامة شديدة نرح تطفو على وجهه وهو يرقبها.

- اكتب يا ابن القحبة.. غير خطك كيفما تشاء، سأعرف كيف التقطك مثل

جرذ.. لا تنفري، خذي الحب دون ان تنفري.. اتركه يأكل، ابتعدي أنت، هل أنت حاضر؟ اكتب!

كل شيء له رائحة القوي.. الكناري، عبد الطويل والذي تشابه يده سمكة كبيرة ثقيلة، حاتم المعروق الوجه، نوري بالضحكة المدوية، عندما يسخر، عندما يتحدى، حتى دمائي قبل أن تجف كانت لها رائحة القوي.

وأنت يا اشيلوس، الا تسألين هذه السويدية مرة أخرى، لماذا الاقفاص الكبيرة؟ كنارياتها الصفراء المتبججة، توضع كلها وعشرات مثلها في ركن من القفص، وهذا الفضاء اللامتناهي الباقي من القفص، ماذا تفعل به؟

لما وضعنا في تلك الغرفة، شعرت اني أولد من جديد.. منذ سبعة شهور لم أر انساناً غير هؤلاء القتلة. كنت في القبو احارب الجنون. امسكت مرة غملة سوداء كبيرة، قدمت لها رغيفي كله، وضعت امامها قدح الماء، وقلت لها بصوت حاسم مليء بالرغبة:

- لن اتركك الآن. ستبقين هنا ثلاثة أيام، انت ضيفي، بعد ثلاثة ايام يمكن أن نتحدث.

لما رأيتهما تبتعد عن رغيف الخبز، حملتهما من جديد ووضعتهم فوقه. بدأت تنزلق، تريد أن تبتعد. صرخت:

- ألا تعرفين العادة ايته النملة المقدسة، يا ضيف الله؟ الضيافة ثلاثة ايام. قولي عني ما تشائين.. قولي نوري أو عبد، قولي جلاد وكافر، قولي، فأنا لا اسمع إلا ما أريد.

لم ااحتمل ان احبس النملة عندما اصبحت قرية من الشق، قلت لها وأنا أراها تتسلق الحافة:

- يجب أن لا تبقي وحيدة.. لو ظللت هنا لكنت صديقك، احذري ان تقتربي ناحية الجنوب، هناك لا يعرفون معنى الصداقة، وليس لهم أصدقاء.. اذا ضقت من قبوي، فاذهي هذه الناحية، ناحية الشمال.. هناك تجهدين الاصدقاء!

سألتني الصغيرة وهي تقترب مني:

- هل أصابك الدوار؟ لم نرك منذ الصباح؟

قلت وأنا أسحب عيني عن وجهها اللذيذ:

- اشعر بالغثيان، لكن ما زلت احتمل.

- يبدو انك معتاد؟

- لما كنت صغيراً كنت أقضي ساعات طويلة مع خالي في البحيرة نصطاد السمك.

- والبحر، ألم تتركب سفينة قبل هذه المرة؟

- هذه أول مرة.. وأنت؟

- أول مرة!

- هل تشعرين بالدوار؟

- لم أنم طوال الليل، اخطأت اذ لم استعمل الدواء.. تصورت اني احتمل، لكن اليوم لم أكل إلا قليلاً واخذت حبة دواء!

- وكيف تشعرين الآن؟

- اشعر اني مرتاحة، سأنام باكراً.

انعقدت عند الغروب حلقة للرقص. بعد ساعتين نصل البيريه. اشيلوس البقرة البيضاء المقطوعة السيقان، تعاند البحر، تقهره، لم تتأخر في رحلتها إلا مثلما يتأخر حاتم في فتح باب القبو، كنت اسمع مفاتيحه، كنت أنتظر، وبعد أن يعالج الباب ينفتح، كانت تداهمني اشعة الضوء المغروسة فوق الباب، ولا أرى إلا ظلالاً.

حفلة الرقص مجنونة. الطفلة بعين مليئة بالدهشة، انسحب في ظلال المساء بعيداً، اصبح تحت السماء.. مطر صغير مغزول من القطن، ولا تراه العين إلا في شبح الاضواء المتثورة على السفينة. اشيلوس يجاهد لكي تصل، تعذبها لحظات الانتظار الباقية، نفترس نفسها بشكل ما، تحقيقاً لرغبات مبهمه.

الاقفاص الكبيرة.. الدوار، النوم الباكر، وأي شيء آخر؟

كنا أربعة عشر رجلاً.. أربعة عشر.. نعم أربعة عشر. الغرفة لا يمكن أن تستقبلنا إلا وقوفاً، وقوفاً تماماً. كانت الاجساد متراسة، رائحة العرق، رائحة الافواه، الشعور الطويلة، الاظافر السوداء من بقع الدم المتخشرة تحتها، على هذه

المسافات المتناهية الدقة لا يمكن للانسان ان يرى شيئاً . طرف الوجه قطعة لحم صماء لا تعني وجهاً أو جزءاً من وجهه، الأنف كتلة كبيرة تنتفخ وتتقلص في محاولة لأن تسحب الهواء، والشفاه رغم كل شيء تنفرج عن أسنان يجيم على أقسامها السفلى سواد الدخان، ويجيم على أقسامها العليا السواد المصفر . لكن كنا أربعة عشر رجلاً، وأن يكون الانسان داخل هذه الكتلة من البشر يتباه فرح أخرس، كل هؤلاء بشر . بشر حقيقيون . حقيقيون تماماً . انفاسهم، الحركة المتموجة، الضحكة . الصغيرة، كنا بشراً حقيقيين، كنا أربعة عشر .

هل انتهت فترة التوقيف المنفرد؟ هل احتملت كل هذه المدة؟ لا أصدق .

رايت تحت المظلة، قريباً من مقدمة أشيلوس ، رجلاً يضع على اذنه راديو صغيراً!

الاخبار؟ انتظر، انتظر، سيطول الانتظار ايها المسافر، ستموت قبل أن تسمع الكلمات التي تنتظرها . شاطئ المتوسط الشرقي لا يلد إلا المسوخ والجراء . وأنت تنتظر الخيول والسيوف! انتظر، سيطل ذاك الشاطئ يقذف كل يوم عشرات الجراء، مئات الجراء، وحتى لو وصلت اعدادهم الى الآلاف، فستظل جراء تعوي في السرايب، أو تموت في المزابل . لأنها تريد ذلك!

اسمع الاخبار، وحدك، لا أريد أن أسمع . . يكفيني ما سمعت!

كانوا يوقفون التعذيب عندما تخين ساعة الاخبار . كانوا يحرسون على أن يسمعوا مقدمة النشرة . حتى اذا اطمأنت وجوههم، اداروا المفتاح، وبدأت الموسيقى من جديد!

آه . . لو ظل الشاطئ الشرقي للمتوسط بركة للتماسيح، ولو ظلت الكهرياء بعيدة . . لكن جاءت هذه اللعنة لكي تقتل البشر .

اجد يتذكر تلك الليلة، كان يتذكرها بعد ثلاث سنين . لم ينسها أبداً، انحفرت في رأسه مثل تاريخ على شجرة قديمة، على جدار دير . لما سألناه مرة عن تاريخ ميلاده، حاول أن يتذكر . . قال ١٢ أيار، ثم استدرك وقال ٢٧ نيسان . لما سألناه اي التاريخ هو الحقيقي . . قال : التاريخ الحقيقي الوحيد . . ٢١ تشرين الثاني . . هذا هو التاريخ .

الكهرياء . . الموت الحقيقي، ينخض القلب ثم يموت . كانوا يضعون التيار على

الاكتاف، قريباً من القلب، فوق الأنف، بين الايتين . . ويتفص القلب، يترنح، يتوقف . . ويتوقفون . مئات المرات فعلوا ذلك . . لو أنهم شرفاء لدرجة كافية لوضعوه ثانية اخرى وانتهى الأمر . لكنهم لا يفعلون . .

قال أجد: آخر مرة كانت ٢١ تشرين الثاني . . هذا آخر تاريخ ميلادي، وما عداه كذب أزرق!

التلفزيون، المراوح، الثلاثجات، الفواكه المعصورة، أي شيء يمكن أن تولده الكهرياء؟ أن تمنحه الحياة؟ شكراً لله اني لا أعرف أسرار هذا المخلوق العجيب، لو عرفت الاستعمالات التي تمتد اليها الكهرياء لصعقت من الخوف، لأنني لم امتحن إلا استعمالاً واحداً: الارتجاف، الاحساس الحاد المتوتر بأن كل شيء قد انتهى . . ثم والمياه تصفعني، وارتعش رعشة الحياة هذه المرة، وما أن اجر انفاسي الى الداخل، لكي أتأكد ان رثتي ما تزالان تستقبلان الهواء حتى اشعر بالارتجاف من جديد . . احسه كاوياً مجنوناً، وأغيب . . وما تكاد رعشة الحياة تعاودني مرة اخرى، وأنففس الهواء الى الداخل حتى أغيب .

اشيلوس ترقص، رقصة الديوك المذبوحة . الفرع في قلب الانسان مغارة لا نعرف الامتلاء، لكن يا أشيلوس التي ترمين بقايا الأكل الى البحر، كما ترمين البشر في الموانئ، الم تعرفي الجوع . ساعات الانتظار الممضة؟ يجب أن يتعلم الانسان، ان يتعلم باستمرار!

يجب أن يستقبل الكهرياء مثلما يستقبل الرجل المرأة، ان يذوب فيها بصمت، ان يترنح ولا يموت . قال لي نوري، وأنا موثق وملقى أمامه:

- نريدك الآن أن تقول الأشياء الاخيرة . . اذا كانت لك رغبة أو رسالة!

نظرت اليه ولم اجب . كان كتفي مكسوراً بعد ان وقف عليه عبد بكل ثقله، ولم يعد يهمني أي شيء . كنت أعرف ان الموت هو الراحة الكبرى التي يمكن أن أصلها، وكنت انتظر هذه الراحة بلهفة مسحورة .

قال لي وهو يخرج ورقة مطبوعة من جيبه:

- اذا لم تصدق، انظر .

قرب الورقة من وجهي، لكن لم أقرأ شيئاً . لاحظ ذلك، قال وهو يعتدل في وقفته:

- سافراً عليك: بعد استكمال التحقيق وتوفير الأدلة بخصوص الموقوفين التالية اسمائهم، تقرر تنفيذ حكم الاعدام رمياً بالرصاص...
وقرأ الاسماء... سمعت اسمي، كان الثالث.

توقفت مشاعري كلها، لم استطع ان اتحرك، وحتى لو أردت، فقد كانت أية حركة مستحيلة. دفعني بقدمه، لم أحس إلا وجسمي يتقلص بحركة تشنج لا إرادية، وعاد الى السؤال من جديد:

- أية رغبات؟ أية أوامر؟ انت تعرف ان المحكومين بالاعدام يسألونهم أن كانت لديهم رغبات... أتعرف ذلك؟
لم أجب.

بصق في وجهي وقد تغيرت هيئته كلها، صرخ:

- ألا تصدق...؟ يجب ان تصدق يا ابن البيت العمومي! يا ابن القعبة!

ربطوا عيني، لا أدري من حملي، لكن أحسست بأيدٍ قاسية ترفعي عن الأرض، كنت مستسلمًا، لأنني لا أستطيع غير ذلك.

هدرت السيارة وسارت، قطعت مسافة كبيرة، ثم توقفت. حملوني، انزلوني، سمعت أصوات السلاح، كانت الطلقة وهي تدخل بيت النار، لها صدى ساخر. سمعت الرجال الذين حولي يتكلمون بصوت منخفض... لم أكن أريد أن أسمع، الألم يجزني، عينايتي تحت العصاة كتل من الألم الساحق، أسناني، وكففي المكسور كان يجعل تنفسي عسيراً مرهقاً... ليكن أي شيء. الموت... لكن هل أموت فعلاً؟ هل يقتلونني؟ ماذا فعلت؟

كنت أريد أن أصرخ... أن أقول افعلوا ما شئتم ايها القتلة... لكن أصوات السلاح وهي تتحرك بين أيديهم ارغمتني على السكوت... أصوات السلاح والألم. ولكن هل أموت دون كلمة؟ يجب أن أفعل شيئاً قبل الموت، كنت فرحاً وأنا أرى البصقة تنزل على وجه نوري. شعرت في ذلك الوقت أنني فعلت كل ما أستطيع. والآن؟ أتركهم يقتلونني مثل كلب دون أن أقول كلمة واحدة؟ وما فائدة أية كلمة أقولها الآن؟ ومن يسمعي؟ وماذا لو سمعني العالم كله؟ ألم يقرأ نوري علي الحكم قبل قليل؟ ألم يردد اسمي مرتين لكي أتأكد؟ كان من الواجب ان اطلع على الورقة

بنفسي... هؤلاء الناس يكذبون، لا يتقنون شيئاً أكثر من الكذب! قل كلمة أخيرة يا رجب، يجب ألا تموت مثل كلب، دون كلمة احتجاج، ودون صرخة، ولتكن صرختك قوية تخلع قلوبهم، لن يستطيعوا ان يفعلوا أكثر من أن يقتلوك، هذا أقصى ما يستطيعون!

سمعت طلقة من مكان بعيد. ساد الصمت. كنت معصوب العينين على الأرض. هل يقتلونني وأنا في هذا الوضع، ألا يربطونني الى عمود؟ ألا يوقفوني الى جانب الجدار؟ ليست هذه هي الطريقة التي يتبعونها في القتل، لكنهم لا يتبعون طريقة بذاتها، كل طريقة تؤدي الى الموت، مناسبة لهم. وماذا يهمني أن أموت هكذا أو أن أربط الى عمود؟

لما نادى ابو خيري عرفت صوته. يبدو انه اشار بيده، ثم نادى:

- احملوهم الى ساحة التنفيذ... تعالوا.

والطلقة... هل قتلت احداً؟ حياة من انتهت؟ الدم ينزف، بركة دم كبيرة، رعشات ثم ينتهي الأمر... وهل احضروا كل الذين ذكر اسماءهم نوري؟ يجب ان اذكر... سمعت اسماء: زكي، حسين، ووليد... ومن ايضاً؟ كان من الواجب ان اصغي، ان احفظ الاسماء، ان اذكرهم: زكي بوجهه المجذور، والشارب الكثيف، هل كسروا نظاراته؟ ألا تزال يده تمتد اليها كل لحظة لتثبتها؟ ووليد انه لا يحتمل، له كلية واحدة، كنا نسميه نصف رجل، هل صمد كل هذه الفترة وعذبهم أكثر مما عذبوه؟

كان وليد لا يترك لأحد ان يتكلم... كان يقول: «هذه القصة أعرفها، هذه النكتة أعرفها، اسمعوا... كان يحارب ببسالة لكي يستمر دائماً في الحديث... لو أنه تكلم لما ساقوه الى هنا. ربما قال لنفسه: تكلمت قبل السجن أكثر مما يجب، والآن يجب ان اصمت. لو تكلم لما جاء الآن، لما صدر عليه حكم الاعدام

ايعرف هادي كم نحن صامدون؟ سيقول له احد... سيعرف.

اشيلوس... انت سفينة الحرية، سفينة لها مائة باب، لا ترجعي، اقفزي دائماً الى الامام، ويل لك اذا امسكوا بك يوماً، اذا قبضوا عليك لا بد وأن يفعلوا بك شيئاً... كانوا يفعلون... اذا صمت، اذا تكلمت، اذا نظرت، اذا لم تنظري... كانوا يجدون سبباً لما يفعلون.

ولكن من يسألهم عن السبب؟

- لماذا تنظر هكذا يا ابن الزانية؟ اتحدى؟ اضربه، علقوه.

- لماذا لا تنظر اليّ عندما أسألك؟ أنتظاهر بالعفة والخجل يا... (١)؟ عدّل وجهه يا عبد، علّمه كيف ينظر!

- احك يا ابن القحبة. يجب ان تحكي كل شيء.

- اخرس، سادوس رأسك وأملأ حلقك... (٢) أنفهم؟

كانوا كباراً، عمالقة من خشب. وكنا ضامرين، نثن، نصمت، نريد لحظة لنغفو، كنا نتلهف لكلمة من العالم الآخر.

في الأيام الأولى كنت أسأل نفسي مئات المرات: والعالم الخارجي، ألا يزال موجوداً؟ والمقاهي أتستقبل البشر؟ ودور السينما ألا تزال الحفلاتان في المساء، الأولى في السادسة والثانية في التاسعة؟ والشوارع والأضواء ورجل ينتظر امرأة على محطة الباص؟

تصورت العالم الخارجي في لحظات معينة يتوقف، ينتهي. حزنت أكثر، وكدت أموت لما علمت بموت أمي... رأيت أنيسة، كانت هالات سوداء حول عينيها، رأيت الخطر أوضح من قضبان الحديد التي كانت تفصلنا. قلت لها مثل ذئب جريح:

- أين أمي يا أنيسة؟

صمتت، ثم بكت. كان بكاءً لها مثل صرخة مفاجئة في الظلمة. في ذاك المساء بكيت، ضربت رأسي بالجدار، وظننت أني لن أعيش، ولكن الأيام تدفقت بعد ذلك وواصلت الحياة.

الانسان أقوى من قطة... يموت ولا يموت، عيب الانسان في جسده، اذا ضعف الجسد، اذا تهاوى، سقطت روح الانسان، تفتت ارادته. ولكن كيف يستطيع الجسد ان يسقط؟ كانت عيوني تثقب أجسامهم، تجعلها تتلوى من الحقد. كنت أقوى منهم مئات المرات... لم يبقوا معي شيئاً... اخذوا الحزام، قيطان الحذاء، رباط العنق... كانوا يخافون ان انتحروا! هكذا قال لي السجناء فيما بعد، لا...

(١) شبيمة.
(٢) كلمة قبيحة

لا لن تفرحوا. انتم الذين تقتلون، السجناء لا ينتحرون، اكتبوا! انتحار هادي ابو الليل... هادي لا يموت. كنا قريبين. لما رأونا على الشباك وهم يقودون هادي، هجموا علينا مثل ذئاب جائعة. ضربونا، انزلونا الى القبو، كنا ثمانية. كان القبو صغيراً... صغيراً، لم نجلس. ولم نثم، كنا نريد أن نسمع صوت هادي... آخر الليل سمعنا ثلاث طلقات... لم تكن نائمين عندما سمعنا الطلقات... قلنا لخليل الذي يسمع دبيب النمل:

- اسمع يا خليل وقل لنا ماذا تسمع.

كان الليل كثيفاً مدهشاً: الصمت ورنين الأحذية. هذا ما كنا نسمعه، اما خليل، فقد بكى... رمى نفسه بيننا وبكى... لم يستطع ان يقول كلمة واحدة. حزنا تلك الليلة حتى كدنا نجث، كانت الأضواء المشربة بالصمت تتكوم فوقنا، تتسلل من الشق القريب في السقف. في ذلك الوقت المليء بالخشوع والارتجاف، قال لنا خليل:

- قتلوا هادي...

- لا يمكن أن يقتلوا هادي...

- أقول لكم قتلوه!

- كيف عرفت؟

- أقول لكم قتلوه... قتلوه!

وبكى من جديد!

لم نسأل خليل بعد ذلك، ولم يتكلم، لكن بعد ان انقضت ثلاثة أيام. ورأينا الوجوه معتكرة عصبية، وكان البرد أقسى من أن تتحمله اجسامنا التي عافت الطعام، قال لنا خليل ونحن نأكل:

- سمعتهم، بعد الطلقات، كانت همسات خائفة مجللة بالرعب... كانوا يترაკضون على رؤوس أصابعهم. قالوا وهم يترაკضون: احضروا كيساً كبيراً... سنضعه في الكيس ونضع معه الحجارة ونلقيه في النهر.

- وماذا أيضاً يا خليل؟

- خذوه الآن، ضعوه في المرحاض، لكي نسأل الأغا ماذا يجب أن نفعل!

- هل سمعت هذا يا خليل؟

- وسمعت نوري يقول: احضروا ماء وامسحوا بقم الدماء!

- لا لم يقتلوا هادي، انت تتوهم!

- قتلوه .. قتلوه .. قتلوه ..

وبكى خليل مثل طفل. وبكىنا.

٤

انقضت ثلاثة شهور، تلقيت خلالها رسالتين وثلاث بطاقات بريدية. أرسل رجب البطاقة الأولى من اليونان، لأول مرة أقرأ كلمات رجب بعد سنين طويلة. قرأت رسالتين أو ثلاثاً كتبها حين كان في السجن. وبعد ذلك لم يكتب.

قرأت البطاقة وبكى. تأكدت ان رجب أصبح بعيداً، بعيداً جداً. كانت البطاقة بعنوان حامد، لكن وجهها الينا كلنا: اعزائي: أثينا تغرق في الضباب الناعم. مطر هاديء في نهاية الليل، أما في الصباح فالضباب والنقاء. كل شيء مغسول، ويكاد يضحك.

أتمنى لو أقضي هنا فترة طويلة، لكن لم يبق للباخرة إلا ثلاث ساعات وترحل من جديد. صادفت عدداً من الناس يتكلمون اللغة العربية، يتكلمونها بلهجة مصرية لذيذة، لا اعتبر نفسي اني قد رأيت أثينا، لأن العشر ساعات لا تكفي.

تحياي الحارة جداً. سأكتب قريباً.

ولم استطع أن أميز توقيعه. كان في زاوية البطاقة، غامضاً، حتى ان الشك راودني في ان لا يكون رجب هو الذي كتبها.

المرأة تفكر بالأشياء الحزينة. اذا لم تجد ما يكفيها من الحزن، بحثت عنه عند الآخرين!

كانت الأيام الأولى بعد السفر شقية.

استدعوا حامد الى التحقيق، واستبقوه منذ الصباح حتى منتصف الليل، وبعد ان تركوه فترة طويلة دون أسئلة ودون أكل انتبهوا لوجوده، وكأنهم فوجئوا

بالاكتشاف، كما قال، وسألوه نفس الأسئلة: من زار رجب؟ من اتصل به؟ الى اين ذهب؟ هل نام خارج البيت؟

اجابهم بهدوء وصدق، لأنهم يعرفون الاجابات دون أن يسألوا احداً، وبعد أن انتهت المرحلة الأولى من الأسئلة، قالوا له:

- انت تعرف ان رجب ترك السياسة، ولم تعد له علاقات إلا معنا، لكن مع ذلك، يجب أن تتأكد ان كل شيء متوقف على سلوكه، لا يظن انه اصبح بعيداً، وان أيدينا لا تصل اليه... لا، اذا فكر هكذا يخطئ كثيراً... وانت، ستسأل عن كل شيء في المستقبل، انت كفلته، ألم تكفله؟

ولم ينته الأمر عند هذا الحد، تركوه يعود الى البيت عند منتصف الليل، وطلبوا منه العودة يوم السبت.

حاول أن يظل طبيعياً في الأيام الأولى، لكنني لاحظت ان اقل الأشياء بدأت تثيره وتدفعه الى الغضب، وبدأ بعد ذلك يتكلم بحزن عن كل شيء... ولكن لم يكن أمامنا إلا أن نبقى!

استدعاء حامد لم يكن الشيء الوحيد، أصيبت ليل بالحصبه، وأخطأ الطبيب في تشخيص مرضها، مما هدد حياتها لمدة ثلاثة أسابيع، اما عادل فقد ضبطوا معه في المدرسة سكيناً صغيرة، قال انه هدد بها أحد الأولاد، وكاد يتطور الأمر، لولا أن حامداً قدم لمدير المدرسة تعهداً بأن لا يتكرر الأمر، وقال له أن يطرده نهائياً لاتفه مخالفة يرتكبها!

المصائب اذا جاءت تحي، مرة واحدة، لم اكن أعرف كيف أتصرف. لكن مرض ليلي دفعني لأن أوجه لها كل اهتمامي، لقد اغرقت نفسي في عالم المرض، لكي أنسى الأشياء الأخرى.

كان ثاني ما تلقيناه من رجب رسالة وبطاقة بريدية، جاءتاً معاً في نفس اليوم، قرأت البطاقة بسرعة، أما الرسالة، فقد قلت لحامد ان يتركها على الطاولة لكي أقرأها في وقت آخر. كنت أريد عالماً جديداً أغرق نفسي فيه، فقد مللت المرض والأحاديث الحزينة، وكنت واثقة ان رجب كتب شيئاً في رسالته قد يساعدني على النسيان!

في الليل المتأخر، وأنا أسهر الى جانب فراش ليلي، امتدت يدي الى الرسالة.

انزعجتها من الغلاف بيد مرتجفة، وافكاري تنبه وراء ذلك الطائر المهاجر. لقد نسيت ملامح رجب خلال فترة أسبوعين، أو هكذا بدا لي. وحاولت مرات كثيرة ان استجمع في ذاكرتي صورته. لكن تلك اللحظة اللعينة وأنا أراه يضرب رأسه بالخائط سيطرت عليّ لدرجة لم استطع تصوره بصورة أخرى، بكيت وأنا أقرأ الكلمات الأولى.

قال انه كتب الرسالة في الباخرة، وسوف يرسلها من ميلانو. تحدث عن المهاجرين والبحر، تحدث عن الباخرة الكبيرة التي تضم عدداً كبيراً من البشر من جنسيات مختلفة، وقال انه لا يشعر بالملل، لكن يحس كل شيء حوله غريباً وأنه لا يستطيع التلاؤم مع هذه الحياة الجديدة، ثم عاد واستدرك، فقال ان حياة الباخرة مؤقتة، ولا تمثل شيئاً من الحياة التي ينتظرها.

بكيت وأنا أقرأ اعتذاره الغامض عن الاخطاء والاساءات التي ارتكبها خلال الفترة الماضية. وذكر شجرة الحور والليلة الأخيرة. لم يتحدث عن ذلك إلا بكلمات قليلة غامضة، أحسست وأنا أقرأها، انه يعني اموراً أخرى، ولا أدري لماذا تصورت انه يفكر بالسجن وموت امي. ان هذين الأمرين هما اللذان يجيمان على رأسه مثل أشباح، ولكنه لا يقولها، أو بالأحرى لا يستطيع... أو لا يريد! وقال أيضاً ان تخلي هدى عنه حين كان سجيناً جرحه، وأنه بعد ذلك لم يعد يثق بالنساء، لكن كيف حصل الأمر؟ حصل الأمر كأنه قدر، لم استطع أحد أن يفعل شيئاً ليمنعه.

كانت هدى تزورنا كثيراً خلال الفترة الأولى بعد السجن، كنا نتحدث عن رجب، كما لو انه سيأتي بعد ساعة، سيطرق الباب فجأة ويدخل. كانت في البداية نتحدث عنه دون أن تذكر اسمه، وقد احمر وجهها مرات عديدة وأنا أنظر في عينيها وأسالها ان كانت تحبه لهذه الدرجة، لكن في وقت لاحق، بعد أن أصبح رجب البعيد ملحناً اليومي، بدأت نتحدث عنه مباشرة، ولا تتردد في أن تذكر ان عينيهِ جميلتان رغم الحزن.

هكذا كانت الأمور في البداية: الرسائل، العناية بالملابس، والتذكر المبهج.

في وقت آخر بدت هدى حزينة. رفضت ان تتكلم لما سألها أول مرة، ورفضت في المرة الثانية. لكن لما ألححت عليها بكت. وضعت رأسها على كتفي واخذت تبكي. أحسست ان في حياتها رجلاً جديداً. لم تقل لي، لكن المرأة تفهم المرأة الأخرى دون ان تسألها. ابعدتها عن كتفي وقلت لها:

- هل أساء اليك احد يا هدى بسبب رجب؟

وظلت صامئة وبقايا دموع في عينيها، حتى رأيته أبكي، ولا أعرف لماذا بكيت فقد تجمعت الاحزان في قلبي فجأة وبكيت.

ولم تستطع ان تقاوم، انفجرت في نوبة من البكاء، وحتى تلك اللحظة لم أكن اظن ان هدى تمتلك هذا المقدار من اللوعة والاحزان! ظللنا نبكي... لا أدري كم من الوقت، انقضى، لكن وجدتها اخيراً تتكلم الى نفسها اول الأمر، ثم تحدني.

انتهت تلك الايام، تبدو لي الآن بعيدة وكأنها لم تقع أبداً، لكن بعض الكلمات التي قالتها تمر في ذاكرتي مثل أطيار.

أتذكر انها قالت: سأقتل نفسي يا أنيسة، لا أطيق ان يلمسني احد، واذا أرغموني على أن أتزوج غير رجب، فلن يفرح بي رجل، سأقتل نفسي.

لا أعرف أية كلمات شيطانية انزلت على لساني، عندما حاولت ان اخفف عنها، والآن اصبحت متأكدة، ان أسوأ شيء ان تسأل المرأة امرأة مثلها عن الذي تحب. هل كان عقلي هو الذي تكلم مع هدى؟ قلبي؟ هل كنت اخاف منها وأحاول ان ادفعها بعيداً عنه؟ ان شيئاً في داخلي كان يتلوى من الفرح والألم، لم أستطع ادراكه تماماً، وحتى هذه اللحظة لا أعرف أية عواطف اختلطت، حتى دفعتني لأن أقول لها تلك الكلمات.

وهدى... هل كانت تنتظر كلماتي لكي تتصرف؟

كانت تنتظر تبريراً، جسراً من الكلمات، لتعبر الى الضفة الأخرى.

بعد ان لمتها كثيراً على الكلمات العمياء التي تدفعها لأن تنفوه بمثل هذه الكلمات، قلت لها:

- رجب بعيد لدرجة ان الأمانة الوحيدة هي أن أراه حياً في يوم من الايام.

وقلت لها بلهجة امتحن فيها مدى تعلقها برجب، ومدى استعدادها لأن تفعل شيئاً:

- ماذا لو قلت لأهلك يا هدى؟ أنتصوين انهم سيمانعون؟

رأيت أطيار الخوف والدهشة في عينيها، اذ بمجرد ان مرت الفكرة في رأسها

تروعت، أما ان تواجه أباً وأربعة أخوة، وتقول لهم انها تحب رجلاً سجيناً ونريده زوجاً، فقد بدا لي الموت أهون عليها من ذلك بكثير!

اصبحت هدى بعد ذلك حزينة، زيارتها قصيرة، كلماتها عصبية، وتنقل في البيت تائهة تبحث عن نفسها، حتى جاءت الفترة التي قررت فيها ان تبدأ رحلة جديدة.

قالت لي وهي تجرني الى الحديقة وتبكي:

- لم أستطع أن أفعل شيئاً يا أنيسة، قال أبي لأبيه في الليلة الفائتة انه موافق.

انتظرت ان اقول لها كلمة، لكن لم أقول. صمت، وفي قلبي ذلك الرنين الملتهب من الفرح المتألم. قلت، اخاطب نفسي، وقد شعرت بثقة الأنبياء: النساء في بعض اللحظات يقلن كلمات كبيرة، لكن ما يقلنه مجرد كلمات، انا الوحيدة، بعد امي، التي تنتظر رجب، ويمكن أن اموت من اجله!

لما رأيته صامئة، وأفكاري تحفر الأرض، قالت بحزن:

- ماذا أفعل؟

- وأخوتك هل وافقوا؟

- كانوا موجودين، ولكن أبي هو كل شيء وهو الذي تكلم!

- ولكنهم أخوتك، ألا يقولون شيئاً؟ أليس لهم رأي؟

ومن جديد صمتت.

عندما جاء حامد، كان عمي هو الذي تكلم، لكن عمي لم يقل كلمة إلا بعد أن قال رجب الكلمة التي تشبه حد موسى. كانت امي بضخب الاطفال توحى لرجب ان يقول كلمات معينة، ان يتحدث عن المهر وعن الشروط... لكنه لم يسمع كلماتها. كنت في الغرفة المجاورة وسمعت ما قاله رجب:

- ليس عندنا غير أنيسة، ولا نريدها ان تتحول الى بضاعة ونساوم عليها.

حامد رجل جيد وملائم لأنيسة، وما دام الأمر بهذا الشكل، فلتذهب اليه بثوبها، لا نريد شيئاً آخر!

قلت لهدى والرغبة في ان ادفعها لتسقط، تضغط على صدري:

- الآن.. في هذه الأيام، يجب ان يكون للمرأة رأي.

- ولكن ماذا افعل يا أنيسة؟

- الا تحبين رجب؟ ألم تقولي له انك ستنتظريه؟

- ترين بعينيك ماذا حصل.

هزرت كنتفي وقلت بتحد:

- لم أر شيئاً!

تناوبنا البكاء هذه المرة. وجدت نفسي أبكي، لا أعرف اية مشاعر طغت علي تلك اللحظة. احسست ان رجب اهين، وأنه لا يستحق هذه الأمانة. كنت قبل ذلك أتحدى هدى، اسخر منها، ادفعها لأن تقطع آخر الخيوط، وعذبي ذلك السؤال الذي انطرح امامي مثل جثة: ومن أين لي الحق في دفعها لمثل هذا الاختيار الصعب؟ لتتزوج، لكن لثيق المودة بينها وبين رجب. الزواج غير الحب، وأنا أريد أن أدمر هدى لكي تتوقف عن حبه!

انقضت أيام لم أر خلالها هدى، شعرت بالراحة والحقد بتناوبان علي تناوب حرارة الحمى وبرودتها. كنت في لحظات معينة أقول لنفسي: هدى ورجب عالمان التقيا بالصدفة، وسوف يفترقان، ليس بينهما لحظات التوحد، ولا يمكن لأحدهما أن يؤثر على الآخر، كان يجب العالم الصامت، اذا صح لي ان استعمل مثل هذا التعبير، وكان يجب الكتاب والتأمل، وحتى في لحظات كثيرة الحلم والخيال. أما هدى، فقد كانت تتحدث كثيراً عن الاسفار، وتعلم ببناء بيت له حديقة كبيرة، وانها ستتفرغ لرجب، كما كانت تقول!

هذا ما كنت أصل اليه اغلب الاحيان، فأشعر نتيجة لذلك ان افتراقهما كان ضرورياً، وأنه الحل المناسب للثنتين معاً. كنت في لحظات اخرى، اجد نفسي أبكي وأنا أفكر برجب، فقد خسر امي وهو في السجن، عندما يخرج لن يجدها، سيتذكر المكان الذي تعودت ان تجلس فيه، الأشياء التي كانت تحبها، ورغم اني اقسمت مرات كثيرة ان لا أشعره لحظة واحدة بفقدائها، فلا أعرف ان كنت قادرة على الوفاء.

وهدى تذهب الآن.

كان يتحول الى طفل كبير أثناء وجود هدى، يضحك بصخب، يساعدني في تحضير الأكل، يخيفنا ان خرجنا الى الظلمة... ولم تكن تلك الامسيات البعيدة تخلو من مفاجآت!

اتذكر انه خبأ حذاء هدى ذات مرة، خبأه وخرج، حتى اذا حل الظلام بدأت هدى ترتجف خوفاً من أن تتأخر، عرضت عليها أن تأخذ حذائي، رفضت بأصرار، قالت: ستنظن أمي الظنون... وكادت تبكي من الخوف والغضب، حتى اذا تعبنا من البحث، ارسل ولداً صغيراً يحمل رسالة كتب فيها:

«استعدي للمستقبل. سنضطرين للانتظار فترات أطول، واعلمي ان اكثر الاماكن سرية هي الاماكن المكشوفة... الحذاء على الشجرة مقابل الباب تماماً».

كانت الضحكة تختلط بالدموع الصغيرة عندما التقطت هدى الحذاء، واستغربنا اننا مررنا بالقرب من الشجرة عدة مرات، ونحن نبحث، وارغممتي هدى على الذهاب معها لكي تؤكد لأمها انها كانت عندنا!

رحلت هدى الآن... اصبح لها ولدان وعالم جديد، ورجب يعتبر انها انتهت، ماتت الى الابد. الاحلام التي كان يغزلها يوماً بعد آخر، لحظة بعد أخرى، تنتهي دفعة واحدة!

لا أعرف ان كانت سخرية أم شيئاً آخر، كلمات هدى وهي تدعوني الى حفلة الزفاف، فبعد انقطاع دام اكثر من شهرين، جاءت. كانت تحاول ان ترسم على وجهها ظلاً حزيناً، لكن هذا الظل اختفى خلال الدقائق الأولى. بدأت تتحدث عن الأشياء التي اشترتها، والحياة التي تنتظرها، ولم تنس أن تتحدث عن خطيبتها. قالت: عيونه كبيرة، طويل، ورغم انه صغير في السن، إلا أن شيئاً جليلاً يملأ قوديه. قالت هذا وهي تضحك بلذة.

هل نسيت رجب تماماً؟ أكاد لا أصدق، اذ لا يمكن ان تستبدل حياة سنوات بتعبها وخوفها واحلامها، بلذة موهومة.

وجهي اكتسب وجوماً وكآبة لاحظتها هدى عندما كانت تتحدث. حاولت ان تتراجع احتراماً لذكرى رجب، او شفقة على عجزه وهو يتطلع الى السقف في سجنه الاسود.

قلت لها وأنا أضرب الطاولة الصغيرة، وأجرحها بكل كلمة:

- مبروك عريس الهنا يا هدى.. لكن اسمحي لي ان اقول بعض الكلمات،
قد لا تعرفين ان لي اخاً سجيناً، أخاً اسمه رجب.. وما دام يتلوى من الألم
والعذاب، لا أسمح لنفسى أن أرقص على اسلأته!

وصمت تاركة لنفسى ان تستمتع بلذة التشفي، حتى اذا رأيت وجهها يفيض
بالحقد والعذاب معاً، قلت بهدوء:

- لن احضر زفافك يا عزيزتي!

التقينا بعد ذلك، كانت لقاءات شديدة الألم ويخالطها الحسد، من جانبي على
الأقل. كانت هكذا في البداية، ولكن والايام تمر فتغير الناس والأشياء، تغيرت
هدى، اصبحت غير التي كانت من قبل. وبدأت أحارب طيفها وأبعده بعبارات
قاسية لكي لا يعاودني من جديد، وصممت أكثر من قبل، كي لا أترك البرودة
تسلل الى رجب، عندما يخرج من السجن، ولا يجدها تنتظره.

الآن يقول اشياء خطيرة، كان يريد ان يتحدث عنها بعد خروجه من السجن،
لكن خفت عليه، ابعدت الطيف أكثر من السابق، ورأيت كآبة خرساء ترسم على
وجهه، عندما احده عن أمور بعيدة!

الآن وهو بعيد آلاف الأميال يستطيع، يتجرأ، أن يقول ما لم يستطعه حين
كان ينظر اليّ. لا يعرف هدى التي تعيش الآن، يعرف واحدة اخرى بهذا الاسم
كانت جميلة، وكانت لها عيون خضر، وابسامة شديدة الروعة، وكانت تحبه...
... يتذكر هذه، وهذه ماتت منذ سنين، لكنه لا يريد أن يعترف.

ينتابني الخوف في بعض اللحظات، بل واحس الأرض تحت اقدامي تهتز. ان
حالة مثل هذه يمكن أن تغير العالم، ولا تبقي شيئاً مثلها هو الآن!

لو قرأت رسالته قد يعثرها الشحوب، يأكلها الندم، وقد تفعل شيئاً لا يمكن
أن تفعله إلا المرأة التي تحب. وما يدريني اذا كانت مستعدة لأن تترك زوجها
والطفلين وترحل وراء ذلك التائه!

ورجب اعرفه أكثر مما اعرف هدى، اذ بمقدار ما يبدو عصبياً نزقاً، ويتصرف
تصرفات شديدة البتر، مهما ترتب عليها من نتائج، فإنه هو نفسه الوديع الذي
ينسى كل شيء في لحظة ويعود طفلاً.

لن أترك الأمور تسير بهذا الاتجاه. ليبق كل واحد منها في مكانه، والايام
وحدها هي التي تمزق الحنين واللوعة، وتخلق مكانها حجارة يابسة صماء.

لن اكتب له عنها أبداً، ساغرقه في عالم آخر: شوق الأطفال والطبيعة،
شوقي وحامد اليه، وسأذكره بأصدقائه والافكار التي كانت تشغله قبل أن يدخل
السجن. أما عن هدى فلن احده أبداً!

صمت رجب، لم يكتب كلمة واحدة طوال شهر. بدأ الفلق يتحول الى
هواجس نحاصرن في كل وقت، ويبدو اني اصبحت مزعجة لجميع من حولي.
الأولاد ينظرون اليّ يتسألون حزين، وحامد انتقل من السؤال الى الرجاء. ورغم
كل شيء لم اكن أعرف كيف اتصرف. كانت فكرة واحدة تسيطر عليّ: ان ارى
رجب، ان أسمع صوته. قلت لحامد وأنا أمسح دموعاً خنفتني ذات ليلة بعد حلم
رأيت فيه امي تضحك وتضحك، كأنها بلهاء، وأمامها رجب تشير اليه ان يأتي.

قلت لحامد بعد ان ايقظته من النوم:

- يجب ان نفعل شيئاً، رجب بحاجة الينا ولا يمكن ان نتركه يموت هناك
وحيداً!

قال لي وهو يستدير لينام من جديد:

- نامي الآن.

ولما رأي الح عليه، استند بكوعيه على الوسادة وسأل بعذاب:

- ماذا نستطيع ان نفعل؟

قلت والدموع تسبقي:

- افعل اي شيء، رجب يموت الآن!

- لماذا هذه الافكار السوداء؟ لأنه لم يكتب؟

- لا.. لأنه يموت، أنا متأكدة انه يواجه الآن مصاعب تبدو معها أيام
السجن وكأنها لا شيء.

قال لي وهو يعتدل وراحة يده تمر على رأسي وتشد شعري بنعومة:

- كفى يا أنيسة، غداً ستأتي منه رسالة وتؤكدين بنفسك.

- ولكن منذ شهر لم يكتب!

- ربما شغله عنا شيء.

- أي شيء يمكن أن يمنعه من الكتابة؟

- لا أعرف.. ولكن يجب أن ننتظر ونرى.

قلت له بيأس:

- حامد.. ماذا لو اتصل بوزارة الخارجية، وتطلب اليهم أن يبلغونا شيئاً

عنه.

- نامي الآن، وفي الصباح سنرى!

حصل هذا بعد انقطاع شهر من الرسائل، كنت أفكر طوال الليل والنهار، وأبذل جهوداً كبيرة لكي أبدو طبيعية ومتماسكة، ورغم أني أخفيت مشاعري، ولت نفسي على لحظات الضعف التي كانت تدفعني للبكاء، فلم أستطع أن احتل.

قلت لحامد في ذاك الصباح الباكر، وأنا ألبس ثيابي واستعد للخروج.

- سأذهب بنفسي الى وزارة الخارجية لأسألهم.

قال بعصبية يائسة، وكأنه لم يحتمل تصرفاتي والحاحي:

- سنتنظر بضعة أيام، فإذا لم تأت منه رسالة، ذهبت بنفسي.

بعد ثلاثة أيام جاءت رسالته:

لا أحد يصدق أن كلمات، مجرد كلمات، يمكن أن تغير الإنسان الى هذه الدرجة. ترك حامد العمل اثناء النهار، وعاد إلى الرسالة. ما كدت أراه يلوح بها من الباب حتى اصابتني قشعريرة لذيذة أقرب الى النشوة. كنت أريد أن أتأكد من وجوده، ولا يهمني بعد ذلك أي شيء. هيات لنفسي أن أقبل مرضه، تعاسته، ضجره، يكفي فقط أن يكون حياً الآن، وأي شيء اثناء الحياة يمكن أن يداوى، الموت الشيء الوحيد الذي لا دواء له، وما دمت أرى رسالته فما زال حياً إذن!

كان فرح حامد بالرسالة يفوق فرحي. رأيت يتابع يدي المرتجفتين وعيني اللتين امتلأتا بالدموع، ظل صامتاً ليلى، وقع الكلمات.. رفعت اليه وجهي أكثر من مرة، لأرد على ابتسامته الصغيرة المشفقة، سحب مني الرسالة قبل أن أكملها، وهو يقول:

- أبلغوني ان اراجعهم غداً.. لا أعرف ماذا يريدون وماذا افعل؟

كان يجب ان يسحب الرسالة، لأنني لم أستطع القراءة أكثر.. ولم اعد بحالة متطيع معها فهم معنى الكلمات أو أن أتشرب لذتها، نظرت اليه بيأس وأنا أقول:

- لا يتركون الانسان يفرح دقيقة واحدة!

قال بطريقة لم أتعودها منه:

- لم نعد نسأل عن الفرح.. كل ما نتمناه ان يتركونا بسلام!

- وما تظن انهم يريدون الآن؟

- في احسن الحالات تهديد واهانات، طبيعي ليس لديهم غير الأشياء السيئة.

- وماذا ستفعل؟

- سأذهب، وسنرى.

ارتمتي على المقعد وكأنه لم يعد قادراً السيطرة على جسده، كان متعباً وأقرب الى الذهول، قلت أشجعه:

- لا داعي للتشاؤم قبل أن نعرف ماذا يريدون!

- هل تتصورين انهم اصدقاء يريدون أن يسألوا عن صحتي وأحوالي؟

صمت، لم أكن أدري اية كلمات يمكن أن تساعد. كنت أفكر بالأيام التي عشناها والتي نعيشها، برجب السجين، برجب المسافر، بالرسالة والمستقبل، مرت في ذهني سيول الصور، وكأنها أشباح تراقص. قال حامد يخاطب نفسه، ولا يهمه ان سمعت أو لم أسمع:

- هل يمكن للانسان ان يعيش بهدوء في هذا البلد اللعين؟ لا أحد ينجو، الذي يعمل في السياسة والذي لا يعمل، الذي يحب هذا النظام والذي لا يحبه.. بلد مجنون ويجب أن يدمر!

وصممتا كلانا. طوى الرسالة، ووضعها على الطاولة الصغيرة، وأشار الى خنـه المراقبة وهو يتسهم. نظرت دون اجيب. انهم لا يقرأون الرسائل فقط، انهم يقرأونها بتحدٍ، يقولون بصوت حاد: لقد قرأناها، نحن نقرأ كل شيء!

اصبحت الحياة عارية لدرجة ان الانسان بدأ يخاف من نفسه، يظنهم موجودين دائماً، حين ينام، ويحلم، حين يسير بالشارع بل وحين يموت.

أتذكر حامد وهو ينتفض غضباً ذاك المساء، بعد ان مانت امي بيومين. اقترب منه رجل لم يره من قبل، ظنه يعزبه بوفاة امي اول الامر، ولكن وجده يسأله: من ذاك الذي يجلس في الزاوية؟ ومن ذاك الذي كان يجلس هنا قريباً من الشباك؟

اجابه حامد عن اسئلته، لكن ما كاد يسأله مرة ثانية وثالثة، حتى انتفض حامد من الغضب، وكادت تنطور الامور، ولولا ان الرجال الموجودين سحبوا المخير، وقالوا له لا يليق أن يسأل حامد بالذات، والأفضل سؤال أي انسان غيره. وأشاروا عليه بمرارة وسخرية ان يركز الى عمود النور في زاوية الشارع، ويطلب هوية كل قادم جديد!

سألت حامد وهذه الصورة تمر في رأسي:

- ماذا نستطيع ان نفعل؟.

- لا أعرف... حائر تماماً.

قلت بصوت بدا لحامد حزيناً:

- الحياة هنا لم تعد تطاق، ولكن اين نذهب!

قال بغضب، كأنه يقاوم لحظات الضعف التي يحسها تنبع من داخله:

- ليفعلوا كل ما يستطيعون، سنبقى هنا، نحن كباقى الناس، وما يصيب

الناس يصيبنا، هذا كل شيء!

لما خرج بدت لي خطواته صارمة متحدية، ولكنها بدت ثقيلة ايضاً. ان الهم، الافكار السوداء، الانتظار، تنعب الناس اكثر مما تنعبهم مواجهة المضاعف. وهؤلاء الأبالسة يريدون ان يقتلوا الناس قبل أن يقبضوا عليهم... «تعال بعد عشرة أيام»، «تعال في بداية الشهر»، «تعال دون أن تقول لأحد، اذا قلت لأحد فسوف ترى!».

كان رجب في السجن مستقراً، أو هكذا كان يبدو لي. لم ألحظ في وجهه علامات القلق والتساؤل. لم أره قلقاً ونادماً مثلما أرى حامد الآن، لقد واجه الحقيقة دفعة واحدة. وانزوع في السجن مثل الزاوية، ولم يعد ينتظر شيئاً اسوأ. حامد الآن لا يعرف ماذا ينتظره... مجرد أسئلة؟ سجن؟ سيقى حتى نهار الغد، التاسعة من نهار الغد، يفترض اسئلة واحتمالات ويجيب عنها، الى ان يسمع بأذنه الكلمات اللعينة التي تنطقها أفواههم المرتخية، وربما دون اهتمام!

كنت أفكر مع حامد، وكنت أنتظر خروجه بلهفة لكي أعود لرسالة رجب. كنت قلقة وفرحة في نفس الوقت، مثل طفلة تريد لعبة وتخاف ان تفقدها، تريدها وتريد غيرها. لمحت فقرات في الرسالة، ولكن لم يترك لي حامد أن اقلها، أو أن أفهمها... الآن يمكن قراءة كل كلمة، سأقرأها مرة، ومرتين، حتى ترسخ في ذاكرتي كأنها مكتوبة منذ الأزل.

قرأت كلمة «مراقبة» على غلاف الرسالة مرة اخرى، بدت لي الكلمة متوحشة، من اعطى هؤلاء الناس ان يقرأوا اعز الكلمات واكثرها قداسة؟ ما يهمهم ان يقول رجل لامرأة: احبك؟ ما يهمهم ان يقول الانسان احب وأكره؟ ورسالة رجب السابقة هل قرأوها؟ وهل عرفوا هدى؟ ماذا لو استدعوا هدى؟ لو سألوها؟ كان من الواجب ألا يكتب عنها، ألا يذكرها. وهل يسألون حامد عنها غداً؟ وحامد ماذا سيقول؟ يجب أن اجد طريقة لأخلص حامد، لأن أدفع عنه الحرج وهم يسألونه... سأقول له ان هدى التي يقصدها رجب هي ابنة عمتي، وتسكن في الريف. ولكن هؤلاء الأبالسة يعرفون كل شيء، وقد تحتوي سجلاتهم اسماء اقربائنا، اسماء أولادهم وأصهارهم... وربما اسماء الكلاب وباقى الحيوانات، ان كانت للكلاب والحيوانات اسماء!

ورجب... ألم ينتبه بالنسبة لهم؟ نشروا اسمه في الجرائد كلها، والذين لم يقرأوا الجرائد تكلفت عناصرهم ان تنقل الخبر اليهم... ظلوا يلوكون اسمه حتى تمزق... ولم تبق امرأة في الحي إلا وسألتني... نساء الحي كن يعرفن، ولكن كان يروق لكل واحدة ان تسأل، أن تسمع بأذنيها وتتلذذ.

ولم يتركوا رجب. انهم يلاحقونه الآن، يقرأون رسائله، وغدا اذا عاد سيسألونه... من تكون هدى؟ أليس هذا اسماً مستعاراً؟ ألا يكون رمزاً لشيء ما؟.

آه لو أن رسالة رجب لم تأت، بعد الانتظار الموجه، تأتي كلماته لتزيد

عداي. تحدث في رسالته عن الجو الموحش الذي يعيش فيه، البرد، الضجر، الأمطار الغزيرة، الثلوج، والناس بوجوههم المغلقة وسرعتهم!

بعد فترة طويلة من الحديث عن الجو الأسيان المعذب، يقول انه لم يتسن له حتى الآن الدخول الى المستشفى. عليه ان ينتظر ثلاثة أسابيع أخرى. وبعض الغموض، يقررون فيما اذا كان من الضروري دخوله أم يكتفون بالعلاج الخارجي! اطلعوا على التحاليل، ووصفوا له دواء بصورة مؤقتة، لكن ذكروا ان عليه اجراء سلسلة من الفحوص الجديدة، وان ذلك لن يتم إلا في بداية الاسبوع الثالث. يقول كان من الواجب ان اتصل بإدارة المستشفى قبل سفري، وأن أرسل التقارير الطبية، وبعد دراستها يقررون الشيء المناسب، هل عي أن أسافر، وفي أي تاريخ. اخطأت أني لم افعل ذلك، تصورت الأمور هنا وفي بلادنا متشابهة.. هنا كل شيء بنظام، بمواعيد سابقة، ويبدو أنهم لا يكتفون بالفحوص الأولية، قالوا اني احتاج الى ثلاثة عشر فحصاً.. لا أعرف اية كميات من الدماء ستمثل بها الأنابيب، وأية أوقات ومشاكل سأواجه.

الداء ينهشه الآن، ينغل في دمه، وحيد هو الآن ووجوه البشر تعرض عنه، لا تراه. كيف يأكل؟ كيف يقضي أوقاته؟ هل يتحدث مع احد، ليتني كنت معه، كان من الواجب ان يسافر معه احد. كيف تركناه يذهب وحيداً؟ لو كان سليماً قوياً لما نددت لحظة واحدة. كان في السجن مع بشر يعرفهم، يتحدث، يضحك، ينام دون خوف.. أما هناك فإنه وحيد لدرجة لا تصدق. لو لم يكن متألماً لما كتب عن ذلك، اعرف مدى احتماله وصمته، كان اذا مرض، حتى حين كان صغيراً يجبر على نفسه، لا يظهر ألمه، لا يتشكى. كانت تستيقظ أمي وتراه يكابد الألم دون صوت. رآته مرة والعرق يغسله، فصرخت حتى ايقظت الجيران. وكان يعاند ويقول ان المأ بسيطاً في إمعانه، وسيزول!

آه لو كنت معك يا رجب.

توقفت طويلاً وأنا أتصوره في فندق كثيب ينظر الى السقف طوال ساعات النهار وجزءاً من ساعات الليل، حتى تنتهي الأسابيع الثلاثة ويستقبلونه في المستشفى! ماذا لو ان حالته لا تحتمل؟ هل يموت قبل أن تنتهي هذه الأسابيع الثلاثة؟ أكاد لا أصدق! لو ان الرسالة انتهت عند هذا الحد لقلت لدموعي ان تكف، ولكن الفقرة الأخيرة كانت بالسة وموحشة حتى تصورت نفسي اني اجرمت كثيراً بحق رجب...

كان من الواجب ان احارب رجب على جبهتين اثنتين: جبهة هدى وجبهة أمي. كنت أتصور رجب يفهم الموت بشكل واقعي، يفهم ان مرض أمي لا شفاء منه، وكان من المتوقع ان تموت، وهي بعد ذلك امرأة بدأت تتقدم في العمر. ومثل كل المسنين الذين يعانون من مرض القلب سيأتي يوم تموت فيه. ورغم الحزن والشعور بالغصة، فإن أي أنسان يفهم هذه الحالة بشكل واقعي، ويتصرف بعقل بعد ان تزول لحظة الكآبة.

هكذا كنت أفترض وأنا أقود رجب الى المقبرة. قلت في نفسي يجب ان يزور قبرها، ليتأكد ان الانسان مهما طال به العمر سيتهي ذات يوم، ولذلك حاربت على جبهة هدى وحدها. كنت أريده أن ينساها بسرعة، ولا يفكر فيها ابداً، لكن رجب يفاجئني الآن، يذهلني، أكاد لا أصدق هذه الكلمات الحزينة، خاصة وأنه يكتبها من هناك!

ظننت في الليلة الأخيرة ان بكاءه كان تطهيراً أخيراً لروحه، لأن أي انسان يموت، لا ينتهي بنظر الذين يحبونه إلا اذا غسلوه بالدموع، الدموع هي ذرات التراب الأخيرة التي تجل الميت وتقول انه انتهى.

تركته في الليلة الأخيرة يبكي لكي يلقي عن كتفيه العبء الذي حمله سنوات، وتصورت ان بكاءه ذرات للتراب التي يثرها على قبر أمي، لكنه الآن يفاجئني. يقول «قبر أمي يا أنيسة.. لماذا تركتموه شقياً منبوذاً هكذا؟ ألا تعني شيئاً بالنسبة لك؟ يجب أن تعرفي تماماً انها تعني لي شيئاً كثيراً، كثيراً ومتزايداً، ففي كل يوم جديد أراها تشمخ وتكبر، حتى أني لا أبالغ اذا قلت لك اني أراها أكثر حياة الآن من أي وقت سابق.

«انت لا تعرفين اني كنت أزور قبرها كل يوم. لم أقل لأحد، وحتى وأنا اكتب اليك الآن، أبدو متردداً حزيناً، وقد يدفعني التردد والحزن الى تمزيق هذه الرسالة»

«كل ما أريده منك يا أنيسة ان تبني قبر أمي. لن يكلف كثيراً، واذا لم تفعلني، وفي وقت قريب، فسوف يقتلني الحزن. كنت أريد ان اكفر وأنا ابكي فوق قبرها. كنت أعفر وجهي بالتراب وأصرخ، لعلها تسمعني وتغفر لي.. والآن، ومن مكاني البعيد، لا أنام قبل أن اوجه لها رسالة، رسائي اليها صغيرة، بسيطة، ولا تتعدى طلب الغفران. اتنى لو كنت قريباً الآن وازور قبرها.. اعلمي من اجلي شيئاً يا أنيسة، ولا تحكمي العقل في هذا الأمر أبداً، انه أمر يخص القلب، ويجب ان لا نفسره لغة العقل».

«ملاحظة: رجاء، في حال اتمام بناء القبر، اتركوا الشواهد خالية دون اية كتابة، أريد أن انظم بضعة أبيات من الشعر، وأفكر بأشياء أخرى!..»

سيقتل رجب نفسه. حل معه قبر أمي ورحل. لماذا كنت ساهية عنه طوال الفترة الماضية؟ كان اذن يخرج كل يوم ليزور قبرها! زارها عشر مرات، وأنا لا أدري! كم كنت غبية. كنت عمياء وغبية، وإلا لماذا لم أفطن له! لا أصدق، لا أتصور انه فعل ذلك. ربما الغربة والوحدة أوحتا له بهذه الافكار الحزينة، ولكن كلماته لا تحتمل الشك، انها بسيطة صادقة، وكأنه لا يخاف أبداً ان يقرأها غيري، بل ويشتهي ان يقرأها الآخرون كنوع من التكفير، يريد ان يبدو عارياً، لم يعد يهمه أي شيء يقال! اية حياة جاعة الروعة والشقاء عشناها معاً؟

كنا صغاراً لما مات أبي، لا.. رجب وحده الذي كان صغيراً. أسعد كان رجلاً كبيراً، ولم يبق معنا إلا سنة بعد وفاة أبي، ثم ذهب، ظل أسعد في نفس المدينة، ولكن قال لأمي ذات يوم، وهو يحمل أشياء ويرحل:

- ما دمت في هذا البيت فلن أفتح بيتاً ولن أتزوج. كل ما احصل عليه نأكلونه، نسرقة ولا يبقى منه شيء!

تذكر أمي هذه القصة، وتضيف: لو انه اكتفى بذلك لما قلت شيئاً، ولما حزنت، لكنه قال كلمة مشؤومة، وهذه الكلمة حفظتها جيداً، ولن انسها حتى اموت. قال الحزير: لو كنت أصب نفودي في بالوعة لامتلأت!

بدأت أمي تخطط الثياب، كانت تخطط الثياب ونحن ننام، بعد ان تنتهي من اعمال البيت الشاقة، كانت تقوم بأعمال لا يقوم بها الرجال. كانت تبني سور البيت اذا انهدم، تكسر الخطب، تنقله الى الداخل، كانت تزرع بعض الخضروات وتعني بالدجاج، فاذا انتهت التفتت الى ثيابنا، تغدد، ترفع بعناية الى كل خرم، ترفو، حتى اذا اطمأنت الى ثيابنا ونظافتنا وأكلنا، ولم نعد لنا أية طلبات، تحولت الى ثياب الجيران، تسهر الليل لكي تنتهي منها بسرعة وتحصل على غيرها.. لم تكن تشكو، ولم نسمع منها كلمة شتيمة، حتى جاء يوم قالت لي بنعمة رفيقة، حاولت كثيراً ان تدخلها الى قلبي مباشرة:

- تعلمت بما فيه الكفاية يا انيسة، ما رايتك لو ساعدتني في الخياطة، حتى بأن ابن الحلال؟

ظللت صامتة، لا أعرف كيف اجيبها، كانت تستطيع ان تقرر وحدها، ولم تكن بحاجة لكلماي، قالت تتابع كلماتها الحزينة، لكي لا تتركني مترددة:

- يجب ان نعمل، أنا وانت، من أجل أن يتعلم اخوك، اذا لم تساعدني، فسوف نضيع كلنا.

كنت موافقة، كنت راضية، لكن صمتي، الذي خلفته حيرتي دفعها لأن تقول بعض الكلمات:

- ما كنت لأطلب منك، لو ان عيني تساعداني.

وبكت وهي تضيف بصوت مرتجف:

- لم اعد أرى يا انيسة، عميت، لا أعرف كيف ادخل الخطب في الابرة... اذا ظللت وحدي فسوف تموت من الجوع.

وقضينا خمس عشرة سنة لم نفتق خلاها. كانت تساعدني في كل شيء، تقوم عني بكل الأعمال التي تستطيعها، ورغم أنه تحلل الخمس عشرة سنة مشاحنات كثيرة بيننا، إلا أنها لم تدم أكثر من ساعات. لا أتذكر اني نمت ليلة دون ان احس برضاها يغمر البيت كله.

وخلال هذه الفترة، كان رجب سلوتنا الوحيدة. كنا نذوب من اجل ان يكبر بسرعة، ويصبح رجل البيت. وحتى لما كان صغيراً كانت أمي توحني في كل يوم، ان في بيتنا رجلاً أكبر من كل الرجال. ننظر اليه بلذة وهو يصنع طائرات الورق، ونستجيب عندما يلح على أمي بأن تصنع له كرة من الخرق، كان يريد لها كبيرة مشدودة ومستديرة تماماً، ومن أجل ان تكون كذلك، تظل أمي تشدها بين يديها بصعوبة، وأجاهد لكي أسيطر عليها بالآبرة، وبعد أن تنتهي، يرميها بغضب: «انظري.. ليست مستديرة تماماً، انها مستطيلة، انها رخوة». ونعيد خياطتها من جديد حتى يرضى!

كنا نرقبه كل يوم. لم أكن أراه يكبر أبداً، وفي لحظات كثيرة أضيق بتصرفاته وأغضب، وأمي اذا جرى الحديث عنه، وكثيراً ما كان يجري، تقول لي وكأنها تتحدث عن انسان لا أعرفه:

- آه لو تذكرته لما كان صغيراً، كان طوله لا يزيد عن يدي من هنا الى هنا، وتشير بيدها، ورغم صغره يملأ الدار صراخاً وعريضة. لم يكن يبكي كثيراً، لكن اذا

بكى لا أحد يصدق ان هذا الصوت يصدر عن هذا المخلوق البائس الصغير. اجل
كان عتيداً منذ صغره!

وتستريح امي في احضان الذكرى، ثم تعود لتواصل الحديث بلهجة جديدة بعد
ان تتلمظ:

- الآن.. لا يزعج احداً.. ازعاجاته قليلة، ولا نقاس بالسابق، ومع ذلك
يجب أن نتحمله.. انه حنون يا انيسة، ألم تريه كيف اشترى لنا قطعتين من القماش
من قروشه التي جمعها قرشاً فوق آخر!

ونمر الأيام، وعلاقتنا نمر معها في الدهليز المعتم، لنخرج في النهاية الى الضوء
المشع الجامح. اصبحنا اكثر من اخوة، اكثر من اصدقاء، كان يبوح لي بكل شيء،
حتى خصوماته الصغيرة التي لا يتعدى عمرها يوماً واحداً. وعندما بدأ يقرأ، بدا
مجنوناً، كأنه اكتشف القراءة صدفة، واكتشفها وحده دون مساعدة احد.

بدأ يقرأ دون توقف، وكلمات امي، وهي تلح عليه ان يقوم ليأكل، أو ان
يتوقف عن القراءة بعد أن صاح الديك ولم يبق احد ساهراً، كانت كلماتها تذهب
هباء.. ولم يكن يستجيب إلا اذا خانه السهر أو انتهى الكتاب.

كان اذا انتهى من قراءة الروايات، التي تسميها امي روايات اللصوص وقطاع
الطرق، يلقيها بعيداً، وكأنه يتخلص من عار أو من شيء كرهه، ويقول لي بصوت
حالم:

- انيسة.. هذه الرواية رائعة ويجب ان تقرئها!

- ولماذا رميتها بهذا الشكل؟

- لأنها جيدة ولا أطيق أن تظل بين يدي.

- لماذا؟

- لأنني سأبدأ أقرأها مرة ثانية.

- ولكنك انتهيت الآن من قراءتها.

- أستطيع ان أقرأها مرة أخرى، هل تراهنين؟

- لا أراهن.. ولكن من العيب ان يقرأ الانسان رواية مرتين.

- اذا كنت لا تريد ان أقرأها مرة أخرى، اقرئها انت.

- بالتأكيد سأقرأها.

ويعضي اليوم الاول، ولا أقرأ إلا صفحة أو صفحتين، فاذا سألتني أقول له: لم
يبق لي إلا صفحات قليلة.. ويبدأ يسألني.. واخجل لأنني لا أفهم شيئاً مما يتحدث
عنه، حتى اذا اكتشف كذبي قال لي بصوت احسه لرجل كبير، مثل أب:

- أتحبين أن نقرأها معاً؟

- اتركها لي، غداً سأقرأها عندما تكون في المدرسة.

- واذا جئت ولم تنتهي منها؟

- افعل ما تشاء؟

- لا... أريد أن أهداها.

وتذهب رواية لثاني أخرى، وأنا لا أستطيع ان أقرأ إلا القليل، حتى اذا رأي
كسولة ملولة، اقترح علي ان نقرأ بعض الفصول بصوت عالٍ، انا أقرأ فصلاً، ويقرأ
هو فصلاً آخر.. ولكن لم نجد محاولاته كلها.

ظللت أتابع قراءاته دون ان اشترك فيها، حتى جاء ذلك اليوم، الذي بدأ يخفي
فيه الكتب عني.. اكتشفت ذلك صدفة.. بدأ يغلف الكتب اثناء قراءتها، لكي لا
أرى عناوينها، وبدأت اللهفة تأكل قلبي لاكتشف عالمه الجديد.

منذ ذلك الوقت، بدأت رحلة الخطر.

اخفيت عن امي الامر وقتاً طويلاً، وأخذت اتجنب الحديث عن رجب، لأن اي
حديث عنه سيجرني بشكل أو بآخر، للنقطة الخطرة التي بدأت أخاف منها واحميها،
ولا أريد لأمي ان تقترب منها ابداً، لكن محاولاتي لم تلبث ان اصطدمت بالأوراق التي
يضعها تحت الفراش، تحت السجاد. كانت تأتي بها امي والاستغراب يملأ وجهها:

- انيسة وجدت هذه الأوراق تحت الفراش.. ما هذه الأوراق؟

- أوراق رجب يا أمي!

- ولكن ما فيها؟

- دروسه، وأشعار يا أمي.

- وهذه الصورة؟ وهذا... أي شيء هذا؟

- اشعار يا أمي.

ونتظر إلى باستغراب، وأهرب من نظراتها، لكن لم يطل الأمر.

سألت أمي رجب عن ورقة قلت لها انها قصيدة، انتزعها من يدها بغضب وأخفاها بسرعة، ولما ألحت عليه لتعرف، قال خا:

- هذه ثمارين رياضية!

- ولكن أنيسة تقول انها أشعار.

- وهل رأيتها أنيسة؟

- انا التي قلت لها، انا التي سألتها؟

- ومن رآها غيرها؟

- لا أحد...

وبدأت أمي تعرف!

كانت أيامنا تلك الفترة مشحونة بالخطر والانتظار. رجب يغيب عن البيت أوقانا طويلاً، وبعض الليالي لا تعرف أين ينام. وأمي لا تنام حتى يعود، وفي محاولة لإقناع أمي، لكي لا تسأله، أو تضايقه بدأ يدفعها لكي تسير في طريق الجلجلة، كما كان يقول ويضحك. بدأ يعطيها أوراقاً ودون كلمات كثيرة، وبعينه أو بطريقته عندما يضغط على يدها، يطلب منها ان تخفيها في مكان أمين، وبعد ان تعودت إخفاء أوراقه، دون احتجاج، دفعها لأن تحمل الصليب، كان يطلب منها أن توصل بعض الأوراق لاصدقائه، أو أن ترشد رجلاً يأتي الى بيتنا، ولم نره من قبل، الى بيت صديق.

وتزوجت، انتقلت الى بيت جديد، وظلت أمي في بيتنا الأول. لكن هذا لم يستمر طويلاً. فبعد ان صار رجب يغيب عن البيت فترات طويلة، ويسافر، لم نجد وسيلة إلا أن تنتقل أمي للسكن معنا، وأن نتظر نهاية ما لهذه الحياة القلقة المكهربة. كنا نخاف عليه، ونحاول، أنا وأمي، أن لا نتكلم عن المستقبل، ولا أن نتذكر

قصص السجناء والقتل، وحامد صامت لا يتدخل ولا يسأل.

هكذا بدأت الأمور... وهكذا انتهت.

رجب الآن بعيد، يأكله السأم، ويعذبه الانتظار. ولا أعرف الى متى سيطول غيابه؟ وإذا عاد فكيف يبدأ من جديد؟

اتخى لو نستطيع ان نهرب من هذا البلد، ولكن الى أين؟ وهل الأماكن الأخرى تستقبل لاجئين يبحثون عن الحرية ولقمة الخبز؟ والحرية والخبز... هل يوجدان في الأماكن الأخرى وهل يعطونها للغرباء؟ وقبر أمي؟ لقد ولدنا في لحظة شقية. وما زلت الى الآن أتذكر كلمات أمي، وهي ترددها بمرارة:

- ما بال الدنيا تغيرت! أيامنا كان الناس يحبون بعضهم ولا يبحثون عن الشقاء! الآن الأخ لا يعرف اخاه، كل واحد يا نفسي... ليس هذا كل شيء، القتل، والسجون، يأخذون الرجال ولا أحد يعرف الى أين أو الى متى... الدنيا في نهايتها، ولا يمكن أن تبقى هكذا.

ورحلت أمي وتركت الدنيا تغور ونحن أكثر من قبل. ولا يعرف الى متى أو الى أين؟ لا لن أقول لحامد كلمة واحدة. لا أريد أن أتدخل، ان اقنعه بشيء، ليتصرف كما يريد. ورجب هل ساعدته؟ هل قتلته؟ لا أعرف.

بعد ايام قليلة اصبحت الصورة واضحة.

حامد يشتم ويعربد، منذ ان عاد ذلك اليوم. قالوا له «ستدخل عوضاً عنه اذا لم يعد خلال شهر من الآن...» والى ان يأتي يجب ان تذهب كل يوم ثلاث مرات لتوقع بالحضور في مركز الشرطة. لما حاول أن يسأل، ان يعترض، قالوا «لا نريد ان نتكلم كثيراً... رجب الذي كفلته لم يرسل لنا أية رسالة منذ ان سافر...» ليس هذا كل شيء، وإنما بدأ يتصل بالطلاب ويحرضهم ويشتم الحكومة... وسيدفع ثمن هذا غالباً.

ولم يقتصر الأمر على ذلك.

في السكون الميت الذي يسيطر على كل شيء، انطلقت رصاصات وقتلت اجدد وثلاثة آخرين، قالوا: انهم حاولوا الهرب. وكتبوا: «حاول الحرس القاء القبض على المجرمين، ولكن المجرمين الذين حاولوا الفرار استعملوا أدوات جارحة متعددة في

ضرب الحرس، ادت الى جرح ثلاثة، وجروحهم خطيرة جداً، وعلى اثر ذلك تبودل اطلاق النار فسقط اربعة من السجناء قتل، وجرح سبعة من رجال الشرطة. وقد بدأ التحقيق لمعرفة أسباب الحادث، وسوف تداع التفاصيل في وقت لاحقاً.

ولم يذكر شيء بعد ذلك، لم يعد لديهم ما يقولونه، لأن الحياة اضطربت مرة واحدة، على اثر المظاهرات التي بدأت منذ يوم الاثنين، ويبدو انها لن تنتهي بسرعة.

هل اكتب لرجب؟ وإذا كتبت هل يتركون رسالة تحمل اخباراً خطيرة تصل اليه؟ وماذا سيقولون لي ولحامد؟ وعن أي شيء يمكن أن أكتب، عن أمجد؟ عن المظاهرات؟ عن حامد الذي يبدأ بالشئمة، قبل أن يغادر البيت بساعة، لكي يذهب الى مركز الشرطة؟ ان حامد الآن يجتاز خطوات صعبة. لو كان رجب هنا لحدثه عن ذلك، لقلت له كيف اني أسمع حامد في الليل وهو يشتم الحكومة والنظام، وكيف يشد قبضته ويهدد.

اصبحت أخاف كثيراً هذه الأيام. احس الدنيا تغلي وتكاد تحترق، واشكر الله ان رجب بعيد. لو كان هنا لفقدته، لأخذه، وربما يقتلونه هذه المرة. اعرف رجب، لا يمكن أن يبقى في البيت. ولا يمكن أن يسكت، وهم ليسوا بحاجة الى ادلة، لديهم منها الكثير! وحتى في مرضه وغيبته يلاحقونه. يقولون انه يشتم، يحرض الطلبة، انهم يكذبون، يريدون ان يبقوا حامد رهينة، حتى يتعاون معهم رجب أو يعود!

سوف أترك حامد يتصرف، أشعر اني مريضة وأفكاري وتصرفاتي غير مترنة، وكثيراً ما أندم على كلمة أقولها!

قلت لحامد والدموع تنهمر من عيني دون ارادتي:

- ألا ترسل لرجب برقية تطلب منه أن يعود؟

- لماذا؟

- لكي تنتهي من هذا العذاب الذي يسببونه لك كل يوم!

- وهل تتصورين انهم سيتركونني بعد الآن؟ أول أمس عندما ذهبت في المساء لمركز الشرطة رأيت واحداً منهم، قال لي وهو يسحب الدفتر الذي أوقع فيه، يراجعه ليتأكد:

- اسمع يا حامد، الاخبار التي تصلنا عنك، نجعل وضعك خطيراً... بدأنا

نسمع ان لسانك لم يعد يدخل حلقك. وأنت تقول كذا وكذا... لا تريد الآن ان نحقق، ولكن انتبه.

هذا ما قالوه أول أمس، ويبدو انهم لن يتركونني بعد اليوم! لن يتركونني اذا جاء رجب أو لم يجيء!

ولكن كل ما يفعلونه بسبب رجب للدفاع عن أنفسهم، لقد بدأت الأمور تنضح لي اكثر من السابق!

كتبت رسالة قصيرة فكرت ان ارسلها الى رجب. حاولت ان أقول له كلمات ذات معنى، ولكن لما انتهيت من كتابتها مزقتها أول مرة، ومزقتها في المرة الثانية، ويبدو أنه لن يقرأ هذه الرسالة، وحتى لو قرأها لن يفهم منها شيئاً.

قلت له أن يعود بسرعة، وحالما ينتهي من العلاج، وعللت ذلك بالشوق الذي احسه انا والاولاد نحوه، ولم اذكر اسم حامد. وقلت ان العناية في المستشفى مهما بلغت فلن تصل الى مستوى عنائي.

هل سيدرك رجب ما أردت أن أقوله؟ ولماذا لم أقل لحامد عن هذه الرسالة؟ والآخرين اتبدو لهم عادية لدرجة انهم سيقولون لأنفسهم امرأة تكتب لأخيها المريض؟ تكتب له عن شوقها وشوق اولادها اليه، وعن العناية... والأكل.

احس تغيراً في كياني لم احس بمثله حتى عندما كنت حاملاً. حملت أربع مرات، وفي المرات الأربع، كان الجنين في بطني وهو يتحرك، يغير مشاعري، يجعلها مضطربة وخائفة، ولكن لم احس ان شيئاً في يموت، هذه المرة احس ان شيئاً يموت، كنت وأنا اعاني من القيء والأوجاع الظهر، اعطي الحياة لمخلوق جديد، ادفعه بقوة نحو النور، لكي يصبح كياناً له عينان وابتسامة... الآن احس اني التحمل القيء والأوجاع... أفقد جزءاً من نفسي، جزءاً لا عينان له ولا ابتسامة، تسيطر علي لحظات من الخوف أقرب الى الفرع، فأتصور ان الدنيا تهتز، تنتهي.

هل مات رجب؟ هل بدأ يعاني من مصاعب جديدة؟!

وحامد الى متى يتحمل نتائج اعمال غيره؟ لقد هدته السنوات الخمس، تحملها بصمت، وكنت أتصور انه بمجرد خروج رجب من السجن، ستبدأ حياتنا التي طالما انتظرناها. لكن يلوح لي الآن انه لا حق لنا حتى في أن نأمل، ان نتنظر سوف تنتهي كمخلوقات فاقدة كل شيء: الحرية والمستقبل والأمل.

إذا جاءت رسالة جديدة من رجب، فسأقول لحامد بإلحاح ان يبعث اليه يطلب منه ان يعود، خاصة اذا كانت صحته تحتل!

الايام تمر، مجموعة من الايام الكثيرة، تتراكم بعضها، ولا أحد يعرف كيف ستنتهي ومتى! رجب بعث ببطاقة من مرسيليا، بطاقة غامضة أقرب إلى الانذار، لم يذكر عن صحته شيئاً، وقال انه يسافر لمدة أسبوع، وسيكتب بعد ذلك.

أين تسافر يا رجب؟ وماذا بقي لتفعله؟ ألا تستطيع أن تراف بنا؟ ألا تفكر كيف نعيش هذه الأيام الصعبة؟ يجب ان تعرف، لن اكتب، لن أقول لك كلمة واحدة، ولكن يجب أن تعرف دون كلمات، كما كانت أُمي تفعل.

كانت أُمي تنخرط في البكاء فجأة، ثم تنوح، كما لو أن رجب مات. فإذا تعبت من البكاء تصلي ركعتين وتدعو الله. كنت اسمعها تدعو وأفهم: «يا ربي ليس لي غير هذا الواحد، الشيطان وسوس لي أنهم قتلوه، وأنت مالك الملك، الطيف به، ارحمه، انه وديعة عندك».

كانت الأفكار تتوالد في رأس أُمي، مثلها تتوالد نباتات السرخس، كانت تتوالد باستمرار، دون ان يقول لها احد!

وكانت تتراءى لأُمي، في دوامة الحزن، أشياء كثيرة: «رأيت مناماً يا أنيسة، رأيت رجب عريساً. طنت اذني اليسرى يا أنيسة، لا بد ان رجب يواجه مصاعب، ألا تظنين ذلك؟ قلب الأم لا يخطيء، قلبي يقول ان رجب مريض».

وأنت يا رجب ألم تر حلتماً؟ واذنك اليسرى ألا تزال تستقبل الاصوات دون ذلك الطنين الذي يوحى بمصيبة ما؟

قبضوا على حامد. أوقفوه أربعة ايام، وقالوا له بسخرية: «مقدمة، فكر وارجع بعد اسبوع» ماذا يستطيع حامد أن يفعل؟ هم تركوا رجب يرحل، وافقوا على سفره، حامد لم يفعل أكثر من أن يوقع على ورقة، قالوا انها لا تعني شيئاً، ومجرد استكمال للشكليات. ابرزوها له، قالوا: «هذا التوقيع ليس توقيعك؟» لماذا ينكر؟ انه توقيع. وقع وهو يتنسم، دون خوف. والآن يقولون «ابعث لرجب أن يأتي». ليس هذا كل شيء، إذا ارسلت له مائلاً فسوف تقضي في السجن عدداً من الايام مساوياً

للالاموال التي ترسلها. نريده أن يعود، وليس أمامه إلا أن يعود اذا لم ترسل له شيئاً!

وأنا ماذا استطيع ان افعل ازاء عناد حامد وردوده الحازمة؟ يقول بعصبية:

- هم الذين سمحوا له بالسفر. وهم دولة، ليحضره ان كانوا قادرين. ليس لي علاقة منذ بداية الأمر. اما المال، فأنا لا أرسل له من مالي، أرسلت له جزءاً من ثمن الدار التي تركها له أبوه!

- والى متى سنبقى بهذا الشكل يا حامد؟ كل يوم في مركز الشرطة، كل يوم توقيف وسجن؟

- اسمعي يا أنيسة، أصبحت القضية قضيتي، بالنسبة لي مسألة كرامة، لم اكن أتصور انهم هذه الدرجة من الخسة. كانوا يتسمون عندما وقعت الورقة. كانوا فرحين وقالوا له كلمات عادية. الآن يريدون ان اقع في المصيدة، بدل رجب حامد، وحتى لو لم يكن رجب، فإنهم قادرون على اختراع الف قضية!

وحامد لا يكتب إلا ما يريد، يقول لرجب، لا تهتم من ناحية المال، سأدبر لك ما تحتاجه. اعتن بصحتك وعد حالماً تجد ان عودتك مناسبة، اقصد من ناحية صحتك، وعندما يقرأ هذه الجملة، يتوقف عندها ويغمز بعينه ويضحك، يريد ان يفهم رجب بسرعة ما قصده!

قلت له وهو يتنزع مجموعة من الأوراق النقدية، ويرسلها مع صديق لكي تحول من خارج البلاد:

- ولكن سوف تنتهي، يا حامد. تنتهي ذات يوم، كيف نستطيع ان نؤمن له المال، بعد ذلك؟

- لن ينتهي المال خلال فترة قصيرة، وحتى لو انتهى، استطيع ان ادبره له!

- من اين؟ كيف؟

- وضعت جزءاً من ثمن بيتكم في صيدلية، عند صديق، والربح، وبعض الديون الصغيرة كافية!

- واذا سجنوك؟

- قلت لصديقي ان يحول له مبلغاً كل شهر، سواء كنت موجوداً أو لم اكن، وقد اعطيته العنوان.

- ولكن يجب ان يعود.

هكذا كانت الأيام تمر، ورجب لا يكتب إلا رسائل قصيرة متباعدة، ولا يذكر شيئاً عن عودته، كتب ان صحته تحسنت، ولكن بحاجة الى مزيد من العلاج، انه مضطر للبقاء فترة، وفهم حامد كلماته ولم يعترض.

ومهما ضاقت الدنيا ومهما صغرت، فإن فيها شقاً ينفذ منه النور ويحمل الهواء. فبعد المظاهرات التي انفجرت قبل شهرين، وراح فيها العشرات من القتل والجرحى، يبدو ان الانفراج الذي بدأ قبل عشرة أيام سوف يمتد ويستمر. رغم تشاؤم حامد وشتائمهم. قالوا له: سنطلب اليك ان تراجعنا في وقت آخر، لا نريدك أن تأتي بعد اليوم لمركز الشرطة. ورغم الحاحي ان يبعث برسالة يؤكد على رجب بالعودة، فإنه يهز رأسه دلالة الرفض، ويقول وقد تخللت عينيه تلك النظرة الماكرة اللذيذة:

- لن تطول هذه الفترة.. كل الذين اعرفهم يقولون انها لن تطول، رغم البيانات والكلمات الكبيرة، ورغم الحكومة الجديدة، فإن كل شيء سيعود الى ما كان عليه، وربما أسوأ.. وخلال فترة قصيرة!

لا أعرف كيف يفكر حامد، لماذا يتطلع الى الأمور بهذه النظرة المتشائمة، ولكن يبدو ان الرجال لا يحبون الايام السعيدة، ولا يحبون الراحة، يفتشون بالحاح عن المتاعب والشقاء. فحامد الذي ظل صامتاً طوال خمس سنين، يتحول الآن الى رجل أكاد لا اعرفه. بدأ يستعمل كلمات قبيحة أقرب الى الشتائم، في حديثه العادي، بدأ لا يتكلم مع الناس إلا في السياسة، ولا يكتفي بذلك، فرجب وهو يسافر يودع روحه التي حاصرها خلال سنوات السجن في حامد، لا أظن انها تحدثا، أو اتفقا على شيء، فهؤلاء الرجال يفهمون بعضهم بطريقة سرية وغامضة.. وإلا كيف تفهم الأمور.. وكيف تفسر؟

رغم القلق الذي لا يتركني لحظة واحدة، والذي يدفعني لأن أفكر برجب مثلما كانت أمني تفعل، فإني الآن اخصص جزءاً كبيراً من وقتي للعناية بالأولاد، وأرقب حامد وحياته الجديدة، كما أحرص على زيارة قبر أمني كل أسبوع، بانتظار أن يبعث رجب بالكلمات التي يريدتها، ولكنه لم يعد الى ذكر الموضوع بعد تلك الرسالة التي

ارقتني اباماً طويلة، ودفعني لأن الح على حامد حتى أنه بنى القبر خلال ثلاثة أيام!

ذات مساء، بعد الغروب بساعة، وكان المطر يتساقط ويولد في النفس ذكريات مدفونة في أعماق القلب، طُرق الباب، كانت طرقات ناعمة، خجولة ولا أعرف لماذا تراءى لي طيف رجب، نظرنا في وجوه بعضنا بشاؤل لم يكن فيه اثر للخوف الذي تعودناه، كلما سمعنا طرقاتاً على الباب بعد الغروب.

قام حامد ليفتح، وتراكض الصغار خلفه كالقطط، أما أنا فقد أحسست أن قلبي تزداد ضرباته مع اقتراب الخطوات نحو الباب، حتى اذا انفتح، وبان لي وجه غريب تحت النور، اجفلت وقلت في نفسي: لقد جاءوا مرة أخرى!

رأيت حامد يطلب منه ان يدخل، كان طويلًا، وقد زاده المعطف الطويل ضموراً، فبدأ أقرب الى الدمية وهو يخطو خطوات واسعة ويتلفت. كنت في هفة لأن أعرف أي شيء عن الرجل، خاصة، وأن كلمات حامد القليلة لم تكن تحمل حرارة أو اهتماماً، بل وكانت أقرب الى البرود. لم يمض وقت قصير حتى جاء حامد. رأيت ابتسامة صغيرة تطفو فوق وجهه، ولم يتركني أسأله، رفع رسالة مطوية ولوح بها في الهواء، ثم قال:

- رسالة.. هل تعرفين رسالة من أين؟

خطفتها دون ان أجيب، لم اخطفها، وإنما اقترب مني لكي يتيح لي ان التفتها بسرعة، ويبد مرعقة حاولت فتح الغلاف فتمزق، واللهفة ما تزال مثل خيط النار تدفعني لأن أعرف شيئاً. قال حامد وهو يلتفت ليرجع:

- أريد أن أقرأها.. افتحها على مهلك!

رسالة رجب. ولكن لماذا بعثها هذا المرة عن غير طريق البريد؟ هل فيها أخبار سيئة، وجاء هذا الرسول لينقلها؟ وماذا لو كان مريضاً وبعث الينا أن نحضر، ان ننقله قبل أن يموت؟ لا يمكن ان يلجأ رجب الى مثل هذه الطريقة لو لم يكن مضطراً.. لماذا اعذب نفسي بالأسئلة والأفكار؟ لأقرأ الرسالة.

كانت ليلى تقفز حولي، تسألني بالحاح عن الرسالة، أما الأولاد فقد سمعت أصواتهم وضحكاتهم حول باب الغرفة التي يجلس فيها حامد وضيئه، لم انتبه لشيء لما بدأت عيوني تقفز بسرعة فوق الكلمات، أريد أن أفهم، ان اعرف شيئاً عن رجب:

لأول مرة، منذ سنوات، أحاول أن أكتب بحرية. لا أفكر أن أكتب بحرية كاملة، لأن هذا مستحيل، ولكن بحرية أكثر من أي وقت سابق.

لا أعرف كيف استغل الحرية المتاحة الى الحد الأقصى. أريد وأخاف.. ليس في ذهني افكار محددة أريد أن أقولها، والافكار التي أحبها أخاف أن أقولها.

قبل كل شيء صحتي ليست سيئة، احسن من قبل بكثير، ولكن النظام القاسي المفروض عليّ يجعلني أحس وكأنني انسان هش، أو بالأحرى انسان مؤقت. اذا اختل نظام العلاج يوماً واحداً تعرضت لنكسة وربما لفترة طويلة، لذلك أتبع الآن بصرامة نظاماً قاسياً، أشعر أنني لا أستطيع أن احتمله ولكن سأحاول.

هذا ما ينبغي ان تعرفوه الآن، ولكن ما يهمني ويشغل تفكيري كثيراً، امور اخرى قد لا تخطر على بال:

يشغلني الآن يا أنيسة امران: الأول ان اكتب والثاني ان اسافر لجنيف.

لا تستغربي ولا تقولي الكلمات التي طالما رددتها من قبل. كما لا أحب أن أدافع عن نفسي. الكتابة لمن ومتى؟ هذا سؤال لا أعرف له اجابة. افكر ان اكتب اشعاراً وروايات، ولدي افكار كثيرة، ولكن ما أرغب فيه شيء جديد تماماً. فكرت في الطريقة ولم أستطع أن أصل، وما ازال أفكر. يبدو لي ان الشعر لا يمكن ان يكتبه إلا انسان واحد، لأنه سيل من الأحاسيس الداخلية، في لحظات هاربة، فاذا لم يستطع الانسان السيطرة على هذه اللحظات، توارت وانتهت.. هذا ما توصلت اليه. الشيء الذي لم أستطع أن أتوصل اليه الآن، كيف يجب ان تكون الرواية. أريدها ان تكون جديدة، بكل شيء: ان يكتبها اكثر من واحد، وفيها اكثر من مستوى، وأن تتحدث عن امور هامة والأفضل مزعجة.. واخيراً ان لا يكون لها زمن...

من الصعوبة ان انقل افكاري الى الورق، لو كنا نتحدث الآن معاً لفهمتم ما أريد أن أقوله بسهولة اكثر... اسمعي: أريد أن نكتب معاً رواية، ومن نحن، ليس انا وأنت فقط، بل وأريد ان يكتب الصغار. لو كتب عادل بعض الأشياء، وتركناها على بساطتها وصدقها، ولو كتب حامد، ولو كتبت أنت، ثم اكتب أنا بعد ذلك، لو هذا الشيء حصل، ضمن اطار ما، فإن ما نكتبه معاً، سيكون شيئاً

جديداً وجيلاً. ماذا تقولين؟ وحتى لا نضيع في دوامة قد لا نخرج منها، فمن الضروري ان نحدد موضوعاً ونكتب فيه. التعذيب مثلاً، كيف تتصورين الموضوع؟ كيف يتصوره انسان من الخارج؟ وليس أي انسان، انسان له علاقة بشكل ما، في مستوى ما.

طبعي يجب ان يكون للموضوع امتدادات كثيرة ومتباينة: الذكرى، الاحاسيس، العلاقات وغير ذلك. وطبعي ايضاً ان انظر من زوايا مختلفة. هذه الزوايا المختلفة ضرورية لكي نرى الشيء من جميع جوانبه، فاذا ارتبط الموضوع ايضاً بالأزمان العديدة، اصبح شيئاً جديداً. مثلاً: كيف يتصور عادل، وكيف يتصرف، وماذا يتفرع عن ذلك؟ وحامد وأنت وأنا. اذا نجحنا في ان نحاصر موضوعاً معيناً، من هذه الزوايا، يمكن ان يكون موضوعاً ناجحاً. لست متأكداً ولكن هذا ما أتصوره، أو بالأحرى ما أطمح اليه.

لمواجهة الاعتراضات، علينا أن نتبع البساطة ونعترف. الاعتراف، بالكلمات العادية الصغيرة، يلزم كل واحد أن يقول كل شيء بغض النظر عن القواعد، وما يتفرع عنها من وجود امكانية أو خبرة سابقة. وبهذه الطريقة ننتهي الى شكل جديد!

هذه هي الفكرة الاولى التي اطلب منك ان لا ترددي في الموافقة عليها. ومع رسالتك هذه رسالة لعادل، لأنه الآن في سن يستطيع فيها ان يقول شيئاً، ولا تتدخل لمساعدته إلا في أضيق الحدود. ورسالة اخرى لحامد. لو كانت أمي موجودة لاستطاعت ان تقول شيئاً مهماً ولكان الموضوع في النهاية مجنوناً ورائعاً؟

الفكرة الثانية التي تشغلني الآن، الى جانب الرواية، أو الطريقة الجديدة في الكتابة، هي فكرة السفر الى جنيف وتقديم مذكرة أو لوحة عن العذاب اللاإنساني الذي يواجهه السجناء السياسيون في الوطن.

أعرف ان الفكرة خطيرة ونتاجها غير مضمونة، لكن يجب أن يُعمل شيء من أجل الناس الذين يعذبون ويموتون.

لا تستغربي اذا قلت لك، ام اهم دافع لسقوطي، لنهايتي، كما تبدو لجميع الناس، ولي انا بالذات، أن أسافر الى الخارج، خاصة الى جنيف، وأن أقول كلمات للناس، كلمات لا تهدف الى التأثير العاطفي، وإنما الى فعل شيء غير

محدد.. الكلمة ليست السلاح، ضماير الناس، عقوفهم، واجبههم، السلاح الحقيقي.

لست متأكداً مما يجب ان افعله. سأدرس الأمر كثيراً قبل أن افعل اي شيء، لكن أتصور السكوت الآن جريمة كبرى، جريمة يدفع ثمنها الناس المتفنيون على شاطئ المتوسط الشرقي، بتفديري جميع الناس، ولكن أكثرهم السجناء السياسيون.

ماذا بعد يا أنيسة؟

الأفكار أكثر من أن تحصى، الأحاسيس في قلبي تولد العذاب واللوعة، وأي انتظار، أي سكوت مشاركة، بشكل أو آخر، مع الجلادين، صفعات توجه لجميع البشر، خاصة للسجناء!

كلمة أخيرة.. كنت أريد ان يكتب على قبر امي كلمات لها مغزى معين. فكرت بالأمر طويلاً، ولما كان مستحيلاً الآن كتابة هذه الكلمات، فلا أقل من كلمة أو اثنتين، لها دلالة معينة.

ما تتصورين، هل يمكن كتابة كلمة الوفاء على القبر دون ان تؤدي الى متاعب أو ازعاجات؟ أتصور ذلك. لو كانت في بلادنا حرية، ادنى درجات الحرية، لكتبت على القبر كلمات أخرى.. «صمود امرأة في وجه الطغيان» أو «صمود عجوز في وجه الجلادين» أو «هنا ترقد المرأة التي تحدث الجلادين دون سلاح، سوى الغضب!».

هذا ما أردت أن أقوله لك الآن. حامل الرسالة سيعود الى هنا بعد أسبوعين، أرجو أن ترسل لي أوراقك، والأشياء التي كتبها عادل وحامد، والتي كتبتها انت، بعد ان أقرأها قد أفكر بكتابة شيء، وقد يكون هذا الشيء مفيداً.

تحياي الحارة للجميع.

أردت أن أقرأ الرسائل الآخرين، ولكن الكلمات التي كتبها رجب لعادل، جعلتني اكف وشعرت بالحجل. قال له: «أرجو أن تقرأ هذه الرسالة وحدك، دون عيون الآخرين، خاصة عيون امك».

كلمات من هذه التي قرأتها؟ رجب؟ وأي رجب؟

كان يحبس نفسه قبل عشر سنين ساعات طويلة في الغرفة الداخلية، ويكتب ماذا كتب؟ لمن كتب؟ لا أحد يعرف سوى النيران. كان يغرق في عالم الدخان والورق، فترات طويلة، حتى اذا انتهى، يقول لي ولأمي بصوت عالٍ:

- سأحتفل الآن على الطريقة المجوسية. لقد وضعت في هذه الأوراق ائمن ما عندي، والآن أريد أن أقدمها قرباناً للنار!

تمنيت أن أقرأ شيئاً مما كتبه، حاولت، لكن لم أستطع. كان يحرص على أن يقدمها بنفسه للنار، ويظل يتطلع اليها بلذة وهي تحترق، قلت له مرات كثيرة:

- انت مجنون يا رجب. وإلا لماذا تحبس نفسك أياماً، ثم تحرق كل ما غزله؟

كان يتطلع اني بعين لا ترى شيئاً، وكأنه يفكر بما كتبه، أو بما سيكتبه، وكان لا يبدو عليه أي ألم وهو يحرق. أما امي فقد غضبت ذات مرة، وقالت:

- لماذا لا تحرق الأوراق قبل أن تكتبها؟ احرقها دون سهر الليالي ودون كلمات عصبية ترد بها علي عندما أناديك لتأكل أو لتنام!

ولم يجيبها. كان يتنسم ويحرق الأوراق.

ظل هكذا سنوات، حفلة كل أسبوع، وأمي تنظر الى الرماد بحزن، وتقول لي بصوت فيه رنة استغراب وأسى:

- لا يحرق فلوسه فقط، بل ويحرق أعصابه واعصابنا.. متى وكيف؟ ألا تقولين له شيئاً يا أنيسة لعله يتوقف!

الآن يريد ان يكتب. من نحن وماذا نستطيع ان نقول؟ الرسالة اذا كتبها اليه اتردد كثيراً قبل أن أرسلها. الآن يدعوني لأن اكتب معه رواية.. وعن أي شيء؟ عن هذه الكلمة التي اذا ترددت امامي مرتين يغمي علي!

ولا يريدني وحدي ان اكتب، يطلب من عادل ان يكتب! لا أريد أن أظن ظنوناً سيئة، ولكن أحس انه يتعذب، يبحث عن شيء ضائع، وقد لا يعرف ما يبحث عنه، وهذا اصعب ما يواجه الانسان، وأشد ما يعذبه!

ماذا سيقول عنه حامد؟ وعادل.. آه لو كانت امي حية الآن لصرخت في وجهه، لقلت له بطريقتها القاسية والمحبة، لكي لا يعود بعدها للتفكير بمثل هذه

الأمور البائسة! والسفر... الى جنيف! ان رجب لا يتصرف بعقل هذه الأيام. وأخشى انه قد لا يجد احداً يمنعه أو يحذره على الأقل. نريد أن يعود، أن يعود بسرعة، ويبدأ حياته من جديد... اذا ذهب الى جنيف، ولا أدري اية مدن عجيبة اخرى، فسوف يخلق لنفسه ولنا متاعب جديدة. وحتى اذا ذهب الى هناك، ماذا سيجد؟ من يسمعه؟

قبر امي في مكانه، سأكتب عليه الكلمة التي اقترحها، لا يمكن لأحد أن يعترض، وإذا لم ينتبه أحد لهذه الكلمة، والتي ليس لها علاقة بالسياسة، فلن تفهم إلا على انها كلمة من أبناء أرادوا أن يكرموا أمهم، فكتبوا هذه الكلمة: الوفاء! سأكتب له رسالة غداً أقول له اننا بحاجة اليه ويجب أن يعود، وسأقول له بصراحة ان يترك فكرة السفر الى اي مكان ويعود الى هنا مباشرة!

بعد ان قرأت رسالة رجب مرات كثيرة، كتبت له صفحات كثيرة، لكن لا أعرف ان كان سيقروها أم لا... ولا أعرف ان كنت سأرسلها أم لا؟... قلت له على ورقة صغيرة، وجهتها اليه كرسالة:

«مر علينا عبد الغفور في الاسبوع الأول لوصوله. اعطانا الرسائل وحدثنا عنك، وبعد ايام عاد من جديد، وقال ونحن نشرب القهوة...»

- اوصاني رجب ان اذكركم... قال لي لا ترجع اذا لم تحمل معك حزمة من الورق. حزمة كبيرة. اعرف ماذا يقصد، ولكنه اوصاني ان اؤكد عليكم كل ثلاثة ايام، وقبل فوات الأوان...»

«حبست نفسي فترة طويلة يا رجب وكتبت، ولم اجرؤ ان اتحدث مع حامد كلمة واحدة عن الأمر، رأيته يكتب وقد اخفى الأوراق عندما رأي اقترّب منه. ابتسم لي ببراءة، ليفهمني ان اتركه. اما عادل، فقد كتب أوراقاً كثيرة، ولكنه لا يكتب بضعة أوراق إلا ويحرقها، تماماً كما كنت تفعل انت! حاول ان يقول لي شيئاً، لكن في لحظة معينة، شعرت ان الخجل يمنعه.

انت يا رجب الآن لو كنت هنا لما فكرت لحظة واحدة في الأشياء التي تفكر فيها الآن، أريد أن أذكرك أية كلمة، أي تصرف، ينعكس علينا بشكل مباشر، ولذلك، أتوقع ان تمارس هوايتك القديمة، مرة اخرى، ان تحرق الأوراق، كأخ

قربان مجوسي، وتحزم حقائبك وتسافر، لا الى جنيف، وإنما للوطن مرة اخرى... وما تنصوره عن سقوطك، عن كفارة تريد ان تقدمها، فإن أفضل شيء أن تأتي... وهذه المرة لن أتدخل، لن أقول لك كلمة واحدة، وأشعر بأسف حقيقي انني تأمرت عليك خلال الفترة الاخيرة وجعلت حياتك في السجن صعبة.

لا أحب التشاؤم، ولا أنظر الى الحياة، كما ينظر اليها حامد، فقد تغيرت عن السابق، صحيح ان التغير لا يزال محدوداً، وربما لا يلاحظه الانسان إلا بصعوبة، ولكن يمكن لكل انسان ان يعيش، ليس ممكناً فقط، بل ضروري. كما كنت أقول لك في رسائل كلها، نحن بشوق مجنون لأن نراك بيننا... لا تتأخر، تعال، تعال بسرعة!..»

تمنحين الدفء والفراش، تمنحين الغذاء، ولا تريدين مقابلًا.. البشر. هناك، ينتزعون من الانسان كل شيء: الدموع، الرغبة، وحتى الذكريات.. أما الأفكار التي تعبر رأسه في الليل فإنهم يريدونها أن تتحول الى كلمات، الى اسماء، ومقابل ذلك يمنحون الانسان الضرب والألم وحينئذٍ موجعاً للنهاية والموت!

«من علمك ان تقول هذه الكلمات؟ قل لنا يجب ان تقول».

ونسمع النواح، كان نواحاً طويلاً تتخلله شهقات الماء الممزوج بالملح وهو ينسكب على الجروح، مثل السكين وهي تنغرز في القلب نسمع أنيناً موصولاً لا نهاية له.

أمين بائع الجرائد، ذو الوجه الفرح والصوت القوي، والذي يبيع اكثر من الباعة الآخرين، كان مع الجريدة الصماء الباردة يبيع الكلمات... كلمات البشرى. أمين أتوا به.. كنا نسمع نواحه، ثم انينه، ظل ثلاثة أيام في زنزانه لا تبعد عنا اكثر من خمسة أمتار، ثم مات! أمين لا يعرف إلا سلاح الكلمة، يقرأ أثرها في وجوه الرجال، في لهفة أيديهم وهي تمتد الى جرائده، ومن اجل الكلمة قتلوه. كانت رائحة الزنزانه وهم يفتحونها ليخرجوا جثته، مليئة بالقيء والدم ورائحة الغواط، ومن فتحة القضبان رأيناهم يحملونه: الزرقه والدم اليابس والكلمة التي انتهت الى الأبد!

هل تستطيع الكلمات ان تفعل شيئاً؟ هل تخيفهم؟

«أرجو ان تسمحوا لي بالموافقة على السفر للعلاج في الخارج بناء على توصية الطبيب، لأن مسؤولية موتي في السجن، تقع عليكم، وأنعهد ان اتوقف عن اي نشاط سياسي». كنت احس دبيب الموت يسري في جسدي، وعريدت في رأسي تلك الفكرة المجنونة، فكرة ان اقول الكلمات الاخيرة قبل أن أودع هذه الحياة. في السجن لن يتاح لي ان اقول الكلمات التي أريدها، وحتى لو بقيت في الوطن لن يتاح لي ان اتكلم، لم يبق أمامي إلا أن أنعهد وأسافر... كان أمامي المرض... ثم الموت. هل أموت قبل أن أقول شيئاً؟ والتعهد؟ لا لن اعمل في السياسة، لدي ما افعله في مجالات اخرى، سلاحى الاخير الكلمة لعلها تكون طليقة الرحمة لي ولهم، وموت معاً!

دبيب الموت يمد لسانه في دمي، يحول الدم الى قيح، ويعبر مسامي كلها، حتى اذا وصل الى رأسي جعل كل ما أفكر فيه له رائحة القيح ولزوجته!

ابتعدت أيام أشيلوس وجفت معها أطيايف البشر الذين كانوا عليها. المرأة الطفلة التقت بشابين يسافران الى بريطانيا، وظلت معهم طوال الوقت، والعجوز التي تعاركت مع بحار في ميلانو وضربته بحقيبة اليد أصبحت النظرات تلاحقها اينما ذهبت، كانت تبدو متجهمة الوجه، غاضبة ولا تكف عن الشتم، وأصرت ان تقف في بداية الطابور لتكون أول من يهبط على أرض فرنسا.. اما المكسيكي فقد علق قيثارته في رقبته وحمل الحقيقتين، كل حقيقة بيد، وكان يغني وهو يهبط سلم الباخرة.. عشرات الوجوه انطقات، ذابت ملامحها في زحام الوجوه الجديدة التي لا تكف لحظة واحدة عن الظهور والاختفاء!

الشتاء القاسي يستلب الانسان من الداخل، يحوله الى قصبة مفتوحة، ويدفع اليه، بلا توقف، الاحزان والذكرى والشعور بالتفاهة. استغرب كيف يضحك الناس، كيف يقفزون على رؤوس أصابعهم كأنهم الطيور الفرحة. المستنون.. ألا يموتون هنا؟ كل واحد منهم، يحمل فوق كتفه مئات السنين. يحملها بقوة متباهية، ويسير بها وسط الثلوج والزحام، بلا خوف. وأنت يا بلاد الشاطئ الشرقي، بدءاً من ضفاف البحر، وحتى اعماق الصحراء، لماذا لا تتركين بشرك يصلون الى سن الشيخوخة؟ كانت أعناق الرجال والنساء تلتوي على مهل، ثم تسقط. كانت الحفر الصدفية تستقبل كل يوم عشرات الجثث التي لم تنح لها حتى فرصة الحلم، حلت معها أحزانها ورحلت. وأنت يا أمي لماذا رحلت قبل أن أراك؟ أنا قتلتك؟ صدقني انني لم اقتل أحداً يا أمي، هم قتلوا كل الناس، هم قتلوك. انهم يقتلون دون رحمة، لكن لماذا يقتلون؟ لماذا.. لماذا؟

يجب أن أفعل شيئاً. قلت لأشيلوس ونحن نبحر بين ميلانو ومرسيليا: ايتها السفينة انت الصماء المقطوعة الأذان، لا أظنك تفعلين ما يفعله البشر.. انت

الآن، وأنا انتظر ٢٢ كانون الاول، موعد دخولي إلى المستشفى. اصرح من عمافي صرخات ملعونة يملؤها الوباء: ما الذي دفعني لأن اكتب تلك الكلمات المنحطة؟ ما الذي جعلني أقف امامهم مثل طفل مذنب، وأقول لهم: لم تعد لي علاقة؟ كنت أخاف من نفسي أكثر مما أخاف من أصدقائي.. الآن يتراءى لي كل ما مر وكأنه كابوس لا يرحم.

منى سقطت؟ لماذا سيطرت عليّ تلك النقطة الضعيفة التي جعلت الأشياء تبدو لي متساوية؟ امين بائع الجرائد؟ هادي المقتول ونحن نبكيه حول الأرغفة اليابسة وقطعة الجبن؟ امي التي سافرت برحلة لا تعود منها؟ الدم الملوّث الذي يجتازني عشرات المرات كل يوم، في مشوار همجي يدمر فيّ الخلايا والارادة؟.

سيطرت عليّ بجموح فكرة ان اكتب. يجب ان اقول للناس ما يجري في السرايب، في الظلمة، وراء جدران ذلك البناء الأصفر الذي يريض فوق قلوب البشر مثل حيوان خرافي. الكلمة آخر الاسلحة.. لن تكون أقواها، لكنها سلاح الذين تلوثت دماؤهم، مانت امهاتهم. سلاح الاطفال الذين يريدون ان يفعلوا شيئاً!

رجب اسماعيل سقط. هذه هي الكلمة الوحيدة التي تفسر النهاية التي وصلت اليها، ولا يجدي أن يقال الآن ظل رجب خمس سنين، بأيامها ولباليها، وراء الجدران، وأنه مرّ على سبعة سجون، لم يضعف، ولم يعترف. الانسان محكوم عليه بنهايته. الصمود، الارادة، كل كلمات المجد المتوردة الوهاجة، تسقط في لحظة النهاية البائسة. ماذا يجديني اني نظرت في وجوههم بتحدي الأبالسة وقوة العناد؟ لقد سقطت، تراجعت السنوات الخمس، الأيام والليالي، لتذوب في الكلمات الداوية التي كتبتها بيدي. صرخت ببأس في وجوههم: انتم تعرفون احسن مني ان صحي تنهار، أية فترة جديدة اقصيها في السجن، تعجل بنهايتي.

كانوا يعرفون. وإلا كيف تركوني ثلاث سنين دون ان يقولوا كلمة واحدة؟ ظللت وقفاً بالنسبة لهم انتقل من سجن الى آخر، لم يكونوا يحبون أن ينظروا اليّ بعد أن يشؤا. كان صمّي سلاحي الوحيد الذي مزق احشائهم.. رموني مثل كرة، من سجن لآخر، من غرفة لأخرى، تعبوا وهم يضربوني، وفي السجون البعيدة حلمت، وفي المدن الكبيرة حلمت، وفي الطرق الصحراوية داخل سيارة تشبه علب السردين حلمت، لم أترك الوقت يمر دون ان أحلم. كنت أقول في

نفسى: سافضحهم، سأقول للناس، كل الناس، ان البشر بالنسبة هؤلاء الأبالسة، ارحص الأشياء، أتنفّ الأشياء.

ومن اجل الكلمة سافرت، ركبت البحر الصاخب في الشتاء الحزين، لعلّي من مكان بعيد استطع ان اقول الكلمات التي حلمت بها طوال خمس سنين..

والآن، بعد ان حاولت على ظهر اشيلوس الماكرة، وبعد ان حبست نفسي طوال الليل والنهار في الغرفة المستطيلة الكثيفة، في فندق اللزاس، اجد أن الكلمات التي دوت في رأسي تلك الأيام كأنها الحراب المسمومة، اجدها تتحول الى أصداف فارغة لا تعني شيئاً!

فكرت مائة مرة ان اكتب رواية عن هادي. يجب ان يعرف الناس هادي: وجه اقرب الى وجوه الاطفال، عينان صغيرتان ذكيتان، وابسامة لا تموت، كانت ابسامة هادي مثل الضوء الصغير، تغيب لحظة، لكنها لا تنطفئ..

آه لو كتب احد عن هادي، لكن من يكتب يجب ألا يكون رجب. سوف يقول للناس، ان هادي جديلة من الصمود، غزلتها الايام الصعبة والشقاء، ورمتها في وسط الناس كتلة ملتصقة، لا تحبو ولا تتوقف. بدأت اكتب عنه، لكن الخوف الذي بلغ بي حد الفزع، دفعني لأن احرق الأوراق. قلت لنفسي وأنا أقرأ الكلمات الميتة: ليس الذي اتحدث عنه الآن هو هادي المخلوق الحي الذي كان. ما اتحدث عنه قطعة معذبة، جسد يتلوى، اما الانسان ذو الابسامة الصغيرة والارادة الجسورة، فلم أقترّب منه. وصرخت وأنا أحرق ما كتبت: تخاف ان تفضح نفسك يا رجب. ان تبدو كذباة مقطوعة الأجنحة، لو تحدثت عن هادي بلسان رفاق هادي.

آه ما أتعس الانسان عندما يداومه العجز، ويفقد القدرة كلياً على أن يقول تلك الأشياء التي نامت معه وقامت خلال سنين، الكلمات الشديدة التوهج التي قالها الناس في السجن، دون ان يفكروا لحظة واحدة بالكتابة. كنت اشحن ذاكرتي بتلك الكلمات، لعلها تنزلق يوماً على الورق، وتقول للناس أي رجل كان هادي، الآن اشعر بالانطفاء الكامل. هاجرت الكلمات، ابتعدت عني، أصبحت كالخرق البالية، بعد ان كانت في ذاكرتي قبل سنين كالاعلام المشتعلة.

الورقة التي وقعتها، كانت شهادة الوفاة. وفاة رجب اسماعيل، كإنسان، يحلم بأن يكتب.

ليس هادي الوحيد الذي اعجز عن الكتابة عنه. هل يستطيع ان اكتب عن امي! اين امجد ورضوان وسعيد؟ اين عشرات الوجوه الملونة بالدم، والتي كنت أجبر نفسي على ان انظر اليها بشراهة، لكي أتألم أكثر... واكتب عنها؟ ان هذه الوجوه تنظر الي الآن، من سراديبها البعيدة، من قبورها، نظرة سخرية... نقول، تصرخ: لا تكتب عنا كلمة واحدة، اليد الملونة، القلب الملوث، لا يستطيع ان يكتب!

قلت لأنيسة في الليلة الأخيرة، ان تحدثني عن امي... فكرت ان اكتب عنها... لما تحدثني وانتهت، بكيت. والآن، رغم اهمهمات البائسة، الخطوات البطيئة فوق خشب الغرفة، الدخان والنظر الى الشارع، اجد نفسي مسلوباً، وكأنه لم تكن لي أم في يوم من الايام. انيسة تستطيع ان تكتب شيئاً، حتى جارتنا ام جاد المولى، تستطيع ان تعيد لها الحياة اذا تكلمت عنها.

كانت كلمات امي حازمة مثل جبل الحبيب، وهي تقول لي بعد ان ابتعدت عمتي: احذر يا رجب... الحبس ينتهي أما الذل فلا ينتهي. لا تقل شيئاً عن أصدقائك... احذر، أسمعني؟

لم أقل شيئاً يا أمي. كلماتك كانت الجسر. نظراتك الصلبة، وانت تحذرينني، جعلت مني رجلاً طوال خمس سنين. لكن الداء يا أمي... لا ليس الداء... هذه البلاهة الغامضة التي سرت في دمي وقالت لي يمكنك ان تفعل شيئاً غير أن تموت. تصورت السجن يتحول في لحظة الى قبر، وكنت انتفض لكي لا أظل في القبر، وفي سبيل ان اخرج، دفعت كل شيء. ليس لي جدارة من أي نوع، يا أمي، لأن أقول عنك كلمة.

الافكار البائسة تهاجمني مثلها يهاجم الجراد الحقول الخضراء. افكر الآن أن أدفع الآخرين لأن يكتبوا معي. سأقول لأنيسة في رسالة قريبة ان تكتب شيئاً عن تلك الايام التي سحنت فيها. ماذا قالت امي؟ كيف تصرفت؟ لن أمد يدي لكلماتها، سأتركها تطفو فوق الورق الأبيض، لعلها تكون رثاء أخرس لتلك العجوز.

اشعر بالعجز، اشعر بالعجز والانتها! لماذا حملت معك تلك الحيفة يا أشيلوس طوال ثمانية أيام؟ ألم تقتلك الرائحة؟ رائحة الرجل الميت؟ لم أر أحداً غيري على ظهر السفينة يحمل هذا المقدار كله من رائحة الموت. استرقت النظر اثناء الغناء، وفي صالة الطعام، الى الوجوه، لعلني ارى انساناً يشبه رجب اسماعيل.

كانت وجوه الناس مليئة بالذكريات، والمصاعب، لكنها كانت وجوه بشر حقيقيين. كانوا يبذلون جهداً كبيراً من أجل ان يظلوا احياء. كانوا يسافرون ويتعبون، ثم يجلسون في ظل صالة الطعام وتحت الشرفات ليغثوا... لم أستطع أن أشاركهم سفرهم وتعبهم، مزقتني الرغبة لأن أغني معهم، لكن لم أستطع... كنت أندر نفسي لأن أكتب، وها أنذا الآن في غرفة فندق الألازس رقم ٣٧، أذرع الأرض، انظر من النافذة، أميل برأسي قليلاً لكي أسمع وقع الخطوات في الدهليز... ولا أجد شيئاً يمكن أن أقوله! ماذا لو شئقت نفسي؟

في سقف الغرفة، الى جانب جبل النور المتدلي حلقة. يمكن ان امزق ثيابي، اصنع عنها جبلاً، اقف على الكرسي حتى أسقط الجبل في الحلقة، أمسكه من الناحية الثانية، أعقده، حتى اذا ربطته جيداً، صنعت حلقة في الجبل ووضعتها في عنقي، وفي لحظة ادفع الكرسي وأتدلى... ارتعش في محاولة لأن اسحب الهواء، لأن أرخي الجبل، لكن الفقرات تكون قد انزلقت، وانتهى... يتظروني يوماً... يوماً آخر، وحين يفتحون باب الغرفة يرون الجبل يهتز في الهواء، والجثة المتقيحة تفوح منها رائحة كريهة... يتركون كل شيء في مكانه، يغلقون الباب بخوف ويتصلون بالبوليس... وفي اليوم التالي، في زاوية صغيرة تكتب الصحف المحلية: رجل اجنبي، في الثلاثين يقتل نفسه في ظروف غامضة. وأدفن في مقبرة شتائية بعيدة! لا يشيعني احد، لا يعرفني أحد... أما الحقيقة فإنهم يفتشونها جيداً، اذا وجدوا عنواناً كتبوا اليه، واذا لم يجدوا وضعها البوليس في المستودع لثلاثة شهور، ثم اعطاها لاحدى الجمعيات الخيرية، وقد تصل ثيابي الى سجين!

واذا مت، فماذا سيحل بأنيسة؟ من يقول لها وماذا ستفعل؟

لا أقوى على أن أرفع رأسي، ولا أقوى على ان ادخل الفراش وأنام الآن. هزمت ارادتي، ولن ابقى اكثر من شهور، ثم أموت!

هل يمكن ان ترمم ارادة انسان لم تعد تربطه بالحياة رابطة؟ انا ذاك الانسان... لا لست انساناً، السجن في أيامه الأولى حاول ان يقتل جسدي... لم أكن أتصور اني احتمل كل ما فعلوه، لكن احتملت... كانت ارادتي هي وحدها التي تتلقى الضربات، وتردها نظرات غاضبة وصمتاً... وظللت كذلك... لم أرهب، لم أترجع: الماء البارد... ليكن. التعليق لمدة سبعة أيام، ليكن. التهديد بالقتل والرصاص حولي يتناثر، ليكن... كانت ارادتي هي التي تقاوم... الآن ماذا

بقي في؟ في لحظات الغضب والتحدي أصرخ: يجب ان افعل شيئاً.. وما دمت
فقدت كافة اسلحتي: النظرة الغاضبة، التحدي، الصمت، فلأجرب سلاح
الكلمة.. لأقل كلمة اخيرة قبل أن أرحل.. ولكن الكلمات العاهرة تضيع مني.
في الليل، وأنا مفتوح العينين، وأنا مغمض العينين، ابذل جهداً خيراً لكي
احاصرها، لكن اذا جلست الى الطاولة الملتصقة بالخائط، اشعر ان ليس لدي اية
كلمات.

ذهبت الى ثلاثة أو أربعة مقاهي في مرسيليا. ذهبت منذ الصباح الباكر،
وبعد ان شربت القهوة على مهل، وحاولت استرجاع الكلمات، بدأت.

الكلمة الاولى عين لص. الكلمة الثانية ابتسامة سخرية.. الكلمات الثالثة
والرابعة والخامسة شهقات العذاب، في السجن، أيام الشتاء، وأتوقف. أي عبد
ذليل اصبحته يا رجب؟ عمن تريد ان تكتب الآن؟ أية كلمات يمكن ان تنفذ
هؤلاء الذين حرم عليهم كل شيء حتى ان يقصوا أطراف علب السجائر ويحولوها
الى قطع مستطيلة صغيرة، ليرسموا عليها نقطاً سوداء، ثم يلعبوا بها! لقد حرموا
من كل شيء.. صادروا قطع الخبز التي أصبحت بأيديهم الصابرة يبادق وقلاعاً،
ليلعبوا بها الشطرنج...

«ألا تعرفون، يا أولاد القحاب، ان اللعب ممنوع؟ ونحنا لول؟! تصنعون من
لب الخبز أدوات للعب...» يضربونهم، يضربونهم بالأحذية بالعصي، ييصقون
عليهم، ثم يصادرون كل شيء.. ماذا استطيع ان اكتب لكي انقذهم!

المقهى، العجائز، العشاق، البحارة، هؤلاء لا يمكن ان يتيحوا لي لحظة أمن
تمكنني من الكتابة!

وانتقل الى مقهى آخر.. افكر في الطريق.. اية افكار يجب ان تكتب، اية
كلمات يمكن ان تنفذ أجد أو أبراهيم؟ وتفرش ذاكرتي كلمات كبيرة مثل مسامير
حدوات الخيل، وأدخل المقهى، ومع قدح النبيذ، أمدد أوراقي كمتسول. انظر عبر
الزجاج، انظر الى الوجوه، وأخط الكلمة الأولى، وأخط الكلمة الثانية، وتفرسني
نظرة جانبية من امرأة مسنة، وهي تراني اكتب من اليمين الى اليسار، تنظر
باستغراب وهي تقلب شفتيها.. أريد أن أقول لها ان طريقتنا في الكتابة يا سيدتي
وحدها ذات قيمة ولم تتغير، كل شيء عداها لا قيمة له، خاصة الانسان..
الانسان في بلادنا أرخص الأشياء، اعقاب السجائر أغلى منه.. آه لو تنظرين لحظة

واحدة في قعر سرداب من آلاف السرايب المشورة على شاطئ المتوسط الشرقي
وحني الصحراء البعيدة، ماذا ترين: بقايا بشر، ولهاثاً، وانتظاراً يائساً.. وماذا
ايضاً؟ وجوه الجلادين الممتلئة عافية وثقة بالنفس... والضحكات.. لا تستغري
شيئاً يا سيدتي، والذي يثير استغرابك الآن، أقل الاشياء إثارة للاستغراب هناك!

واكتب مشروع رسالة لانيسة بعد ان أعجز عن كتابة أي شيء، أطوي
الأوراق، وانظر الى العجوز والجرسون والزجاج، وتمر أمامي الوجوه: وجوه
ضاحكة، يعربد فيها الفرح. وجوه قاسية يعذبها التفكير.. وأرى الجرائد، فوق
الطاولات، يتناولها الناس هدهد ويقرأونها ثم يعيدونها، وأرى شاباً له لحية يقرأ
كتاباً...

واتذكر الحاج رسمي أبو جعفر.. ربطوا يديه وراء ظهره، اوقفوه في ساحة
السجن، أمام عشرات السجناء وبدأوا يسخرون منه:

- مثل أبي هريرة تقول للفقراء ان يثوروا... خذ يا قواد، يا حاج كلب، يا
حاج خرا، ويضربونه على وجهه، على رأسه، على صدره، كانوا يسخرون منه
ويضربونه، وفي لحظة تنبهوا للحيته، كأنهم يرونها لأول مرة. بدأوا يشدون كبا لو
انها ذنب كلب، ويحني الحاج رأسه، لكي يتجنب ألم الشد.. لما تعبوا، اشعل واحد
منهم عود ثقاب وقربه من اللحية الشائبة، اشتعلت، اصبح كأنها كرة من
الذهب، تناول الثاني سطلاً فيه رمل وقذف وجه الحاج.. بعد ايام والحاج رسمي
يجلس في الشمس، كان وجهه مثيراً للاشمئزاز والاسى: بقع حمراء تنزف ماء لزجاً،
وعينان بلا أهداب، والشفة السفلى مدماة.

قال للفقراء ألم تسمعوا أبا ذر الغفاري حين قال: عجبت لمن يكون جائعاً ولا
يشرع سيفه!

يجب ان أتوقف عن محاولة الكتابة، بعد أن أخرج من المستشفى سيكون
لدي الوقت الذي يجعلني أبداً ولا أتوقف.. الآن أمامي مرسيليا كلها يجب ان
أتعرف عليها، لأرى أسواقها ومسارحها وساحاتها، ولأرى بشرها أي بشر هم!



كيف انسقت الى مواقف غبية وأنا أفكر بكتابة شيء عن التعذيب؟ يبدو لي
الامر الآن غاية في البساطة. ليس مطلوب كتابة قصة، لا، ان الاحداث التي رايتها،

بأية طريقة سجلت، تكفي لأن تكون شهادة ادانة بالموت على هؤلاء القتلة؟ يجب ابعاد كل الكلمات المبتذلة والانتقادات، ولاكتفي بقول ما رأيته عيني. لو تم هذا اكون قد اديت جزءاً من واجبي، واستناداً لهذا افكر ان اسافر الى جنيف لكي أقدم لوحة للصليب الأحمر. أن أسرد على مسامع المسؤولين الأمور التي رأيته بنفسي، وأطلب اليهم بعد ذلك، ان يرسلوا وفداً للتحقيق في الوقائع، سأذكر لهم جميع الأمور التي مرت علي، والأمور التي حدثني عنها جميع الذين التقيت بهم أو رأيتهم، كما سأذكر لهم أسماء الجلادين والمحققين، وبعد ذلك ليذهبوا ويروا!

لا يهمني ما سمعته قبل أيام من الطلبة، كانوا ينظرون الي بارتباب، وقد انفصوا من حولي بسرعة. عجبت في البداية، لكن لم يلبث ان اتضح لي الأمر. فالأشياء السيئة تنتقل بسرعة، اسرع مما يتصور الانسان! لما ذكرت لهم اسمي، اجفلوا، نظر بعضهم الى بعض بتساؤل، ثم سألني احدهم بشكل مباشر:

- هل كنت سجيناً ثم اطلقوا سراحك بعد ان نشرت في الصحف...

ولم استطع ان يقول تلك الكلمة.. فهمت ما يريد قبل ان يكمل عبارته، شعرت ان الدنيا صغيرة، اصغر من تلك الغرفة التي كنا فيها اربعة عشر رجلاً. احنيت رأسي الى الأرض والافكار تتراكم كأنها الخيول الجامحة. هل أقول لهم عن مرضي؟ عن سقوطي؟ هل أقول لهم اني أريد ان اكتب عن التعذيب وافضح الجلادين؟

كان يجب ان اقول شيئاً. قلت بكلمات متعثرة غير مفهومة:

- اطلقوا سراحي لاني مريض، وأخذوا الاعتراف بالقوة!

كذبت، كان الكذب الجسر الاخير لنجاة بائسة. لم يستعملوا معي القوة خلال الفترة الاخيرة، كانت الابتسامات تملأ وجوههم وهم يروني أوقع. اية قوة استعملوا؟

صمتوا. لم يعلقوا بكلمة واحدة. كان بودي لو يسألني واحد منهم. لو سألني أحد لشعرت بالثقة، لقلت لهم كل ما يدور في رأسي، لكن صمتهم اللعين جعلني اشعر بالأهانة، لم يكتفوا بالصمت، انسحبوا واحداً وراء آخر. ظل منهم اثنان، كانا يجلسان بعيداً عني، وقد رأيتهما يتغامزان بطريقة شعرت معها بالأهانة اكثر!

كنت امتلئ رغبة لأن اتحدث مع انسان، اي انسان. لو تكلمت تلك الساعة

لقلت كل شيء، لكن احداً لم يسألني، ووجدت الرجلين بعيدين وكان قارات من انصقيع تفصل بيننا. وحتى لو تحدثت، هل يسمعان؟ هل يفهمان لماذا خرجت؟

سبقتني الافكار السوداء، كانت تركب باخرة اسرع من أشيلوس، وانتظرتني في عيون الطلبة وفي صمتهم!

عندما تركت النادي، لم يقلوا كلمة واحدة، لم ينظروا الي. شعرت ان عذاب السنين الخمس، الجلد والسجن المنفرد، وآلاف الشتائم التي انهالت علي، لا تعادل نظرة صغيرة تطلق في الهواء للحظة واحدة، ثم تتلاشى!

سقوط الانسان مثل سقوط ابنية، تهتز في الظلمة، ترتجف، ثم تهوي وتسقط، ويرافق سقوطها ذلك الضجيج الأخاذ، ويعقبه الغبار والموت واللعة.

كنت في ظلمة السجن أنداعى، افكر بالكتابة والعلاج، ابعدت الفكرة مرة، ابعدها الف مرة، لكن نظرات انيسة، كلماتها، الافكار الحزينة التي عبرت رأسي وأنا أرى كل ما حولي ينهار.. لم يبق في نظري شيء مقدس.. ارتجفت وأنا أوافق، بيني وبين نفسي أول الأمر، ثم بيني وبينهم، حتى اذا وقعت على تلك الورقة الصفراء شعرت ان كل شيء في ينهار ويسقط.. وسقطت، ورافقت ضجة السقوط موجات الغبار التي حملتها أفواههم الى كل مكان، تبشر الناس بنهاية رجب اسماعيل البائسة!

هل أستطيع ان ألتقي بأحد من الطلبة؟ ان استعين بهم من أجل المستشفى والعلاج؟ لا لا أريد، فكلمة واحدة تكفي لقتلي، سأذهب بعد غد بنفسي، وسأحتمل وحدي! تراجعت الى الوراء فكرة الكتابة كما كنت أنجليها. اما فكرة السفر الى جنيف فتبدو لي الآن اكثر أهمية، وحالما انتهي من العلاج وأعود من السفر أقرر ما يجب ان أفعله!

اسبوعان من المراجعة والفحص في اسوأ الأوقات، اذ ما كدت أبداً حتى بدأت الاحتفالات والعطل. السخرية تتراكم وتطوقني من كل ناحية، اشعر اني منبوذ الى الحد الاقصى، وإني أعاقب على تلك الخطيئة التي بدأت ذات يوم، ولن تنتهي. إن ما أتلقيه الآن استحققه، استحققه تماماً.

قال لي الممرض المكلف بأخذ عينات الدم:

- لقد جئتني في وقت غير مناسب، ألا تعرف ان اليوم هو السبت، وأنتك ستنتظر حتى صباح الثلاثاء لكي تحصل على النتيجة؟

هزرت رأسي دلالة المعرفة والموافقة، وشتمت في داخلي! وأخذ عينات الدم بشكل عجول وقال:

- الآن انتهى واجبي!

مرسيليا مثل الدنيا كلها تستعد لاحتفالات رأس السنة. الناس يترامسون، المحلات تمتلئ بالبشر والأضواء، والثلج يتساقط ليدفن كل شيء: الماضي والأحزان والأفكار البائسة، وأنا وحدي في مرسيليا الكبيرة لا أشعر بذرة انسجام مع كل ما حولي. خطوات الناس الكبيرة، هرب من الوباء الذي أمثله بخطواتي الصغيرة البطيئة. الأضواء الساطعة تستلقي على وجهي لتفصح ضعفي وخيائتي. وابتسامات العشاق وهم يتعانقون تحت أعمدة النور سخرية كاوية تمزق آخر الأفكار البائسة التي تجول في رأسي!

مرت الأيام بوقعها البطيء الموجه، وبدت لي أطول أيام عمري، حتى كان يوم ٧ كانون الثاني. استقبلني ثلاثة أطباء. امرأة ورجلان. عروني من ثيابي تماماً، كنت وأنا أنزع ثيابي أتذكر نوري. كانت الغرفة دافئة، بلونها الأزرق الهادي، والملاءة الموضوعة على طاولة الفحص نظيفة. شعرت اني لا أستحق ذلك. يجب ان أنعري في مزلة. نظرت الى الطيبة وأنا أخلع قميصي. كانت عيناها محاديتين، ولا تشبه عيون الذين كانوا ينتظرون، لبدأوا. سألوني عن ماضي. . . سألوني بنفس العبارات تقريباً، ماذا أقول لهم؟ ما أشد سخرية الكلمات. «حدثنا عن ماضيك». لما رأوا الارتباك في وجهي ولكي لا أضيع قالوا: «عندما كنت طفلاً، هل أصبت بأمراض، أية امراض، هل أنت متزوج؟»

وسألوني عن أمي وأبي. كنت اجيب بارتباك، قلت لهم ان مرض القلب قتل أمي، وأبي مات بسبب العظام. . . وتركت لهم حتى اللحظة الاخيرة المفاجأة التي اردت ان تكون ورقتي الأخيرة.

كان الصمت يخيم على الغرفة الزرقاء الدافئة، وضربات مطرقة صغيرة تتساقط على ركبتي. . . انتفضت كرد فعل مبالغ فيه للضربات، جمعت نفسي فجأة وقلت:

- الشيء المهم الذي لم أقله بعد، والذي قد يفسر مرضي، هو اني كنت سجيناً. سجنتم خمس سنين متواصلة. . . ليس هذا كل شيء، ففي البداية تعرضت لأنواع عديدة من التعذيب!

كانت الكلمات باردة، أو هكذا بدت لي وأنا أنظر في وجوههم، حتى اذا نظروا الى بعضهم بدهشة فيها اعجاب. . .

- كان يجب ان تقول لنا منذ البداية. . .

ضحكت وبدت في عينيها لأول مرة نظرة أسف حزين.

قال لي الطبيب المسن:

- انهض والبس ثيابك. . .

تهامسوا، تحدثوا الى بعضهم وأنا في الزاوية أواصل ارتداء ثيابي. أي شيء ظنوه؟ أية كلمات قالوا؟ لأول مرة منذ سنوات اشعر بالفخر. بدا لي السجن شرفاً، بدا لي كبيراً لدرجة ان نظرات الأطباء وهمساتهم كانت تقديراً مباشراً.

لما جلست على كرسي مقابل الطاولة التي يجلس وراءها الطبيب المسن، استأذنت في ان أدخن، هز الطبيب رأسه بود، وربما فعل الآخرون ذلك، ورد عليّ بابتسامة وكلمة صغيرة:

- تفضل.

كنت اذن سجيناً. هذا وحده يفسر مرضي. كانوا حائرين أول الأمر، لكن ما لبثت حيرتهم ان سقطت، بدأت تتلاشى مع دخان سيجارتي المتطاير. اخذوا ينظرون اليّ وكأنني دمية من عصور سحقة. . . هل يعرف هؤلاء الناس معنى ان يكون الانسان سجيناً؟ ليس سجيناً فقط، وإنما سجين في تلك السرايب المظلمة الباردة المليئة بالحشرات، وفي فترات الراحة، يتلقى الصفعات ويجلد مثلها تجلد الثيران النابية؟ كنت أريد أن أشعر بميزتي، وأبدو متفوقاً، لكن وأنا أستعيد الكلمات التي أردت أن أقولها، شعرت بالألم، تذكرت الورقة الصفراء المربعة التي امتلأت بالعرق من يدي المرتجفة التي تخط عليها آخر الكلمات. . .

سألني الطبيب المسن:

- هل تشرح لنا ظروف سجنك؟ أقصد كيف كان السجن، ضمن أية شروط

تغذية، وأية شروط صحية؟

الشروط الصحية والتغذية! سخرية أم تساؤل؟

قالوا في النهاية:

- الوضع صعب ودقيق، اذا اتبعت نظاماً صارماً يمكن ان تعيش دون متاعب
اما اذا لم تتقيد.. وصمتوا.

في الصمت النظيف المخيم على الجدران والملاءة والزجاج، جاءني صوت
الطبيب الشاب:

- هل تستطيع ان اسأل لماذا كنت سجيناً؟

رأيت وجهه يكتسب حمرة زاهية، تجعله أقرب الى وجوه الفتيات الصغيرات.
هزرت رأسي بحيرة. لماذا أقول له؟ لو قلت: كنت سجيناً سياسياً، هل يفهم معنى
هذه الكلمات؟ لو قلت له اني محكوم احدى عشرة سنة قضيت منها خساً، لا
لسبب، سوى انني أردت، بالفكرة، بالكلمة، ان اجعل حياة الناس اكثر سعادة،
لو قلت له هل يصدق؟ سوف أقول:

صدقني ايها الانسان الذي تعيش على الضفة الأخرى من المتوسط، اني لم
احمل بندقية، ولم أقتل احداً، ومع ذلك دق رأسي بالجدران مئات المرات، كما تدق
المسامير في اخشاب السنديان.. ودق الرأس بالجدران عبارة عن بداية سمفونية
العذاب: بعد ذلك ضربي بالسياط، كنت عارياً لما ضربوني، كانوا يتعبون من
الضرب، كانوا يتناوبون، وكانوا أقوياء، فاذا انتهى الضرب بدأت النيران تشتعل في
جسدي. كانوا يطفئون السجائر في وجهي، في صدري.. وفي أماكن أخرى..
ليس هذا كل شيء، لقد امسكوا بخصيتي وجروها شعرت تلك اللحظة اني
أموت، ثم علقت سبعة أيام في السقف. كانت يداي مربوطين بحبل، والحبل
يجري الى السقف، فأقف على اطراف اصابعي، عندما انتهت الايام السبعة، كانت
ساقاي بحجم سيقان الفيل: متورمتان زرقاوان، ثقيلتان.. لا.

لا.. لن احديثك اكثر من ذلك، ان مجرد تذكر تلك الايام يجعل الانسان
مشوهاً، حتى ان براعة الطب وعبقريته لا يمكن ان تفعل شيئاً.. كل ما قلته لك
حتى الآن، الفصل الاول، اما الفصول الأخرى، فاعذرني اذا لم أستطع ان أقول
لك عنها كلمة واحدة. تحملت التعذيب كله.. وماذا تتصور هل صرخت؟ هل
اعترفت؟ لا. كنت صامداً، كنت أقوى من الجمل في صبره واحتماله.. لكن في
لحظة خرساء سقطت. الانسان الذي تراه امامك الآن ليس قوياً بمقدار ما توحى
الكلمات التي تموج في رأسه.. كان قوياً في فترة ما، ثم سقط، انهار دفعة واحدة.

كنت ابتسم ابتسامة شاحبة عندما وقعت شهادة وفاتي.

قلت وأنا أسحب نظري من الطبيب الشاب، وانظر الى الطبيب المسن:

- كنت سجيناً سياسياً.

ولم أضف اية كلمة. نظر الطبيب المسن الى الوجوه بأسى، وكان ذكريات
حزينة عبرت رأسه، وقال يخاطب نفسه:

- هذا واحد من شعب سجين.

والتفت اليّ وأضاف: لماذا لا يقرأ الجلادون والحكام التاريخ؟ لو قرأوا جزءاً
من الأشياء التي يجب أن يقرأوها، لوفروا على أنفسهم وعلى الآخرين الشيء الكثير.
ولكن يبدو ان كل شعب يجب ان يدفع ثمن حريته، والحرية، أغلب الاحيان،
غالية الثمن!

وساد الصمت. كان قاسياً هذه المرة. قالت المرأة، وكان صوتها مثل شهاب
ملون:

- لو حدثته عن ايام المقاومة يا دكتور فالي.

- ليس بحاجة الى الحديث، ربما يعرف احسن مني، واذا كانت المقاومة
والاحتلال بالنسبة لنا قد اصبحتا ذكرى وتاريخاً، فإن هؤلاء يعيشون اليوم هذا
التاريخ.

ضرب الدكتور فالي الطاولة بالمطرقة، وقام.

كان يتخطى الغرفة، وقد اكتسب وجهه شكلاً عصبياً، اما كلماته فظلت
هادئة وهو يقول لي:

- حالتك مقلقة، يجب ان تعرف هذا بوضوح، لا أريد ان اجعلك تخاف
لكن التفاؤل يؤدي الى الإهمال، ولا أريدك ان تكون مهملاً، توقف قليلاً، ثم
تابع بصوت منخفض:

- اذا التزمت بالنظام الذي اقترحه عليك يمكن ان تعيش دون متاعب، اما
اذا لم تلتزم، فأسمح لي أن أقول، ان اية انتكاسة قد تعرضك للخطر. النظام
الذي اقترحه ليس صعباً، الابتعاد عن الفوضى في الأكل والنوم والعلاقات
الجنسية، وابتسم، وهو يتابع:

- ويجب ان لا تنفعل، ان لا تغضب، ان لا تحزن، كما ان الفرح الشديد يؤثر عليك.. وتغيرت نبرة صوته وهو يقول: اعرف ان هذه الأمور بالنسبة لك صعبة، ولكن يجب ان نحاول.

وجلس وراء الطاولة نظر الى ملياً، ثم قال:

- سأكتب لك الآن مجموعة أدوية، وأرجو أن تحرص على استعمالها بدقة في مواعيدها، وفي المراجعة الثانية، بعد اسبوع، سنرى.

لو عرفوا اني سقطت لما ودعوني بهذه الحرارة. وقفوا ثلاثتهم أمام الباب، بعد ان صافحوني، كانت ابتساماتهم غملاً وجوههم، خاصة الدكتور فالي، وعندما التفت في نهاية الممر الطويل، كان الدكتور فالي ينتظر التفاتتي الاخيرة، ليرفع يده ويلوح بها. الدكتور فالي صمد حتى النهاية. وجهه القاسي وعينه الهادئتان يقولان ذلك، الدكتور فالي والآخرين صمدوا.. وانتصروا. لو عرف لحظة واحدة اني وقعت تلك الورقة اللعينة لرفض استقبالي، أو مصافحتي، أتوقعه بقول: «كيف تستطيع مصافحة اليد التي لوثت دماءك؟ كيف تستطيع ان تبسم للوجه الذي كان يتلذذ وهو يسحب خصيتيك؟»

لن اكتب لأنيسة ان حالتي خطيرة، لكي لا تقلق، اما النظام الذي اقترحه الدكتور فالي، فسوف احرص على أن أنقيد به.. لكن اذا كنت قادراً هنا فكيف الحال عندما أعود؟ «لا تنفعل، لا تغضب، لا تحزن».. حتى الفرح الشديد حرمه عليّ الدكتور فالي. كان يسخر عندما نطق الكلمة الاخيرة، هل يتصور ان على الشاطئ الشرقي للمتوسط انساناً واحداً يمكن ان يموت من الفرح؟ الفرح بالنسبة للشعب السجين طائر مهاجر.. حتى الجلادون لا أظن انهم قادرون على الفرح.. انهم ينامون تحت أقواس من السياط، تحت أشباح الصرخات، يأكلهم الخوف ان تدق ابواب بيوتهم أواخر الليل ويتزعوا من فراشهم، لكي يدفعوا الدين الذي في رقابهم!

تأكد اني لن أفرح يا دكتور فالي.. اما الفرح الشديد، فلن يسبب لي الوفاة ابداً. والأسباب الاخرى التي ذكرتها سوف أدرسها واحداً بعد آخر، لعلني اجد لها علاجاً من نوع ما.

الكتابة، هل تحتاج الى انفعالات؟ الى غضب؟ ليس ضرورياً ان أسأل

الدكتور فالي لأن المحاولات التي قمت بها حتى الآن أدت الى نتيجة واحدة: سيل من الانفعالات الخائفة والغاضبة.. ولا صفحة واحدة من الكتابة التي أطمح اليها!

والسفر الى جنيف، هل يسبب لي تعباً؟ انفعالاً؟ واذا قررت السفر، متى يجب ان اسافر؟ كان عليّ سؤال الدكتور فالي، ان ابحث معه هذه الفكرة بالذات، لعله يكون بالنسبة لي مرشداً أكثر من طبيب، هؤلاء المستون الذين خبروا الحياة وعرفوا مصاعبها يمكن أن يقدموا آراء ثمينة!

سوف أسرح مرة اخرى في مرسيليا. سأذرعها في اتجاهاتها الأربعة. لن أترك مقهى، ولن أترك ساحة. سأجلس في المقاهي لأدرس تقاطيع وجوه البشر، تصرفاتهم ضحكاتهم، وحتى همومهم أريد أن أراها، لعلني أتعلم شيئاً. وباريس.. ألا يجب أن أزور باريس قبل أن أعود الى الوطن؟

«المدن الساحلية، مدن الحرية والعنف»

لا أدري من قال هذه الكلمات، لكنها مكتوبة منذ وقت طويل في ذاكرتي. نصورت ان مرسيليا وحدها لها هذا الطابع، لكن في باريس رأيت اموراً أعجب. الأحزاب لها مراكز مكتوبة عليها الاسماء بوضوح. يدخلها الناس دون خوف. يدخلون دون ان ينظروا وراءهم، ويتكلمون في الشارع، وبصوت عالٍ.. اما الجرائد فإنها تنشر كل شيء.. الأفكار وحوادث القتل والطرق الحديثة في العلاقات الجنسية.. والناس يقرأون.. اما الكتب فلا بد ان الانسان يعجز عن معرفة ما يصدر منها، لكثرتها!

على ضفاف السين آلاف الكتب، ملايين الكتب. كانت عيوني تمر على العناوين، وما تكاد تستقر على عنوان، حتى ارتجف، اتلفت، لا أريد أن يراني أحد.

«وجدنا لدى تفتيش بيت الموقوف، الأدوات الجرمية المرفقة...» ويذكرون اسماء الكتب. آه يا أهل باريس، لو جثتم بكتبكم الى شاطئ المتوسط الشرقي، لقضيتم حياتكم كلها في السجون. سيأكلكم الندم، سوف تكفرون بكل شيء، واحذروا أكثر ان تفكروا بالأحزاب، لأن أية كلمة تجر من يلتقطها ويجعلها مؤامرة وتخريباً، وتدفعون ثمن كلمات حياتكم كلها في السجون الصحراوية، وهناك تصابون بالسل والتيفوس وتموتون!

ولكن باريس التي أراها، هل ولدت هكذا؟

باريس المشائق والمفاصل والحصاد، باريس المقاومة، باريس الشهداء، هي التي صنعت الحرية. يجب ان لا أحدث، لم يعد لي بعد أن وقعت تلك الورقة المشؤومة ان اتكلم عن الحرية، عن باريس، عن أي شيء. لو كنت رجلاً لظلمت هناك وصمدت حتى النهاية. الكلمات المهترئة، التي ألوكتها الآن، فقدت جدارتها، فقدت عنقوانها، تحولت الى هاث يشبه هاث المرأة الشبقة التي التقطتني من الشارع. كنت أخاف وأنا أسير الى جانبها، وظلمت خائفاً حتى لما رأيته عارية ومستلقية على القراش.

قالت لي:

- ألا تراني عارية، ماذا تنتظر؟

وأشعلت سيجارة ثانية. كنت أريد أن أفعل شيئاً، لكن الشعور بالعجز جعل الفكرة ترتد الى داخلي مثل موجة النار. كنت أخاف من الفشل، من السخرية، أردت أن أقول لها اني مريض، أو متعب، لكن الكلمة الوحيدة التي سمعت نفسي أقولها:

- أنا لست رجلاً!

وصمت. كنت أريد في تلك اللحظة ان انهشها بأسناني، ان أركلها، ان اقبلها، اطفأت السيجارة بعصبية ونهضت لأنصرف... قالت بلهجة شعرت معها أنها قتلني:

- قبل أن تذهب، اقترب مني لأؤكد! دعني ارى بعيني ويدي، لا أصدق.

لو كانت معي الآن صديقة من نوع ما لسرنا في باريس مثل الذئب، نخيف كل من يرانا بقوتنا، بالتصاقنا المذهل.

باريس لم تخلق لي... لا أستحق شيئاً في باريس، حتى الماء الذي أشربه يبدو لي أكثر مما أستحق. بعد غد أعود الى مرسيليا لأرى الدكتور فالي، يجب ان ابقى معه فترة طويلة لأسأله عما يجب ان افعل في فرنسا من أجل الناس الذين ينامون الآن في السجون.

احببت فالي كثيراً ووثقت به.

وجنيف؟ هل تستقبلني وتستمع الي؟ وإذا استمعت ماذا يمكنها ان تفعل؟ لا، يجب ان لا أكون متشائماً، فالعالم هنا يفهم ويستجيب، وربما استطعت الوصول الى نتائج لا أتوقعها.

سيضح العالم كله عندما يستمع الى قصص العذاب التي لا تتوقف، في الليل والنهار، على الشاطئ الآخر. كيف يمكن لانسان أن ينام وأصوات الضحايا لا تكف لحظة واحدة عن النواح والالين؟ لا يوجد هذا النوع. لا احد هنا يستطيع ان ينام، أن يأكل، ان يضحك، والناس هناك سيكون بصمت ويموتون، سوف ترتفع ملايين الأصوات، في نشيد واحد مخيف، تطلب انهاء «الحفلات» المستمرة.

نوري لا يعرف للتعذيب غير هذا الاسم. كان يقول وهو يطعم الطيور، ينظر اليها ويتحدث معي:

- اعترف... اقول لك اعترف يا ابن القحبة، لقد اتعبتني حفلة الأمس... اذا لم تتكلم، فسوف اتادي عبد وتبدأ الحفلة، ماذا تقول؟

سأقول لهم في جنيف ان السخرية بلغت بالجلادين درجة انهم يطلقون على التعذيب اسم الحفلات... وما دام الأمر هكذا فيجب على الصليب الأحمر على المؤسسات الانسانية الاخرى، ان تفعل شيئاً من اجل انهاء الازدراء والقهر والموت!

كان الدكتور فالي وحده هذه المرة. لما دخلت اغلق الباب بالمفتاح، وقال وهو يتبسم:

- شكراً لله انك جئت في الوقت المحدد، نستطيع الآن ان نتحدث، أريد أن أسمع كل شيء عن الاعتقال والتعذيب، وأرجو أن لا يكون في سؤال ما يسيء أو يجرح.

أتذكر اني بدأت أحدث. قلت للدكتور فالي وأنا أقدم له سيجارة وأأخذها، رغم انه لا يدخن، لا أعرف يا دكتور عن أي شيء أحدث، كيف أبدأ وكيف انتهي، لقد كانت السنين الخمس الماضية كلها، بأيامها، بساعاتها، بدقائقها، وحتى بثوانيتها، عذاباً لا يحتمله انسان.

بهذه الطريقة بدأت أحدث، وفجأة تجمعت في رأسي آلاف الصور... فانفجرت:

دكتور.. كانوا يصرخون في الليل:

«اقتلوه، لا نريد لهذا الكلب ان يزعجنا اكثر.. اقتلوه.. امسك يده يا عبد اعددها الى الخلف، وأنت يا حاتم، ضع العصا في.. (١)، لا.. لا تخف، ادخلها، اعترف.. يا ابن القحبة يجب ان اقتلك! من انت حتى لا نجيب. سوف اعيدك ل.. امك، اعترف، هات القفط، هات الكلب الأسود، اخلع ثيابك، اعترف؟ قل اين هادي؟ اين نجم؟ ألا تقول يا ابن الكلب!»

تجمعت الصور في رأسي فجأة، ووجدت نفسي أبكي، لم ابك في حياتي مثلما بكيت هذه المرة، وظل صوت بكائي يصلني مثل هدير مكنوم.

لماذا بكيت هكذا؟ والدكتور فالي، أي انسان كان بالنسبة لي؟ هل يستطيع ان يساعدني؟ ان يفعل شيئاً من اجل ان يخلصني من العذاب الذي احسه في داخلي مثل سيول مجنونة؟ كان يجب ان افعل شيئاً، ان احطم الزجاج، ان احطم رأسي، ان أرغمي على الأرض.. لكن البكاء كان الطريق الوحيد الذي رأيته مفتوحاً أمامي.

نركني الدكتور فالي ابكي فترة طويلة. لم يستكر، لم يمد يده اليّ، حتى اذ أحسست بالراحة، قمت ووجهي الى الأرض، وقفت في زاوية، اخرجت منديلاً ومسحت عيني ووجهي ثم التفتت سيجارة، اولعتها واستندرت نحو الدكتور فالي.

حاول أن يبعد نظراته عني. هل كان يبكي في تلك اللحظة؟ هل كان يخشى أن يضعف وينهار؟ رأيت شيئاً في عينيه، لكن وأنا أسمع كلماته فيما بعد، تبين لي ان الرجل الذي أراه لا يشبهني أبداً. فالي لي وهو يتطلع عبر النافذة، لكي لا نلتقي عيوننا:

- اخشى عليك يا مسيو رجب.

وصمت كأنه لا يريد ان يتابع، وخيم علينا جو من الخوف. كنا نسمع خلاله خطوات غامضة في الدهليز.. بدل الدكتور فالي صوته تماماً وقال:

- اقدر الصعوبات التي واجهتها، لكن اعتبرك رجلاً.. والرجال لا يسقطون. يجب ان تعرف اني الوحيد الذي بقيت من عائلتي. قتلوا اثنين من اخوتي، قتلوا امي، ثم قتلوا زوجتي. كنت أسيراً، وفررت. منذ اللحظة التي وصلت البندقية فيها ليدي، وحتى نهاية الحرب، لم أتركها.

(١) كلمة قبيحة

أريدك ان تكون حاقداً وأنت تحارب. الحق هو احسن المعلمين. يجب ان تحول احزانك الى احقاد، وبهذه الطريقة وحدها يمكن ان تنتصر، اما اذا استسلمت للحزن، فسوف تهزم وتنتهي، سوف تهزم كائنسان، وسوف تنتهي كقضية، والذي اعرفه ان بلادكم بحاجة اليكم، ما زلتم في أول الطريق.. كل ما أرجوه منك الآن المحافظة على صحتك، لكي تستطيع مواصلة الحرب.. لا اعرف من تحارب، ومن أجل ماذا، لكن يبدو لي ان أمامكم أشياء كثيرة يجب ان تفعلوها.

كان الدكتور فالي وهو يتحدث يتموج صوته، يرتفع وينخفض، وكأن التعب أو المرض يثقل عليه، أخرج من درج الطاولة زجاجة دواء، التفت منها جتين، اعطاني واحدة، واخذ لنفسه اخرى.

قال وهو يناولني كوب الماء:

- هذا النوع من الحبوب يمتص الاحزان.. لكن لن اعطيك منه اكثر من هذه الحبة، لكي لا تتعود عليه.. يجب ان تتعود على ارادتك، كما كنا في زمن الحرب.

بعد ان شربت حبة الدواء، أخذ الكوب وشرب، وسألني وعيناه تنصبان عليّ من فوق:

- ماذا تقول؟

هزرت رأسي بالموافقة. ضرب كتفي بصدافة وقال:

- الآن.. أستطيع ان افحصك لأرى مدى تأثير العلاج.

قمت باذعان الى طاولة الفحص.. امتدت يده الى صدري، الى ظهري، كانت يده باردة وكانت أنفاسه وهي تلمح ظهري تلهث، شد شعري وهو يقول:

- هل ستبقى هنا فترة طويلة؟

- ربما.. لا أعرف بالضبط، قد أبقى شهراً أو شهرين!

- في الاسبوع الاخير، يجب ان أراك مرة اخرى، سوف نجري فحوصاً جديدة لترى مدى التقدم!

في حفلة الترحيل على الجليد التي تحدثت مرسيليا عنها كثيراً، وانتظرتها بفارغ

الصبر، رأيت عبد الغفور لأول مرة. لا أدري كيف سافرتني قدمي في ذلك المساء الى مسرح الطاحونة الحمراء، فجأة وجدت نفسي وسط كتلة بشرية كبيرة تنتظر الساعة لكي تصبح السادسة. وقفت بدافع الفضول، لم أفكر بفرقة الجليد ولم أكن أتصور اني خلال دقائق سأكون جالساً الى جانب فتاة شقراء.. حصل كل شيء بالصدفة. رأي، سألني بلهجة باريسية وهو يضحك، لأنه أدرك منذ اللحظة الأولى اننا كلانا من الشاطئ الشرقي للمتوسط، ان كنت احتاج الى تذكرة، سألني وقال يحاول ان يوضح ويعتذر:

- كنت أنتظر صديقاً من باريس، لكنه لم يأت، والآن عندي بطاقة زائدة، هل تحتاجها؟

ودون تفكير وجدت يدي تمتد الى جيبي وأدفع له ثمناً! حصل الأمر فجأة، وما كدت ادخل حتى رأيته، خجلت كثيراً وأنا أنزل مثل سمكة الى ذلك الكرسي الفارغ! كان يجلس الى جانبي، ناحية اليمين، وفتاة شقراء طويلة ناحية الشمال. وخلال الدقائق الباقية على بداية الحفلة، سألني ان كنت اجنبياً، فلما هزرت رأسي بالاجاب، قال:

- اترك لي فرصة لأن احزر من أي مكان أنت؟!

شعرت انه يريد كسر الجليد الذي بيننا بسرعة، اجفلت، حتى ان الندم شبك ذراعيه حولي، فظننت انه مكلف بمراقبتي، وإلا كيف التقطني من الشارع وأوحى إلي بشراء البطاقة؟ والآن كيف يتعرف علي بهذه الطريقة التي تعطيه الحق في ان يتحدث ويمزح؟

قلت والظنون تغزو رأسي:

- أنا من هناك، لا حاجة لأن تحزر، ويبدو اننا نعرف بعضنا قبل الآن؟ اين التقينا؟

إلتفت الي تماماً، نظر في وجهي وشفته السفلى تمتد، كأنه لا يصدق. قال:

- منذ رأيته، قدرت انك من هناك، لكن لم نلتق من قبل!

- هل انت متأكد؟.

- متأكد جداً. وصمت ثم سأل: هل نظن اننا التقينا؟

- تخيل لي ذلك!

- أين؟

- ربما على ظهر الباخرة.. وكدت أقول له في السجن.

كانت هذه البداية، ولا أعرف لماذا أصبحنا أصدقاء.

كان عبد الغفور يدرس الفنون الجميلة منذ ثلاث سنوات في مرسيليا، قضى هذه الفترة دون أن يسافر، كما قال لي، إلا مرة واحدة إلى باريس، وقال انه يكره السياسة ولا يحب أن يتحدث فيها، وليست له صلة بالطلبة، وإنما يقضي وقته كله في المعهد، ثم بالمتاحف، وما تبقى يقضيه مع النساء!

وبطريقة لا زلت اعتبرها غامضة حتى الآن، أصبحنا أصدقاء، وكأننا نعرف بعضنا منذ سنوات. تحدثنا عن مرسيليا وفرنسا، تحدثنا عن الفنون، وتأكدت في النهاية انه لا يمكن ان تكون له علاقة بأولئك الذين قالوا لي قبل السفر:

«اذهب الى اي مكان تشاء، لدينا من الوسائل ما يجعلنا نعرف ماذا تفعل.. احذر، لا تظن اننا بعيدون عنك».

لو كان عبد الغفور انساناً، آخر، أذنأ اخرى، لأنقذني، لكنه صم أذنيه تماماً، وقال لي مرة، ونحن نتطلع الى لوحة غارنيكا:

- اتعرف لو أن رساماً عندنا رسم هذه اللوحة لضربوه بالحجارة! اتعرف لماذا؟.

- لا!..

- لأن الحضارة سلّم ليس له نهاية، ويجب على الشعوب ان تبدأ من اول السلّم، وشعبنا لم يكتشف بعد السلّم ولم يسمع بشيء اسمه حضارة، لذلك فإن كل محاولة لاقناعه بغير ذلك خطأ..

- هل تقصد ان طريقة الرسم غريبة، أم الموضوع؟

- كلاهما: الطريقة والموضوع.

- الطريقة ربما، أما الموضوع، فإن مهمة الفنان، استلهام قضايا شعبه، المأسى، الأحزان، الطموحات، وهذه اللوحة مأساة كبيرة، وقد استطاع بيكاسو ان يقدم ثورة من خلال هذه اللوحة.

- كان بيكاسو يقود شعباً استوعب الحضارة... أما هناك فإنهم لم يستوعبوا شيئاً.

- عليك اذن ان تساهم!

- عليّ ان العن القدر الذي جعلني أولد على ذلك الشاطئ...
- لماذا؟

- لأننا نزحف الى الخلف، نرفض الحضارة ونحاربها، وأمامنا وقت طويل لنذكر هذه الحقيقة!

- تخطيء...

- لكي لا أدفع ثمنًا غالياً، أفضل الخطأ!

- تقصد انك تخاف من السجن؟ من المسؤولية؟

- هذا ما أقصده بالضبط!

منذ ذلك اليوم لم أتحادث معه في السياسة، لم أشر له أبداً اني كنت سجيناً، وان السجن مزقني ودفعني الى مرسيليا جثة تنتظر ساعة النهاية. شعرت أني لو قلت له كلمة، لظهرت كاذباً، وصمت.

سافر عبد الغفور بعد فترة، وحمل معه رسالة لحامد، وضمنها رسالتان لأنيسة وعادل. وأوصيت عبد الغفور ان يمر عليهم كل ثلاثة أيام، وأن يذكرهم بالأوراق، لم يسألني عن هذه الأوراق، ولم أقل له. اكّد لي انه سيحضرها معه، وسوف يعرف كيف يخفيها.

سأهيم أثناء غيابه المعلومات والمذكرات التي يجب ان اقدمها للصليب الأحمر في جنيف.

تلقيت رسالة من انيسة لم ارتح لها. قرأتها مرتين، لم تقل شيئاً خطيراً، لكن احس ان الخطورة في الأشياء التي لم تقلها.

لماذا تريدني ان أعود بسرعة؟ الشوق؟ شوقها وشوق الأولاد؟ لو كان الشوق

هو الذي يدفعها لأن تلج عليّ بالعودة، لكتبت ذلك بشكل آخر، لقالت كلمات اخرى، يبدو انها كتبت الرسالة اكثر من مرة، لاحظت ذلك لأنها قدمت سطرًا على آخر، ومن التاريخ. ربما تعرضوا الى مصاعب بسببي، سأكتب خلال ايام، واذا جاء عبد الغفور سيوضح لي كل شيء!

قبل هذه الرسالة فكرت بمجرد عودة عبد الغفور ان ابدأ حياة جديدة. حدثته عن ذلك. قال وهو يضحك: اذا قررت فالأمر سهل، سأطلب من صديقتي ايفلين حالما تعود من باريس، ان تبحث الأمر مع أبيها، وأعتقد ان اباها سيرحب بك في معمل الصابون الذي يملكه!

الرسالة اول اشارة حمراء تبرز في حياتي الجديدة. لا أريد أن أتعجل، لكن يبدو انني سأضطر لاعادة التفكير في المشاريع التي تملأ رأسي.

رسالة حامد واثقة، لها رنين متألّق، يقول لي: اعتن بصحتك، اما موضوع العودة، فقررته بالشكل الذي يروق لك.

لماذا يكتب حامد بهذه الثقة؟ لهجته تحمل معنى التحدي، ولأول مرة تكون عبارته قصيرة حاسمة، في المرات السابقة كان يكتب بطريقة اخرى.

والنقود لماذا حولها بهذه الطريقة؟ هل منعه من تحويلها فاضطر ان يرسلها بهذا الشكل؟

هل الطريقة التي اتبعها اسهل الطرق وأقصرها؟

انهم يتعرضون لمصاعب، لو ان الحياة هناك تسير بشكل طبيعي، لما لجأ حامد لأسلوب جديد، سواء بالرسالة أو بإرسال النقود.

اين أنت يا عبد الغفور؟ يجب ان ترجع بسرعة لكي تقول لي كل شيء!

عليّ الانتهاء بسرعة من اعداد المذكرات، اذا انتهيت منها سوف اسافر يوم السبت مساءً، وصباح الاثنين اكون على باب الصليب الأحمر. يجب أن أقابل المدير العام وأشرح له كل شيء، وبعد ان نقضي فترة طويلة في الحديث والأسئلة أقدم له المذكرات، وسأبقى في جنيف بضعة أيام، ربّما ينتهون من دراسة المذكرات، لنبحث في الوسائل الفعالة التي يجب ان يلجأ اليها. لن تطول اقامة عبد الغفور.

قبضوا على حامد اذن! حامد الآن رهينة، وسيبقى رهينة حتى أعود، قالوا لي:

«سنتظرك شهرين، يجب ان تعود بعدهما، ولا نقبل تقارير طبية أو أية معاذير أخرى، نحن نعرف كيف يعطون التقارير الطبية في الخارج».

الآن افكر بالإقامة والعمل، كنت أفكر بجنيف، ذلك النشيد الذي سينشده العالم كله بحنجرة واحدة، ليخيف الطغاة والجلادين، ويوقفهم! والرواية اية رواية يمكن ان اكتب؟ لقد اخطأت مرة، سقطت مرة، والآن تناح لي الفرصة مرة أخرى لأن أنهض، لأن أصرخ، لن أتركهم حتى يقتلوا حامد. يكفي انهم قتلوا هادي ورضوان، يكفي انهم جلدوا المئات والالاف... وأنا لست غريباً عن السجن، ان مت لن أترك ولداً ورائي يبكي، اما اذا قتلوا حامد فسوف يترك أربعة أطفال، يجب ان افعل شيئاً... لن أتركهم!

بقي لآخر الشهر عشرون يوماً، يمكن ان اسافر خلال هذا الاسبوع، ويمكن ان انتظر اسبوعاً آخر، يمكن ان أنتظر عبد الغفور، حتى اذا عاد، جاءت معه الرسائل والأخبار، وسوف أعرف كيف اتخذ قراراً. سيكون قراري هذه المرة، دفاعاً أخيراً. أعرف اني لن أغفر لنفسي، لن أغفر مهما فعلت، كانت الورقة ترتجف تحت يدي المبللة بالعرق، ولكن وقعت، سقطت... والآن هم ينادونني لكي اسحب توقيع.

الطهارة، الغفران، آلاف الامنيات البريئة التي راودتني في الليالي المربعة، تصورت انها ضاعت مني للأبد... الآن أراها امام عيني مرة أخرى... لا اطمح للطهارة الحقيقية، لا اطمح بالغفران، لكني أريد أن أفعل شيئاً لكي انقذ بقايا الانسان التي احسها تهدم في داخلي كل لحظة، انهم كرماء لدرجة لم أكن أنصorumهم، انهم يتيحون لي حق الدفاع كل لحظة، سأواجههم مرة أخرى، ليفعلوا، أي شيء، لم اعد حريصاً على حياتي التي تبدو لي مليئة بالقذارات والخيانة والسقوط.

سأقول لهم: عدت... عدت كما أريد، لا كما تريدون، سأعطيكم جسدي، اما ارادتي فقد تعلمت في رحلة الظلمة كيف أجدها مرة أخرى، خذوا ايها الجلادون، خذوا جسداً لم يبق فيه إلا الارادة، افعلوا كل ما تستطيعون، سيكون صمتي الرد الذي يقطع احشاءكم...

سيكون هنا الأربعاء وأبعد تقدير الجمعة. سأكون في جنيف اثناء عودته، لكن يجب ان اعود بسرعة لكي استقر وأرتب حياتي من جديد، كل شيء متوقف على المعلومات الجديدة، لا أريد ان التقي بأحد من الطلبة، ولا أريد أن أقرأ جرائد الوطن، أن الجرائد لا تولد إلا المرارة والغضب والطبيب أوصاني بالابتعاد عن كل ما يولد الانفعالات، ما زلت استمع الى نصائحه وأطبقيها، ويجب ان احاول الاستمرار!

جاءت طلفة الرحمة. جاءت يحملها اسم مجهول لم أسمع به من قبل ولم أعرف شيئاً عنه. رسالة جادة، قصيرة، وواضحة اشد الوضوح.

«السيد رجب اسماعيل.

أرجو المذكرة لأنني اكتب اليك دون معرفة سابقة، ولكن الظروف تضطرنني لذلك. لكي لا تظن ان في الأمر سوءاً أو مؤامرة، اشعرك اني صديق لحامد، وأنا الذي حولت اليك النقود في الفترة الاخيرة، حولتها اليك من خارج البلاد، بعد ان تعذر على حامد تحويلها، سيدي، الأمر دون مقدمات، ان حامد رهينة الآن، أوقف خلال الفترة الاخيرة، وطلب منه بعد التوقيف مراجعة مركز الشرطة ثلاث مرات يومياً، لكي يثبت وجوده. وقد حددوا له شهراً، وطلبوا منه خلاله حضورك، قال انه لن يكتب اليك مهما حصل، ويبدو انه حذر اختك، لأنها مرت علي قبل بضعة ايام، وكانت حائرة لا تعرف ماذا تفعل!

اضع امامك هذه المعلومات، تاركاً لك أن تتصرف، علماً بأن احداً لم يطلب مني ولم استشر احداً فيما كتبت، ولكن تقديري الخاص ان وضع حامد يستدعي المراجعة، خاصة وأنت تعرف ان الاطفال دون ابيهم سيواجهون مصاعب حقيقية.

اخشى في حال معرفة حامد بما قمت به ان يلومني على ذلك كثيراً، ولكن تقديري ان وضعك قد سوي، وليست هناك مخاطر حقيقية في حال وجودك هنا، ارجو ان تتخذ قراراً ايجابياً، خاصة وان الفترة التي اعطيت لحامد، ستنتهي في نهاية الشهر الحالي!

مرة أخرى، ارجو المذكرة، وتقبل تحيات صديق لم تره من قبل!

حسني عبد الجليل

ومنذ الغد، ومن مرسيليا سأبعث الى الصليب الاحمر، سأقول له كل شيء، اعرف ان شيئاً لن يتغير، وأعرف انهم سيضربونني اكثر من قبل، لكني سأعود اليهم.. هاأنا أعود وقد تعلمت شيئاً واحداً، وتعلمته بالصدفة، أتعرفون هذا الشيء، أيها الجلادون؟ انه الحقد.. ومن حقدي وحقد الملايين سوف نهدم سجونكم، سنهدم سراديبكم، لن نبقي سجنأ واحداً يقف على تلك الأرض الممتدة من الشاطئ الشرقي للمتوسط، حتى أعماق الصحراء، سنهدم السجون بأيدينا، لا بالسنتنا كما كان يفعل الكثيرون، كانوا يهدمون السجون بالسنتهم ثم يرمونها مرة بعد اخرى، ويفتحون فيها انفاقاً جديدة، ويضيفون لها دهاليز جديدة لكي تستقبل الأفواج الجديدة. خذوني هذه المرة، ولكن لن تأخذوا إلا جسداً ميتاً، اما ما حاولت ان أنقذه فأنتم الذين أنقذتموه!

لما اعطاني عبد الغفور الأوراق، طويتها بعد ان القيت عليها نظرة سريعة، ماتت في نفسي رغبة الكتابة.. اذا اتيج لي ان اكتب، فسوف افعل، ولكن يبدو أن الوقت الآن اصبح متأخراً.. وكلمات الأرض كلها لن تستطيع انقاذ سجين يتعذب!

سألت عبد الغفور:

- هل رأيت اختي؟ هل قالت لك شيئاً؟

كان حزينا وهو يقول:

- رأيتها، قالت أتمنى ان يبقى رجب في فرنسا، ولكن يبدو ان بقاءه سيكلفنا غالياً.

- وهل طلبت منك ان اعود؟

- لا.

- وحامد؟

- قال لي ليق حتى يشفى، ليق أطول فترة، ماذا يريد ان يفعل هنا، في بلاد السرايب؟

- وغير ذلك؟

- كانت اختك حزينة، ولما ودعتني بكت.

- سأعود الأربعاء القادم، سأعود على أشيلوس!

غداً أعود. في الحادية عشرة تقطع الباخرة، وأية باخرة؟ أشيلوس مرة اخرى. الصدفة؟ الرغبة المهمة؟ الشعور بالألفة الحاقدة؟ شيء ما دفعني لأن أؤجل السفر خمسة ايام من اجل ان اعود على أشيلوس.

لن اشتهها، لن أقول عنها، يا أشيلوس الزانية، يا آكلة الابناء. فعلت ظهرها لم يمت احد، لم اسمع طوال ثمانية ايام ان احداً مات. افرغت كل من وما في جوفها في الموانئ، وغداً تعود، لتتوقف في الموانئ مرة اخرى، وتقذف ما في جوفها، حتى اذا جاء ميناؤها الاخير، حملت حقيقي ونزلت.

تعبت هذا الصباح، انتهيت من صنع غلاف داخلي للحقيبة، سأضع الأوراق بين الغلافين حتى لا يكتشفها احد، اذا غرقت أشيلوس ذهبت معها الأوراق الى قاع البحر، وظلت راقدة هناك حتى تنفت أو تنهشها الأسماك. لن تراها عين زجاجية، ولن تلمسها أصابع الشمع، واذا لم تفرق أشيلوس، ووصلت ميناءها الاخير، ساحل الحقيبة بيد ثابتة وأنزل، سارمي الحقيبة في وجوههم وأنظر اليهم تلك النظرات الغاضبة الواثقة، وأقول بتحدٍ وهم يسألوني عما أحمل:

- اليكم الحقيبة فتشوها!

وسأبقى ثابتاً، فأخرج من الميناء وأدق الباب والضحكة تملأ وجهي، حتى اذا رأيت الصغار قبلتهم بطريقة تختلف عن الطريقة التي قبلتهم بها قبل ثلاثة شهور. أعود اليهم الآن بالهدايا والضحكات والأمل. أقول عدت. كان ممكناً أن أبقي، فكرت كثيراً بالبقاء، ولكن ها أنذا أعود. لم يدفعني أحد للعودة، عدت لأنني لم أستطيع أن أبقي، ويسألني الصغار، يترامضون حولي، ينظرون الي، واحملهم واحداً واحداً، وأقبلهم وأنا أضحك، حتى اذا تعبوا أو ملوا اخرجت لهم الهدايا، وقفزوا مرة اخرى، كل واحد بيده هديته، يضعها قريباً من صدره ويتقدم ليري هدية الاخرين، ثم يتبادلون الهدايا ليختبروها، ثم يسترجعون هداياهم وهم يضحكون.

عندما يهدأ الصغار، سأنظر في عيني أنيسة طويلاً واضحك من اللهفة والرغبة والشوق. لقد عدت يا أنيسة، عدت وحدي. لا أريد من احد ان يدفع ثمن

حريقي الزائفة! قرأت يا انيسة الأوراق بسرعة، وكتبت أوراقاً مثلها. والآن..
اتعرفين اين وضعت الأوراق كلها؟ انها معي، ولكن لن تعرفي مكانها، وتنتظر الي
بتساؤل، حتى اذا نظرت للحقيبة والثياب ولم تر شيئاً، قمت مثل قط، لأنزع
الغلاف بخشونة واستخرج الثروة الزائفة!

بمقدار ما حرقت من الأوراق، كما قالت انيسة وهي تكتب الي، فقد كنت
أتلوى من الألم، خلال الشهور الثلاثة حين كنت مضطراً لتمزيق ورقة. اشعر
بالخوف يا انيسة، كتبت، كتبت دون وعي. وربما لو قرأت ما كتبت في وقت آخر
لحقدت على نفسي كثيراً، لأنني لم أحرق هذا الهراء.. ولكنني الآن رجل مختلف
اشعر بنهايتي اقتربت، لم يقل لي أحد هذا، لكني قرأته في عيون الاطباء. كانت
طريقتهم بالحديث توحى بهذا الخوف. قالوا كلماتهم ببطء: «لا نريد أن نخلق في
نفسك وهماً كاذباً.. انت مريض ومرضك صعب لكن لاخطورة على حياتك، في
حالة واحدة: اذا تقيدت بالنظام الذي نقترحه عليك»، والنظام يا انيسة لا يستطيع
احد ان يتقيد به: الراحة، الهدوء، الاكل الجيد، البعد عن كل الانفعالات الحادة،
المفرحة منها والمحزنة». هذه بداية القائمة، لم أتركهم يكملونها بحرية، فاطعتهم
اكثر من مرة، ولكنهم حرصاً على القيام بالواجب، حتى اللحظة الاخيرة، الزموني
ان اسمع كل شيء. لا أتذكر، ولا حاجة بي لأن أتذكر.. قررت أن أعيش الأيام
القادمة بطريقتي الخاصة، وبعد ذلك ليأت الطوفان!

سأدفع اليك الأوراق يا انيسة لتقرأها سأتركك وحدك، لن أنطلع الي عينيك،
ولن أسألك بعد ذلك، ماذا سأفعل بالأوراق؟ أأحرقها كما فعلت في مرات
سابقة؟ نقي اني لا ادري. الشيء الوحيد الذي يسيطر علي الآن أن أقول بضع
كلمات قبل ان انتهي، وكما قلت لك في رسالتي مع عبد الغفور، لا يمكن للانسان
أن يكتب كل شيء، فعذاب الكلمة أقسى من أن يتحملة انسان بمفرده، ولذلك
فكرت بتلك الطريقة المجنونة، ان يتكلم عدد من الناس، في وقت واحد،
وبأصوات مختلفة، وبعد ان يتكلموا، دون رابط، دون نظام، ليكون أي شيء..
هل ما قالوه رواية أم هذيان.. لا يهم.

حامد لم يكتب لي شيئاً، سوى كلمة كبيرة في منتصف صفحة بيضاء: كتب:
الكلمة آخر سلاح يمكن أن الجأ إليه.

وعادل.. ماذا تتصورين ان عادل كتب الي؟ كتب رسالة قصيرة، قال فيها:

انه لم يسمع بقائد انتصر بالكلمة.. السيف وحده هو الذي يحقق النصر. هكذا
قال لهم معلم التاريخ، عندما حاول أن يسأله بمكر لكي يستعين باجابته في الكتابة
الي.

وأرفق بالرسالة صورة قال انه استوحاها من التاريخ. صورة غزال وذئب،
وأمامها ولد صغير يحتضن قطة.

ماذا يريد عادل ان يقول لي؟ فكرت طويلاً في الصورة، بالأفكار التي دفعته
لأن يصورها، لكن لم أصل الى اية نتيجة، سوف أخلو به وأسأله، الآن لا أستطيع
ان استنتج فكرة محددة، صحيح انه مرت في ذهني مجموعة تخيلات، لكن اياً منها لم
يثبت. ربما كان الذئب الجلاد، والغزال الضحية، ولكن ما معنى الطفل الصغير
والقطة؟ واية علاقة بين المشهدين؟ فكرت ان الذئب قوي والغزال ضعيف،
والصورة ترمز الى القوة بشكل ما، لكن ما علاقة الصغير والقطة؟ ولم أصل الى
نتيجة ايضاً. حاولت تذكر اية دروس في التاريخ مقررة على عادل، وما يمكن ان
يوحى له بالفكرة، لكن لم أصل.

انت يا انيسة كتبت. كتبت اكثر مما قدرت واكثر مما ينبغي. فتحت لي
جروحاً كانت قد انطفأت منذ وقت طويل. استغربت كيف تتذكرين حوادث، تبدو
لي صغيرة متوارية، بحيث يعجز الانسان عن تذكرها، كنت اكبر مني، تتذكرين
احسن مني، ومع ذلك، فإن القضايا التي تشيرين اليها لا تثبت في ذاكرة الانسان
اكثر من الزمن الذي يستغرق حصولها. كم مرة عددت في حياتي الى المائة؟ هل
أتذكر؟ كم مرة اغتسلت هل أتذكر؟ حتى لو حاولت ان اعيد مثل هذه الأمور الى
احتمالات رياضية بحنة فإنني لن أصل.

من الأفكار التي تحدثت عنها يا انيسة سأكتب ذات يوم رواية اذا قدر لي أن
أعيش، لا أعرف بعد ماذا سيكون موضوعها، ولكن الأوراق التي احملها معي
تكفي. وصلت الى افكار محددة، لكن كما قال لي حامد، وكما قال عادل الحكيم،
ما فائدة الكلمة؟ من سيقراها؟ حتى ولو قرئت فما تأثيرها؟

في لحظات معينة، وكثيرة، تبدو لي الكلمات مثل أوراق الشجر في بداية
الشتاء: مصفرة، ضعيفة، حتى اذا صفعتها الريح تطايرت ثم دبست بالأقدام. لم
تعد الكلمة كائناً حياً قادراً على ان يفعل شيئاً.. والآن وأنا أعود استغرب تلك
اللحظات المرعبة التي تدفعني بقوة لأن اكتب، اتصور ان الكتابة كفارة.. ولكن..

سأصمت.. سأضع الأوراق في مكانها، وسأعود الى الوطن.. انتظر ان يقبضوا عليّ، ان يعذبوني، ان يقتلوني بالرصاص.. لم يعد الأمر يهمني، وأعتقد انه سيكون شرف لي لو فعلوا شيئاً مما أتصوره.. ولكنهم كثيراً ما يخطئون، انهم لا يفعلون ما ينبغي أن يفعل، وكل ما أخشاه ان التحول الى جيفة في الوطن.. جيفة ينفر منها كل الناس، اذا رأي الصغار من بعيد قالوا: جاسوس. اذا جلست في مقهى، قال الكبار وهم يديرون لي ظهورهم: انظروا.. الرجل الاصفر الوجه، الذي يجلس وراءنا، خائن.. تصوروا الخيانة لونها اصفر، وتبدو على الوجوه بسرعة! أريد أن أكفر بشكل ما يا أنيسة.. سأتحداهم.. كل ما أريده منك أن تصبحي لي اكثر من أخت، ان تصبحي امأ.. تماماً مثل أمي.. انتذكرين كيف كانت!

وداعاً يا أصدقائي، وداعاً يا احبتي.. وانت يا أمي أودعك الآن، وأغفري لي، وبصوت يمزقه الاسى سألك: هل يمكن ليديك ان تستقبلا رجلاً سقط ويحاول من جديد، حتى بعد سقوطه، ان يتطهر؟

لو كان رجب حياً لكتب لكم رواية أو شيئاً آخر تستمتعون وانتم تقرأونه، لكن رجب رحل، رحل منذ وقت بعيد، ولا أجد الآن تكريماً لذكراه إلا أن أهرب الأوراق التي عاد بها الى وراء الحدود ونشرها كما هي.

لو كان حياً لغضب كثيراً مما أفعله، أما وانه اصبح تحت التراب، فأعتقد ان بعض الكلمات يمكن ان تفعل شيئاً، رغم أنه أوصاني بحرقها. ما زلت اتذكر تلك اللحظة المجنونة، كأنها لا تزال تقع تحت بصري الآن، تماماً الآن:

بعد ان عاد، ظل ثلاثة أيام. انها الأيام الوحيدة التي رأيت فيها رجب يعود طفلاً. فبعد ان زال الشحوب الذي كان يبدو واضحاً في وجهه، ربما من تأثير التعب، بدأ يقرأ «مذكرات بيت الموق» وقد الح عليّ كثيراً ان اقراه، واشترى كمية من الأوراق وقلماً جديداً، وقال انه سيبدأ الكتابة حالما ينتهي من قراءة الرواية.

ما يزال الكتاب وبداخله ريشة طاووس، الريشة التي كانت بداخل القرآن الذي تركه أبي، ولا أعرف كيف امتدت يد رجب، والتقطتها، وظل اثناء القراءة يداعب بها وجهه، حتى اذا انتهى من فصل وضعها حيث وصل وطوى الكتاب، وغاب في أفكاره.

ما يزال الكتاب وبداخله ريشة الطاووس، ولكن الريشة لم تتحرك، لم تغادر الصفحة الثامنة والتسعين.. جاءوا في ذلك الوقت، عند الغروب. لم نكن نتوقع مجيئهم في مثل هذه الساعة، لكنهم كانوا واثقين بحيث انهم دفقوا الباب بعنف، وصرخوا..

كان رجب يلبس منامته باستمرار تحت بنطاله، لما رأهم يدخلون، ظل جالساً واتسامة شجاعة على وجهه، قال لهم بتحد:

- لقد تأخرتم ، تأخرتم كثيراً!

انتزع احدهم الكتاب، تطلع اليه بقرف ثم رماه على الطاولة، التقطه رجب ووضع ريشة الطاووس في نفس الصفحة التي وصل اليها، ناولني الكتاب وسألهم:

- هل آخذ شيئاً معي؟ أقصد اقامتي هذه المرة طويلة أم قصيرة؟

قال له واحد لم أر وجهه، لأنه كان يقف وراء رئيس المفزة:

- الأفضل ان تأخذ ما تحتاج اليه!

قال رجب وهو ينظر اليّ ويتسم:

- لن آخذ شيئاً، لن احتاج الى شيء!

وساروا. مشى واحد امامه، واثنان وراه. ورجب مشى بثقة وجسارة، قبل أن يصل الباب التقط ليل التي تقف امامه وتضحك، حملها الى صدره، وسمعتة يقول لها:

- هؤلاء هم الوحوش الذين حدثتك عنهم الليلة الفائتة، انتذكرين؟

وتلقى بظهره دفعة قوية كادت توقعه، استند الى الجدار بيد وظل يحمل ليل باليد الأخرى، وقبل أن ينزها على الأرض، قال بصوت عالٍ:

- انظري اليهم جيداً، لا تضحكي لهم ابداً يا ليل!

وبكت ليل، كان بكاءً حاراً خائفاً، ولما لم استطع ان اوقف بكاءها بكيت معها..

ظل الباب بعد خروجهم مفتوحاً، حتى بعد ان غادروا بفترة طويلة، ظل لباّب مفتوحاً. لم يكن احد منا يملك القدرة او الرغبة لأن يفعل شيئاً. جاء عادل عد أن أخذوا رجب بقليل، ولما رأي ابكي أنا وليل صرخ من الألم:

- من مات يا أمي؟

وجاء حامد بعد الغروب بساعة، وبمجرد أن رأي ولم ير رجب احس. قال بسأل عادل:

- هل أخذوه؟

وهز عادل رأسه دون ان يجيب!

وغاب رجب، وحتى الآن لا احد منا يعرف ماذا فعلوا به، ماذا سألوه؟ بقي سجيناً ثلاثة اسابيع ثم جاء!

اتذكر تلك اللحظة المجنونة، كأنها لا تزال تقع تحت بصري، كأنها تقع الآن، تماماً الآن!

دقوا باب البيت، في الليل المتأخر، دقوه عدة مرات، ثم سمعنا هدير سيارة، كان الهدير قريباً صاخباً في البداية، ثم اخذ يتعد حتى غاب.

لما فتح حامد الباب، رأى خيالاً أسود على العتبة، صرخ من الدهشة والخوف ثم امتدت يده الخائفة المرتجفة، وكنت قد اقتربت منه، الى الخيال الاسود تحسسه، كان رجب، كان يلهث! كانت انفاسه قصيرة خائبة، حتى ظننت انه فقد وعيه. حملناه الى فراشة، نزعنا ملاهسه وبدأنا نتحدث معه. كان يسمع حديثنا، ويجيب اجابات قصيرة غامضة، اما يداه فقد وضعهما فوق عينيه، وكأنه يخاف وهج النور!

الجسد الممدد على السرير، الذي بدا شديد الهزال والشحوب، هل هو رجب؟ كنت أفكر، لكن لما سمعت صوته بكيت، دفنت رأسي على طرف السرير وبكيت!

ولما رفعت رأسي مرة اخرى لأراه عرفت الحقيقة كلها! لقد فقد رجب بصره. كانت عيناه ميتتين، تنظران ببلاهة، تدوران بدون معنى، ثم قال تلك الكلمة المربعة، قالها بهدوء مقدس:

- اعطني يدك يا انيسة.. اعطني يدك لأنني لم أعد أرى.

وصمت.

حاولت في اليوم الثاني أن اتحدث معه، ولكن لم أظفر بجملته كاملة، كان يردد كلمات، مجرد كلمات، وأغلب الاحيان، لا رابط بينها، وليست ذات معنى. اما الأكل الذي حضرته له فلم يستطع ان يأكل منه إلا القليل.

وفي اليوم الرابع، عند الظهر تماماً، مات رجب.

كيف حصل ذلك؟ لماذا؟ حتى هذه اللحظة لا أدري.

كان في صباح ذلك اليوم اكثر حيوية، وقد طفت على وجهه ابتسامة، اما رغبته في ان ينهض فقد اقنعته ان يؤجلها الى اليوم التالي.

ولما طلب من ليلي ان تجلس الى جانبه رفعتها الى السرير وجعلتها تقبله، ثم اجلسها الى جانبه. بدأت احس بالتفاؤل، وقدبرت ان صحته لن تلبث ان تتحسن، اما الكلمة التي قالها دون أن أسأله، ودون ان نتحدث، فهي:

- احرقني الأوراق!

قلت له اشجعه:

- اذا كانت الأوراق تضايقك يا رجب، فيجب ان تحرقها انت، كما كنت تفعل من قبل.

وردد بانفعال:

- احرقها.. احرقها، لا أريد أن يقرأها احد.

ووعده، دون حماس، ان افعل، وبدأت أحدثه كيف اني استطيع البقاء طوال عمري الى جانبه، لكي اكتب ما يمليه علي، وأنا ستفعل اشياء كثيرة.

كان يهز رأسه بحزن، ولا يتكلم، وفجأة رأيت وجهه يعتكر، كأن المأ حاداً يتلوى في داخله. انزلت ليلي عن السرير، ودفعتها خارج الغرفة، وظللت واقفة الى جانبه.

اتذكر تلك اللحظة المجنونة، وكأنها لا تزال تقع تحت بصري، تقع الآن، تماماً الآن.

تقلص وجهه، ثقلت انفاسه، اصابه شحوب شديد، ثم فجأة هز رأسه بقرق متألم.. وانتهى! اتذكر تلك اللحظة، كأنها لا تزال تقع تحت بصري، تقع الآن، تماماً الآن.

وبعد ذلك لا أتذكر شيئاً.

في الأسبوع الثاني لوفاة رجب اخذوا حامد. منذ ذلك الوقت اخذوه، وحتى الآن انقضت سنة وأربعة شهور، وحامد وراء الجدران، وكل ما استطعت أن اعرفه، انهم اعتبروه مسؤولاً عن كلمات نشرت في صحيفة اجنبية، وهذه الكلمات تقول ان السلطات هي التي قتلت رجب، بعد ان فقد بصره من التعذيب.

انا امرأة خاطئة، الخطيئة ولدت معي وسرت في دمي، ويبدو انها سترافقني حتى آخر أيام حياتي. لا أقول هذه الكلمات الآن لأعذب نفسي، لاكفر عن خطايا، لا.. أقولها وأنا متأكدة تماماً اني خاطئة.

قبل أيام رأيت عادل يجمع الزجاجات الفارغة في البيت، تركته يفعل لأرى ماذا يريد أن يصنع بها، ولشدة ما عجبت، عندما رأيته يملؤها بالزيت والبترين، انتزعته بقوة، وكدت أضربه، لولا أنه بكى وقال لي:

- أريد أن أهدم السجن وأخرج أبي.

لا أعرف، هل أخطأت عندما منعت عادل؟

اعرف اني أخطأت من قبل، وخطايي تلك لا أغفرها لنفسي أبداً.

عملت كل شيء لكي يخرج رجب من السجن، كانت خطيئتي الكبرى والأولى، ثم حين فكرت ان يعود، بعد ان قضى ثلاثة شهور في فرنسا، ان بكائي أمام عبد الغفور كان أقوى دافع حمل رجب على العودة.. وعاد وقتلوه.

لكن من قتله غيري؟ لو ظل هناك لما امتدت اليه ايديهم، ولفعل اشياء كثيرة تزعمهم، ولكن وأنا أزور حسين عبد الجليل، ثم لما بكيت أمام عبد الغفور، انتزعته، لكي أقتله. ولم تتوقف خطيئتي عند رجب، لأنني لمت حامد كثيراً، بعد ان سمعته يتحدث بصوت عالٍ وأمام عدد كبير من الناس عن مقتله. قلت له في تلك الامسية، بعد ان ذهب الرجال:

- اما أن لنا أن نستريح يا حامد..؟ ألا نترك رجب يستريح في قبره.

سألني بغضب:

- ماذا تريد ان أفعل؟

- لا تقل انهم قتلوه!

- ومن قتله غيرهم؟

- رجب انتهى، ويجب ان لا تقول شيئاً الآن.

ولم يتوقف حامد، بدأ يلعب لعبة رجب ذاتها، ولكن بشكل غامض ومخير. لم يتركوه طويلاً.. اخذوه.. منذ سنة وأربعة شهور اخذوه، ولم يسمحوا لي أن أراه

إلا قبل شهر.. كان يضحك وهو يسألني عن الصغار، وطلب مني بالراح أن لا آتي في المرة الثانية إلا وليل معي!

والآن.. لا أحاول أن أمتع عادل فقط، وإنما أردت أن أضربه.. هل أخطيء مرة أخرى وأنا أمتع..؟

قرأت أوراق رجب، بكيت كثيراً لما قرأتها، وبكيت أكثر لأنني لم أستطع أن أكون له أما كما أراد.. ولا أعرف الآن، هل أخطيء إذا تركتها تسافر خارج الحدود لتتشر؟ لو ظل رجب حياً لغضب، أنا متأكدة من ذلك، فقد طلب مني أن أحرقها، ولم أفعل، ولأنني أتركها الآن تسافر، ليقراها كل الناس، رغم كل ما فيها من أخطاء وصرخات، ولا أعتقد أن رجب يرضى عنها أو يريد لها.. لكن كما قلت لكم.. أنا امرأة خاطئة.. وأريد أن أتبع طريقة رجب ذاتها: أن ادفع الأمور إلى نهاياتها.. لعل شيئاً بعد ذلك يقع.

ربيع ١٩٧٢

انتهت